حوار الماضي والمستقبل



عبد السلام ياسين

حوار الماضي والمستقبل

الطبعة الرابعة: 2018/1439
ISBN: 9789953506265



لبنان – بيروت – البسطا التحتا – الباشورة

هاتف وفاكس المكتب: ٦٥٩٩٩٨ / ٠٠٩٦١

هاتف وفاكس المطبعة: ٨١٣٢٠٣ / ٠٠٩٦١

البريد الإلكتروني: darlubnan@hotmail.com

الموقع الإلكتروني: darlubnan.com

رقم الحساب للتحويل المصرفي

Darlubnan for Printing and Publishing

First National Bank-Jnah

Account No: 007-111940012

Swift code: FINKLBBE

Iban: LB 89 0108 0000 0000 0071 1194 0012

بسم الله الرحمن الرحيم

حوار الماضي والمستقبل

عبد السلام ياسين

مقدمة

الحمد لله العليم الحكيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبيه ورسوله الكريم الرؤوف الرحيم.

يطرح هذا الكتاب، إن شاء الله، سؤال المستقبل الإسلامي على حاضر الأحزاب الوطنية ليُعرَفَ من أيْنَ جاءت، وإلى أي مستقبل يؤهلها ماضي جهاد رواد الحركة الوطنية إن هي سلكت مسلَكهم -وكانوا أهلَ إيمان- أو تنكَّبتْ طريقهم وتخاذلت عن نصرة الإسلام.

سؤال مِحوريٌّ نكون عجَلَة مُفْلِتَة تدور في الفراغ إن لم نطرحه.

سؤال مجِهري بدون التبصُّر في الجواب عنه نوشك أن نعْمَهَ في دروب السياسة مع الكادحين في الأرض بلا وضوح ولا هُدىً ولا كتاب منير.

سؤال لكيلا يَطوِيَ عن الشعب الغشاشون ما في ملفات التاريخ القريب من حقائقَ تكشف زَيْفَ زَبَدٍ يطفو اليومَ على سطح الأحداث، واثقا بنفسه، جرِّيئا متزعّماً، منتصِبَ القامة في الساحة العامة، يزعم أنه وريث الكفاح الوطني، وأنه الذكي وغيرُه بلادة، وأنه الوفي وغيرُه الخائنون، وأنه النور والإسلاميون الظلام، وأنه الانفتاح والحريةُ وغيرُه التزمت والانغلاق، وأنه المستقبل المشرق الواعد بصفاء نظرته، وقوة تركيبه، وجماهيرية طرْحه، وغيره الخواء الفكري، والارتجال، والعجز، والجهلُ بآلياتِ الحركة العالمية.

يطرح هذا الكتابُ السؤالَ ليطلعَ الجيل الجديدُ المنهمكُ فِي ارتباكات حاضرٍ كئيب على مآتِي المشاكل التي يتخبط فيها الناس،

ومَصَبَّاتِها، ومسارِبِها، وتسلسُلِ أحداثِها، وتوليد أفكارها، وتفاعلِ الجيل الوطني من المؤمنين مَعَ مقتضيات الصراع مع الاستعمار. ثم استجابةِ الجيل الثاني لنداء الفكر الثوري التقدمي الذي غزا الأدْمغة، وراغَ بالمخضرَمين عن معاني نَشأتهم في حضن الوطنية المؤمنة إلى اتجاهات تائهة انحدرتْ عَقدا من الزمان بعد عَقد، وسنةً بعد سنةٍ، وَجولة في السياسة بعد جولة، وتوغُّلاً وتَغوُّلاً. تفاعل وراغ بعض الماثلين أمام الشعب، الواثقين بأنفسهم، المتزعمين، الـمُدّعين أنهم ممثلو الشعب وحدهم، وغيرُهم هبّتْ به الريحُ التاريخية كما تهب الرياح بالهُباب.

زبَدٌ وزيْف هم المرتدون عن دينهم، الملحدون. وهم قِلة وذِلة. هم القَذَاة في عين الحاضر. هم الاستثناءُ الوَسِخُ من عامة المسلمين.

إن كانوا يكرهون الشريعة الإسلامية ويجهلونها ويتجاهلونها، ويصورون الحركة الإسلامية -بما لهم من وسائل إعلامية وسندٍ من الحكم- كأنها التطرفُ والعنف والظلام، فذلك شأن كل أقلية تافهةٍ تحاول أن تُعزّ من شأن نفسها بتحقير الآخَرين، وتكثيرِ نفسِها بالاستخفاف بالآخرين.

ما نحنُ عندَ أنفسِنا بالمستثْنَى الدخيلِ، ولا نرضى لأنفسنا أن يفصِلَنَا مصطَلَحُ «إسلامي»، ويعزِلنا.

لا، ولا نحن في تاريخ الأمة نكرات.

لا، ولا نستثني من الخيرِ عامة رجال الأحْزاب الوطنية ونساءَها. ولا نستثني من الخير عامة العاملين في الأمر العامِّ مِن منظمات وجمعيات ونقابات وأحْزابٍ.

معيارُنا في الحكم على ماضي الحركة الوطنية، وحاضر التخبُّط، ومستقبَل الإسلام هو الإسلام لا غيرُ. هو الإخلاص لدين الله، هو الصدق في دين الله عقيدة وشريعةً وجهادا لنصرة دين الله.

والزبدُ الزيف القِلة الطافية الملحدة المرتدة تستثني نفسها من الأمة، وتتطاير كالفراشات السوداء المتهافِتة، يحرق أجنحتَها لهيبُ كفرها، وحقدُ إلحادها.

مدخل:
جثمان مقدس أو جثة محرجة؟

كيف، ولِمِ، وفي أي اتجاه، وبأية آليات فكرية وديناميةٍ سياسية اجتماعية انتقل جيل مخضرمٌ كان على مذهب من اتخذوا لأعمالهم الجهادية شعار «الإيمان، والإيمان وحدهُ» إلى زندقة مفلسفة، وزيغ سياسي، وإلحاد سَافر؟

نأخذ مثالاً حاضرا متخبطا.

تنم لغة التعبير الفرنسية عما في الضمير. ويكون الـمُغَرَّبُ تربية وتثقيفا وتعليما وتطبُّعاً وتطبيعا أشرح ما يكون صدراً، وأوْثقَ ما يكون تمكنا من قدرته على التعبير والبيان عندما يخاطبُ أصدقاءَهُ الفرنسيين الأصلاءَ، يتفصح بلغتهم، ويستعرض ملكاتِهِ الفكرية وبضاعته الثقافية الغربية، فيظهر في كلامه ما كان يخفيه ويكتمه ويُلجمه -لا يكاد- عندما يخاطب المسلمين بلغة المسلمين.

لا تتسع المجلدات للتعليق على ما فاه به الحسن الثاني، رأس الغَربنة وزعيمها، من ترّهَاتٍ تخبر عن جهله بالدين، وعن استخفافه وطيشه. منذ أربعين سنة والصحائف تزخر بتصريحاته وتلويحاته وعباراته الطائشة.

نكتفي هنا بآخر ما جادت به عبقريته الفذة. قُبيل رحلته إلى فرنسا شهر مايو 1996 بتاريخ النصارى، صرح في استجواب صحفي أنّ حكمه وحكمَ ملوك دولته يجمع بين السيف والكوبيون.

«الكوبيون» مِرَشَّةٌ يرش بها الكاهن الماء «المقدس» على الوليد والوليدة من أبناء النصارى وبناتهم، يسمون الرّش تعميدا.

استعمال «أمير المؤمنين» للفظة الكَنَسية يدفع إلى السطح القاعدة التصورية والمخزون الثقافي في ذهنية من ربته مربيات أوربيات منذ إهلاله، وغذته لغة «الكوبيون» وثقافة اجتماع السيف الملكي مع المِرَشَّةِ الكنَسِيَّةِ على تأسيسِ قَمع الدولة وهيبة القداسة. الأمر كله طقوس.

نقول هذه كلمة واحدة ونمضي ونطْوِي ولا نروِي. لولا أنها كلمة من كلام طويل مديد يعرفه الناسُ من أعاجيب الرجل.

ولولا أن لها أخواتٍ مخزِيات من جملة ما صرح به للصحافيين الفرنسيين قُبيل رحلة ماي 1996.

سأله صحافي مجلة «باري ماتش» عن الإشاعات التي تتحدث عن تدهور صحته. فيجيبُ: ويا خيبةَ الجواب! غيرَ آبه بأن الكلمةَ شِركٌ صارخ. قال: «أشْكر يدَ الله وأشكر الجنّياتِ السبْعَ اللواتي انْحنَيْنَ على مَهدي»، يشكرهن على سلامة صحته.

وتنشر جريدة الفيكارو بتاريخ 29 أبريل 1996 استجوابا بمناسبة زيارته لفرنسا. سأله الصحفي: «هل تعني أنك تشعر أنك أقرب إلى اليهود من النصارى؟». أجاب: «لو نظرنا إلى السلوك. فهذا بديهي. في كل لحظة من لحظات حياتهم يجبُ على المسلمين واليهود أن يتبعوا وصايا «الباتِرْفَمِلياس» الذي هو هناك في السماء».

لنترك التقارب بين المسلمين واليهود، فذاك من ثوابت سياسة الحسن الثاني. ولنقف عند كلمة «البَاتِرْفَمِلْيَاسْ».

الكلمةُ في القاموس الفرنسي تُكتب على صورة أصلها اللاتيني. وتَعني أب العائلة الرومانية. وتحمل إن استعملها الفرنسي الأصيل أو المغرَّب المتحذلق شيئا غيرَ قليل من الغَمز في «الأب» المتسلط المستبد.

ينطق لسان المغرّب المخلط على سجيته حين يخاطب نُظراءه الغربيين، ينطق بالطوامِّ الهوامّ. ينطق بكلمات هي الشرك بالله، والاستهزاء بدين الله، والطعن الطائش الخبيث في ذات الله –جل الله– وأستغفر الله.

ثم تجده في الدستور الذي أَلَّفه بمساعدة أساتذته الفرنسيين يزعم أنه أمير المؤمنين وحامي الملة والدين – الفصل 19.

وتجده حين يخاطب العلماء الوديعين المسلمين، منهم المستضعفون ومنهم دون ذلك، يندد بالشعوذة والمشعوذين ويفتعل الغيرة على دين المسلمين، ويغضب على «الغزو الفكري» الذي يهدد قِيمَ «بلده» الأمين.

كتب في رسالته إلى رابطة علماء المغرب 26– مايو –1979 يقول: «وإن مما يشغل بالنا وبال كل مسلم غيور على إسلامه، حريص على صفائه وإيمانه، هو ما بدأ ينتشر في بعض الأوساط من انحراف عن مبادئ ديننا الحنيف، ودعوة بعض الأفراد باسم الإسلام إلى مذاهب ومعتقدات ما أنزل الله به من سلطان، منْحَرفين بذلك عن الطريق القويم الذي لا عوج فيه، والكتاب الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه».

كتب ترجمان الإسلام الرسمي الحسني على لسان الحسن الثاني في رسالته هذه يحذر ويُوعِد ويهدد. قال: «وإن إدراكنا العميق، ووعينا الكامل بخطر الغزو الفكري الهادف إلى المس بقيمنا الروحية وكياننا الأخلاقي القائم على مبادئ الإسلام وتعاليمه الرشيدة، لَيزيدُ من شعورنا بعِبْءِ المسؤولية الملقاة على عاتقنا كأمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين في هذا البلد الأمين».

قلت: ما أعظم الفِريةَ وأكبرَ نفاقَ الإسلام الرسمي الحسني أن ينصِبَ نفسه حاميا للدين من قرأنا تصريحاته المتهكمة على الدين.

ما أعظم الفِرية، أو ما أعمق الجهل بالدين، أو ما أرقَّ دين زعماءِ الحاكمين في بلاد المسلمين.

«الأفراد» الذين يدعون إلى المذاهب والمعتقدات التي ما أنزل الله بها من سلطان هم الدعاة المنتشرون بين ظُهْرانَيْ المسلمين، المضطهدون، المعتدى عليهم، المشرّدون، الـمُقَتَّلُون، الـمُتآمَرُ عليهم من قُوى الاستكبار البلدِي والعالمي «المتطرفون»، «الإرهابيون» المتمردون على سلطان الجور والنفاق والشعوذة الرسمية.

هم مُسَعِّرو «الغزو الفكري» الأجنبي عن «دين الانقياد» للحكام، المناهضون له. لا كما يتصور المسلمون الغزو الفكريَّ هجوما خارجيا وداخليا لفلسفة الردة، وأخلاق الانحلال، وسياسة التطبيع مع اليهود بعد التطبيع الحميم الثقافي اللساني مع «الكوبيون» الكنسي، وعقيدة الجنيات السبع، وكفريات «الباترفملياس».

وأستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه من حكاية أقوال كافرة كاذبة خاطئة.

ويترجم القانون الوضعي الغاشم الذي به يحكم الجائرون في بلاد المسلمين نيات العدوان على المسلمين، فينصّ نصا صريحاً على أنْ لا مكان في بلاد المسلمين لإرادة تقاوم الإرادة اللاعبة بالدين، وتستقل عنها، وتشهد على شعوذتها.

يشترط قانون إنشاء الجمعيات في المغرب أن يُفتح باب العضوية أمام كل المواطنين المغاربة بدون ميز من حيث الدين أو العُنصر أو الإقليم أو اللغة. أي أن يكون الحزب السياسي والجمعية تكتلا لاييكيا

لكل «المواطنين». المواطنة الشرط الأول والأخير. والدين الذي يحمي حماه «أمير المؤمنين» هو دين الحرية البريئة من كل قيد إسلامي أو ضابط شرعي.

وعند كلمة الشرعي تعترض الإسلامية الرسمية المخزنية المستهترة بالدين لتوقف «الغزو الفكري» الإسلامي الذي يعْرِفُ الدين عقيدة وشريعة حين يعرفه المغرّبون فكرا مجرد عقيدة فردية، وعبادات وطقوساً تَرَحّبُ بها اللاييكية الملكيَّةُ كل ترحيب، وترحب بها اللاييكية الحزبية الديمقراطية.

لا شأن للشريعة والمطالبين بتطبيقها في القضية. يستَعجِم اللسان الناطق بلغة «رلجيون» معبِّراً عن عجمة العقول وانطماس الأفئدة عن تعقّل القرآن بلغة القرآن. ترجُمانٌ هناك في بواطن الفكر المغرب وظواهر النطق المغرّب واقف بالمرصاد، معه مصفاة العقلانية ينفي بها من ساحة الكلام والعبادة والمذهبية ما تنفيه سلطة القمع بقوارع القمع.

كن مسلما وديعا مصليا محوقلا ما شئت. لكن أن تجعل الإسلام! وهو «رلجيون» شخصي! سلّما للصعود السياسي، ولحاما لتكتل سياسي، ومذهبا في الحياة، وجامعا للشتات، فتلك هي الشعوذة، وذاك غزو فكري، وتلك استعمالات للدين بنيات أَجْنَبِيٍّ عنها الدين.

يحتكر النظام الوراثي المستهتر بالدين الكلام باسم الإسلام. فهو المفسر للإسلام، المرجعية الوحيدة في شؤون الإسلام، المعبّر الشاعر في إسطبلات الثقافة الغربية اللاييكية، في أرض الجنيات السبع الحانيات المعبودات المشكورات الـمُشْرَكات مع الله. تركض به العقيدة الفاسدة في متاهات التزييف على الإسلام كما تركض به سياسة الديمقراطية الحسنية في سوق صناعة الانتخابات المزيّفة.

ما تعرضنا في هذا الكتاب لمخازي الحكم الملكي، وأخلاق البلاط الملكي، واحتجان الملك أموال المسلمين، وإفساد الملك ضمائر الناسِ بشراء الذمم. تلك كلها هناتٌ بالنسبة إلى الإفساد الأكبر في الأرض. التفرعن والتأله والشرك وإفساد العقيدة والشعوذة باسم الإسلام.

ننظر في عقائد القوم المغربين نسائلهم عن حقيقة إسلامهم من حيثُ نقارن ماضي المجاهدين الذين كان الإيمان، والإيمان وحده نابضةَ قلوبهم ووَتَرَ عزائمهم بحاضر طبقة مخضرمة متأليكة، وأخرى نشأت في أحضان نضالية ثورية ملحدة ترتمي يوما من أيام نضالها الفاشل في أحضان الأب الأمير الفذ العبقري الإمام في فنون التدليس والتركيس، تلتقط الحَبَّ من أياديه المبذرة.

تلتقط طوْعا وكرها واضطرارا واختيارا. ثم تنسجم أصواتُها مع الصوت الأبوي المانِح الكابح لتقول الجوقة: لا للإسلاميين! لا لمن يستعمل الدين لأغراَض سياسية.

لا يتأتى للملتقط الطائع الكاره أن يَصْدُق مع نفسه ليرى من يستعمل الإسلام لأغراض هي نقيض ما تقصده شريعة الإسلام، وما تلزم به عقيدة الإسلام.

وإن تأتى له -والقوم أذكياء في حدود مصالحهم- أن يطلع على خبايا الخُدعة الملكية، وخوافي الشعوذة الملكية، فأنى له أن يعترف للناس بما هو فيه شريك الطوع والكره.

إسلام يحتكر الفهم فيه رجل، ما هو عالم بالإسلام ولا مؤتمن على الإسلام. فكل هامسة ونابسة باسم الإسلام خارج ظله الوارف تحرقُها شمسُ الهَجير القمعي.

وقوم تحت وارف الظلال، آبوا إليها بعد نضال وعناء أو لما يؤوبوا، ينعتون الإسلاميين بأنهم يحتكرون الإسلام.

كلنا مسلمون، بشرط أن تنحَّى الشريعة الإسلامية خارجَ الحلبة. كلنا مسلمون بشرط أن يعلمنا الإسلامَ رجلٌ يشكر الجنيات السبع على ما أوْلَيْنه من عطف وعناية منذ كان في المهد صبيا.

مسلمون بدون إسلام.

وإسلام يُعلِّمه أناس يلعبون بالإسلام.

كِفتان في ميزان الدحرجة اللاييكية اللادينية. شعاران في نطق النخبة المغرَّبة اللاقطة والـمُلَقَّطَة، والصامتة في بؤس التطلعات الطبقية، والأخرى تمطرها سحائب النهب اللبرالي الخيراتِ المغدَقة.

لسان ميزان الاحتكار الملكي والنضال اليساري الطائع المكره، المعارض الموافق، الخارجِ من اللعبة الديمقراطية الملكية الداخلِ فيها، هو القَدْر المشتركُ من الاندماج الفكري والولاء المذهبي للعقلانية الجامعة. عقلانية لبرالية يبرر بها الملك سفَهَهُ في الدين، عقلانية ماركسية لينينية -أو مخففة مجففة اشتراكية- يبرر بها ويَقتدي بها، ويكتسي بشعارها ودثارها الجامحون عن الدين، والمرتدون عن الدين.

لسان ميزان التدحرج اللاديني يلعب بين كِفتي الاستهتار بالإسلام يمينا مُفسدا، ويسارا يبحث -لا يزال- عن موقعه في رقعة شطرنج اللعبة. نسائله نحن من أين جاء، وما تاريخه، وكيف انحدر فكره، وكيف تنكَّر لدين آبائه وأمهاته؟

***

هل من شرط الحوار بين الماضي والمستقبل أن يكون همسا رقيقا بين أحباب في وَداعة الحُملان؟

وهل يقدَحُ الأسلوب السجالي، والكلمة الخشنة، في جدية الحوار؟

أم هل يصح شرعا ومروءةً ووفاءً وأمانة أن تُسدل أستار «التسامح» والتغاضي وتبادل المجاملات على ماضينا لكيلا نحرج قوما أو نجرَح شعورا؟

إذن فلا وضوح. إذن فلا مستقبل إلا دوَرانا حول رحَى الـمُكَرَّرِ المجنون. أو تناوبا من كِفةٍ إلى كفة في ميزان اللاييكية، يهدأ به تارة ويثور ميزان العقلانية المشتركة.

حتى إذا ما أعطينا لغة السجال وواجب كلمة القول البليغ تصفَع وجه الإلحاد والنفاق حقَّهما، رجعنا إلى النظر في مباني الماضي والحاضر، وسياق التاريخ والفكر، عسى أن ينفتح لنا إلى المستقبل الإسلامي الضروري تاريخيا، الواجب دينيا، الآتي بحول الله يقينيا، أفقٌ واضح.

للنظر في المباني الفكرية والتاريخية للحركة الوطنية، وخاصة للنخبة المثقفة المغربة يمينا وشمالا، أفردت فصولا طويلة لمساءلة القوم عن «العقلانية» التي أصبحت إلى جانب أخواتها وبُنَيَّاتها «الديمقراطية» «اللاييكية» «العلمية» الكلمة المفتاح، الكلمة الشمس الساطعة على الكون المثقف بالثقافة الغربية، المشعة منه، الكاشفة عن أسرار الماضي وحقائق التاريخ وآفاق المستقبل.

***

كثيرا ما يلمزنا بعض كتبة الصحف أننا ضد العقل. ويخرج علينا أحدهم باقتراح تصالحي أن نكف عن ذكر البنيات والأخوات لنركز خطابنا على الأم «العقلانية».

لهذا أطلت الحديث عن العقلانية ماذا تعني؟ ما أصلها وفصلها ونشأتها وتطورها في الفكر الـمُغَذِّي بواطن بعض الناس؟ خاصة ما

هي العقلانية التي نرفضها، وما هي العقلانية المرادفة للحكمة العملية العلومية التي هي حاجة العقلاء من الناس.

العقلانية التطوُّرِية تفلسف الإلحاد، وتعلمه، وتبني بيداغوجيتها عقول الناشئة. ولئن كان الملحدون المرتدون في ديارنا قلةً وذلة، فإن مراكزهم في الجهاز التربوي التعليمي يكسب نضالهم شِرَّةً منافقة مستخفية تارة جريئة تارة.

ولعل مساهمتَنا في كشف القناع عن وجه العقلانية المُلْحِدة الملَحّدَة وعن بيداغوجيتها المناضلة يلقي الضوء على مسار تاريخي نحن في سياق مساءلته.

لا نتصنع الأسلوب الأكاديمي المحايد «العلمي» المرتاح، المتدثر في أحضان العافية «الموضوعية». بل نعلن أن الإلحاد سخافة عقلية، وأن الردة عن الدين كارثة في الدنيا على الأمة، خزيٌ أبدي في الجحيم لمن اغتر بسخافاتٍ أفرزتها العقول الكافرة المريضة المطبوع عليها.

السخافة «الموضوعية» الأكاديمية سمعتها البارحةَ على المذياع. ألَخِّصها مساهمة في الحفر عن جذور العقلانية التطورية لنراقب مباني الإلحاد المعقلن المفلسف، ولنتأمل قواعده الأساسية وهياكله التحتية. فبناء عقل المثقف يتحكم في سياق تاريخه، وفي تصوره وآفاقه، واختياراته.

هؤلاء الفعلة في الحقل السياسي، المعتَدّون بذكائهم، المقترحون على الأمة أن تسلمهم زمام القيادة، الماسكون بالزمام فعلا، معارضة لاقطة، أو عدوانية رديئة ساقطة، إن رجع بعضهم عن العقلانية التطورية التاريخية مذهَبِ ماركس، فما لثلتهم من مخرج عن الإطار الفكري العام: العقلانية التطورية.

سمعت عالما كيماويا فرنسيا حاز جائزة نوبل للكيماء. قمة القمم في دنيا الأدمغة الذكية المتفوقة. شرح مباحث البيولوجيين في تنقيبهم عن أصل الحياة في هذه الأرض. منذ أربعة ملايير سنة بدأت الحياة على شكل خليات حية بعضها مستقل عن بعض. عاشت الخليات ثلاثة ملايير سنة على حالها. ثم بدأ تطوّرُ الخلايا وتجمُّعها وتركبها وتعقدها في المليار الرابع الذي نحن في نهاياته. بعد مليار سنة من تركّب الخلايا وتعقدها أفضى بها التطور إلى غاية الإبداع التطوري: الإنسان المعاصر ودماغه.

يفصل جائزة نوبل الذكي الخارق الذكاء القول في اكتشاف البيولوجيين، وفيما انكشف لمجاهرهم الإلكترونية اللازرية من عجائب الدماغ البشري. يتكون الدماغ البشري من مائة مليار عصيبة (نورون)، لكل عصيبة أطراف تواصل مع الخلايا الأخرى الدماغية عددها عشرة آلاف.

خلية حية برزت للوجود منذ أربعة ملايير سنة. بدأت تطورها منذ مليار سنة، نهاية تطورها الدماغ وعجائبه ووظائفه والذكاء والذاكرة والخيال وضبط حياة الهيكل الجسمي والنمو والسمع والبصر والذوق وأجهزة المنعة في الدم وتركيب الدم وتوصيل الأوامر إلى الأطراف إلخ.

ويسأل المذيع جائزة نوبل الألمعي كيف ولم بدأت الخلايا الحية تتطور وتتركب وتتعقد بعد أن عاشت فردا فردا ثلاثة ملايير سنة؟

يسأله لنسمع الفهاهة والغباء الدروينيين التطوريين العقلانيين في أفصح التعابير. قال الكيماوي الذكي: أدركت كل خلية أنه لا بقاء لها ولا قدرة على البقاء وصد العدوان الخارجي إلا بالتكتل. فانضم بعضها إلى بعض، وتوارثت الخلايا عادة التضام والالتحام والتعايش

حتى أصبحت كل خلية حية تنشق الواحدة اثنين، والاثنتان أربعة، والأربعة ثمانية، وهكذا كما نرى تكاثر خلايا البويضة في الرحِم.

المليارُ سنة إذاً، وإرادة خلايا مبعثرة تضامت في دنيا يحكمها المبدأ الدرويني اللاَّئيكي «البقاء للأقوى»، والخيال المريض لكيماوي عبقري، والصدفة. لم يفتأ صاحبنا يكرّرُ أنها عامل أساسي.

كل أولئك خلق الإنسان ! الزمن، ما الزمن؟ ومن يكور الليل على النهار؟ وما الـمُدة الزمنية؟ وكيف تتحمل المنهجية «العلمية» العقلانية التطورية أن يُسقط الباحث معانيَ ذاته -وهو الموضوعي مبدأً- فيعزُوَ لكائن تخيَّلَه قديمٍ هواجس نفسه، وتخمينات عقله، وفرضيات أبحاثه؟

سبحان الله كيف يطبع على قلوب الذين لا يعقلون. إن عقلوا في الساحات العملية العلومية وأتوا بباهرات النتائج وصنعوا الصاروخ والحاسوب، فهم عن ربهم لا خبرَ لهم. سبحانه سبحانه.

***

دعونا من الاعتبارات الضيقة القصيرة النظر السياسية الاقتصادية الاجتماعية الآنية المتأوِّهة في صحافة المعارضة ومشاريع التناوب الديمقراطي على ما يَتأزم معاش الشعب، وتتدهور أخلاقه، وتفسد إدارته، ويطغى نظام حكمه، وتَمتنع عليه التنمية، ويَهجر أبناؤه المتعلمون وبناته إلى أوربا في قوارب الموت، وتضطره الأوفاق الدولية وقوة اليهود والنصارى إلى إلتماس شراكة اقتصادية تُنعش الاقتصاد، وتشغل العاطلين.

دعونا من الحوار السياسي الضيق الآفاق القصير النظر. دعونا منه لحظةً، جلسةً، مرةً، حتى نعلم ما هي الأرضية التي عليها نجلس

نحن وأنتم، وما هي المباني الفكرية العقدية التي تحركنا وتحرككم، وما هو السياق التاريخي، والمؤثر التربوي التعليمي الفكري الذي صاغ تصورنا وتصوركم.

بعد ذلك يمكن أن ننفتح على مستقبل يرجوه الفضلاء الديمقراطيون المسلمون الوطنيون المخلصون رخاء ونماء وقوة، ويرجوه المنافقون من المناضلين قبل كل شيء «تقدما» وتخلّصا من «التراكمات» العتيقة التي تستند إلى عقيدة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإلى ذهنية تكفر بالعقلانية التطورية لتصدق خرافات البعث والنشور والحشر والحساب والميزان والصراط والجنة والنار.

إن كنا نلتقي فعلا مع الفضلاء المسلمين الديمقراطيين في إرادة النماء والرخاء والقوة للأمة فاجتماعنا وإياهم واندماجنا واندماجهم في الأمة إنما يكون على سياق الإيمان بالله وباليوم الآخر، وعلى سياق نظام حكم إسلامي هو الشورى، يومَ يقتنعون بأن للشورى سياقا غيرَ مساق الديمقراطية.

وهكذا تَصِلنا وإياهم وشيجة التوحيد التي كانت لُحمَة المجاهدين الذين كان شعارهم «الإيمان، والإيمان وحده»، كما تصلنا وإيّاهم بأجيال الإسلام في آفاق مستقبل الإسلام.

أما الآخرون الجاهلون بدينهم، المنكرون لكل دين، الثائرون على كل دين، المناضلون لهدم الدين، فلا نواليهم ولا نحبهم وهم المترجِمون عن تمردهم على الدين بلسان حال الإلحاد، ولسان قاله، ولسان ميزانه؟

لينتظر من ينتظرُ على رصيف القطار الإسلامي إن عجز عن مراجعة مبانيه، وجحد حق أحد من الناس في مساءلته عن مبدإ تاريخه، ومُنعَطَف انحرافه.

يعلم الله أنْ ليس للعاصي غيرُ التوبة مَخْلصاً، وأنْ ليس للمرتد عن دينه غيرُ التوبة منجاة من مصير المجرمين الذين هم في النار خالدين.

ويعلم الله أننا إن كتبنا بلهجة مثيرة فما قصدنا، وما سقف أمانينا إلاَّ أن نرى أنفسنا تائبين مع التائبين، فرحين أن تاب بتوبتنا تائب، نجد إن شاء الله تأثير توبتنا وصدى دعوتنا إلى توبة في ميزان حسناتنا عند الله.

ذلك القصد. اللهم فاغفر وارحم. اللهم فاكتبنا مع التائبين.

***

أما بعدَ الحديث عما يخترق العقول ويُصَنِّعُها ويُحَرِّفُها ويردِم الفطرة في أسِّ مبانيها، فهل اختراق حجب الزمان القريب لتجلية مناظر تاريخ الوطنية في المغرب، وعرض حالها والاستماع إلى أصواتها، وإحضار الشهود من أهلها، أمر مباح صراح؟

أم هي جثمان مقدسٌ شأنه أن تُشاد له الأضرحة المرمرية مُوَقَّراً مَهيبا؟

أم هي جثة مُحرجة يليق بها أن تُدس في التراب، عورة تستَر، فضيحة يُعَفّ عن نشر سوءاتها؟

إن كانت المجاملات في تواصل الأفراد تخلُّقاً اجتماعيا محمودا، فإن الساكت عن الحق شيطان أخرس كما قال أبو علي الدقاق رحمه الله.

والحق، والبحث عن الوضوح، حليفان في الشورى -وهو النظام الإسلامي الشرعي- كما هي الشفافية و«البرسترويكا» حليفان لديمقراطية يرجع إليها غرباتشوف تائبا، ويتشوف إليها من قد يؤلمهم ويُحمي فيهم الغضب أن يطالبهم أحد بكشف حساب وطنية هم فيها مفلسون، وكشف حساب نضالية هم فيها مبلسون.

أمامنا أيها الفضلاء مستقبل مليء بالتحديات المصيرية. لا يمكننا أن نقوم لها إن سكَنَّا في مُستراحات المجاملة. ولا قوة لنا جميعا أن ننفع أمتنا ونرقى بها مراقيَ العزة والكرامة إن خندق بعضنا خلف سِرِّية ماضيه وسياقِه ومبانيه ليوهم الشعب ويكذب على الله والناس والتاريخ.

وضوح.

وحق مطلوب أبدينا وجهة نظرنا فيه. فهل من يدحض بالحجة ليبرِّئَ المتهم؟ ما تكون فرحتُنا يوم ينبري التائبون ليكسروا «احتكارنا» للإسلام، وليدخلوا المسجد بخطى السكينة تائبين وإيانا من مساكن الخطيئة!

نفرح والله.

***

هذا أولا. ثم نجتهد بعقل المؤمنين، باحثين عن جواب التحدي الاجتماعي الاقتصادي السياسي الطبقي التخلفي التطبيعي التضبيعي.

انكسرت سفينة النداء الإنساني العميق الذي نادت به الشيوعية وتنادي به الاشتراكية: نداء العدل الذي لا أسبق منه في برنامج كل إصلاح. ولا أشْجى صوتا منه في آذان المحرومين.

ومن الواقع الحاضر نبدأ معشر الفضلاء. تعاملنا في هذه الصفحات مع الأفكار، وغدا نحن وإياكم على الساحة، كيف نفك الأغلال، كيف ننصف المحروم، كيف نبني للأمة قوة، كيف نحرر الإنسان من ظلم الإنسان؟

هذا أفق قريب، بل مُلاصق مُريب، وعقبة ماثلة جاهزة.

ما يفعلُ شيئاً إلا استبدال خبال بخبال ذلك الذي يظن أن الإيواء إلى كنَف الرأسمالية ومذهبِها من حُطام الاشتراكية يفك أغلالا، وينصف محروما، أو يبني قوة، أو يحرر إنسانا.

الركن الشديد الذي يأوي إليه المسلم هو الله. بالإيمان بالله فك الأغلال، بشريعته إنصاف المظلوم، بالولاية فيه تقوى الأمة وتندمج شعوبها، بالعبودية له يتحَرر الإنسان من ظلم الإنسان.

بالله وحده. بالإيمان، والإيمان وحده.

بالإيمان بالله، بطاعة الله، بتحكيم شريعة الله في الحياة الخاصة والعامة، في عبادات الأفراد وعبادة الجماعة، ومنها الحكم بما أنزل الله شورى في سياق الشورى. بالتقرب من الله بما يهدي إليه كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ينال العباد سعادة الدارين. «**وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**» ذلك مرمى طرف الصالحين المؤمنينَ وأفق تطلعهم. لا عوائد الزعامة السياسية وفوائد النضالية الثائرة على الدين، الجاحدة المنافقة.

من حاضرنا الملاصق الضاغط لا يستطيع غريق بحر السياسة السياسوية الاحترافية، ولا الوطني مَنْشأً طال عليه الأمد فنسي المبدأ والمعاد، أن يتطلع إلى أفق عزة الإسلام في الدنيا، إلى أفق بشارة الإسلام للإنسان، إلى أفق يخرج فيه الإسلام من عهود غربته وغيبته شمسَ هداية للناس كما تخرج الشمس النجم لأعين المبصرين من فوق غمام كان يطيف بسماء المبصر وآفاقه.

والحمد لله رب العالمين.
السبت 14 محرم 1417.

الفصل الأول

«الإيمان، والإيمان وحده»

- نخرج من الجِدال إلى الاعـتبار
- الوطنيون المؤسِّسون المجاهدون
- اعـتقال الرمز الوطنية
- المدرسة الرجل، والرجل المدرسة
- تجسَّدَ الإيمان في رجال أشداءَ
- ما ألّفَ وكوَّن طلاب الشهادة؟
- «ربْطهم بالخالق جلّ وعلا»
- مسيرة تربوية متكاملة
- مجتمع جديد قَضّ مضاجع الاستعمار
- كم من فئة قليلة... في «أنوال»
- سلاح الدبلوماسية السريّة
- حصيلة وأرقام
- القائد المؤمن العبقري
- قِرَانٌ وقِرانٌ
- النواة الصّلبةُ
- عتَبَةٌ ومدخل

نخرج من الجِدال إلى الاعتبار

«الإيمان، والإيمان وحدهُ» كان الكلمةَ النهائيةَ لملحمة تاريخيةٍ أبطالها من طينةٍ غيرِ طينة النفاق، من معدن إسلامي خالص.

كلمةٌ قالها محمد بن عبد الكريم الخطابي أمير الريف، رئيس جمهورية الريف، بطل الإسلام والعروبة، أسَدُ أجْدير، أستاذُ حرب العصابات في العصر الحديث، إلى غير هذا من ألقاب الفَخْر والفخامة والعزة الشامخة.

ماذا قال هذا الرجل وما فعل؟

المقالة العنوان أولا. وأعتمد في هذه الفقرة على نقول من كتاب محمد سلاّم أمزيان أحَدِ رجالِ جيش التحرير البارزين رحمه الله بعنوان «عبد الكريم الخطابي وحرب الريف».

وهو رفيق في القاهرة لأسد الريف. عاش معه سنوات. ريفيٌّ يعرف البلد، وأهل البلد، وعادات البلد، وتاريخَ البلد. سمِع ممن شهدوا الملحمة، وسمعَ من الرجل الكبير، وتثبتَ معه وراجعه. فشهادتُه مباشِرة موثوقة.

انتهت حرب الريف بهزيمة محمد بن عبد الكريم أمام جحافل دولتين عظيمتين، فرنسا وإسبانيا. وتأمَّل ابن عبد الكريم حصيلة الملحمة. خمسة عشر ألف وخمسُمائة من الشهداء الريفيين. ومائتان واثنان وثمانون ألفا وسبعُمائة وستون قتيلا مُعظمُهم من أبناء المغرب وشذّاذ الآفاق المرتزِقةُ من شتَّى الأجناس، والقيادة من كبار الضباط وصغارهم فرنسية إسبانية. كتبت الأرقام بالترتيب المألوف في هذا

الوقت. وأرجع إن شاء الله إلى الأرقام، فالجهاد الذي قادهُ ابن عبد الكريم رحمه الله مظهر من مظاهر القوة، والقوةُ عَدَدٌ وعُدّة، أرقام وحصيلة أرقام.

تأمَّلَ الحصيلة فقال: «لا ريْب أن الذي ساعدنا على محاربة الأعداء سنواتٍ لَمْ تمُرَّ فيها لحظة دونَ موقِعةٍ أو معركةٍ أو ضحايا هو الإيمان، والإيمان وحده. إن الإيمان هو العامل الأساسي، وهو السلاح الأقوَى في كل الحروب التحريرية. بل في كل عمل جدّيٍّ». [1]

أفتَح هنا فاصِلةً لأبْدي ملاحظتين :

الأولى هي أن هزيمة محمد بن عبد الكريم رحمه الله كانت تتويجا لجهادٍ خارقٍ أيد الله فيه رجالا صادقين صمدوا ستّ سنوات أمام تعبئة ساهمتْ فيها أوربا، واهتزّت، وخافَتْ، وحشدتْ كل ما في وُسْعِها. حشدت فرنسا الخارجةُ منتصرةً من الحرب العالميةِ الأولى مواردَ مستعمراتِها من رجال، ومواردَ خبرتها العسكرية من عشرات الجنِرالات وألوف الضباط، ومواردَ مصانع طياراتِها ومدافعها وبنادقها وقنابلها وآلات اتصالها. وكذلك فعلت إسبانيا.

ومن وراء فرنسا وإسبانيا كان التأييد الدبلوماسي والعسكري من انجلترا الخائفة على مستعمراتها في الهند ومصر. بل كان التأييد من متطوِّعَةِ أوربا وأمريكا. طيارون أمريكان جاءوا يتدربون على قنْبلة ما سماه ناطقٌ من ساستهم بوُعول الجبل.

كان سكان الريف على عهد ابن عبد الكريم لا يتجاوزونَ ثلاثة أرْباع المليون، نساء ورجالا وأطفالا وعجزَةً.

كانت أسطورة لا يصدقها العقل. شهد بذلك الشرق والغرب. فلولا أن الأحداث قريبة لا يفصلنا عنها إلا سبعون عاما، ولولا أنها

(1) محمد سلام أمزيان، «عبد الكريم الخطابي وحرب الريف»، ص: 250.

أحداث مُوَثّقَةٌ مكتوبة مرْئية مسموعة في الأفلام لَمَا صدق الناس. وأرجع إن شاء الله إلى سَرْد أحداثٍ.

الملاحظة الثانية هي أننا لا نتَمَسَّحُ ببطل مسلم ومجاهدين مؤمنين لنلتمِس من رصيدهم الضخمِ الفخْمِ مشروعيةً تاريخية نقذف بها في وجْه من يُعيِّرنا أننا طارئون على الساحة دخلاءُ. لا نريد أن نبتَعث أرواحا ذهبت إلى الله راضية مرضيةً إن شاء الله لِنؤصل لأنفسنا سلفا، ولنتخذ من كسب غَيْرنا رصيدا نضاليا.

إننا لا نبحث عن جذور في الوطنية، ولا في الكفاح الوطني، ولا في المقاومة المسلحة التي ضربَ فيها محمد بن عبد الكريم بالسهم الأوفى.

جذورنا أعمق، جذورنا الدعوة المحمدية. رحم الله الوطنيين المسلمين الذين جاهدوا الاستعمار القديم، ومات بعضهم واستُشهِد آخرون وفي حلوقهم مرارةُ الاستعمارِ الجديد، استعمارٍ شِعارهُ لا يَمتّ بصلة لكلمةِ : الإيمان، والإيمان وحده.

رحِمهم الله وغفر لنا ولهم. إن أَفَضنا في هذه الفقراتِ في ذكرهم وعرض شهاداتهم في نصوص ناطقة صاعقَةٍ فذلك لنكشف للأجيال التائهة، بل المتيّهةِ، كيف انقلبت الوطنية المسلمة نضالا ملحدا، وكيف أجْهضت المقاومة المسلمة وسُطي عليها، وكيف نبغ جيلُ الأمثالِ المفاوضينَ الذين تنازلوا عن شهامة ابن عبد الكريم وأمثاله، إن كان له أمثال، ووضعوا عند قدَمي الجبابرة المستعمرين مكتسباتِ الرجالِ.

رحم الله تِلك الأرواح، وألحقنا بهم مسلمين. ما هم لنا أصلٌ ولا كسبُهم لنا رصيد. هم فروع من دوحةٍ ننتمي إليها جميعا. ربُّنا وربهم الله، رسولنا ورسولهم محمدٌ صلى الله عليه وسلم. كتابنا وكتابهم القرآن . أبونا وأبوهم الإسلام، أمنا وأمهم الشريعة.

نُنْهَلُ ونُعَلّ وإياهم من زُلالِ الإيمان بالله ورسوله. ويَعُبّ الخَلْفُ من كدَرٍ لا تصفو مناهلُه.

الوطنيون المؤسِّسون المجاهدون

لم يكن المسلمون الوطنيون المؤسّسون رحمهم الله، وفي مقدمتهم ابن عبد الكريم رحمه الله ورجالُه، بحاجة إلى تميُّزٍ غيْرِ التميّزِ باليقظَة والوعيِ ومقاومةِ العدو الداخل عن المتبلدين والمتعاونين والنائمين. لم تكن إسلاميتهم، وعقيدتُهم محَل شكٍّ.

فلما أفسد في أرض العقيدة وسماءِ العقولِ الخلْفُ المختلطون على مدى أربعين سنةً احتيجَ إلى تمييز بين مسلمين وإسلاميين.

احتيجَ لتمييز في العبارةِ المعرِّفةِ، لأن المعَرَّف بكلمة «مُسلم» نكِرَةٌ مقنّعَةٌ «فمسلمون» بلا صلاة، و«مسلمون» بلا عقيدة، و«مسلمون» يكرهون الشريعة، و«مسلمون» يحتفلون مع أعدائنا فرحا بمناسبة كارثةِ أمتنا: التطبيع مع اليهود الصهاينة.

كان العدوّ هاجما من خارج، معروفةً نيّتُهُ، مكروهاً حضورهُ، ممْقوتاً وُلوغُهُ في دمائنا وأموالنا. لذلك ركّزَ المسلمون الوطنيون المؤسسون رحمهم الله على مقاومة العدو الخارجي. لم يفطنوا إلى الـمَكر الخفيّ الذي استحمر عقول أبنائهم وبناتِهم.

وانجَلى الاستعمار القديم، وبقي استعمارُ اللغةِ، لغةِ اللسانِ، ولُغةِ التفكير، ولغةِ المعتَقد، وُكلاؤُه من مخلفاتِ استِعمارٍ واجههُ بالنار ابن عبد الكريم وَوَرَثَتُه المقاومون، وواجهه بالنضال السياسي علال الفاسي وابن الحسن الوزاني وجيلُهم السعيدُ رحمهم الله.

«وها نحنُ نعانِي آثار الغزْوِ الداخليّ. فنحن نرَكّزُ على شكّ دخل عقيدتَنا، على وسوسة شيطانيّة تسوّل، على سوسٍ إلحادي يَنْخَر في العقول، على دخيل متلبِّسٍ بلباس الإسلام والقلوب ذئبية.

«الإيمان، والإيمان وحده» كانت كلمةَ مجاهدٍ قادَ مجاهدين، منهم من قضى نحبه إلى رحمة الله، رحمهم الله. وانتظر ابن عبد الكريم في المنفَى بضعا وعشرين سنة (1925-1947) فماذا كانت كلمتُه بعد أن نظَّم فرارَه إلى القاهرة رجالٌ وطنيون لم ينسَوْا فضلَه؟

وجد ابن عبد الكريم في القاهرة وطنيّين مغاربيين من تونس والجزائر والمغرب انتظموا في جمعية سياسية اسمها «مكتب المغرب العربي». عنوان متواضع لنشاط متواضع انحَصر في الإعلام السياسي والتعريف بقضايا المغرب العربي وتدبيج المقالات وإقامة الحفلات.

بعد بضعة أشهرٍ أسس الريفي المجاهد «لجنة تحرير المغرب العربي»، أرادها أداة عمل لا معرضَ كلام. فماذا كان البندُ الأول من ميثاق اللجنة؟ هل يتطابق قصدُ العمل المستأنَف والكلمة التي أنهت جهادا مضى؟

كتب ابن عبد الكريم في البند الأول «المغرب العربي بالإسلام كان، وبالإسلام عاش، وعلى الإسلام يسير في حياته المقبلة». طريقة واضحة كانت وبقيت. لا الصّدام الشديد مع جيوش الدولتين الأوربيتين صرفَ النيةَ عن قصدها، ولا طولُ الـمُقام في جزيرة النفي أوهَى العزيمة الإيمانية.

كان من أوائل عمله المستأنَف أن دعا الموظفين المسلمين في الإدارة الاستعمارية إلى توبة. شديدا كان على الكفار في المواجهة العسكرية، رفيقا رحيما بينه وبين التائهين من أبناء الغرب الإسلامي

كما كان يُعبر. وهي سِمَةٌ من سِمات المؤمنين ﴿أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾.

كتب في رسالته إلى أبناء المغرب العربي ما يلي: «بلغني أن البعض منهم [من الموظفين] لا يُراعي في إخوانه الأهالي إلاًّ ولا ذِمَّةً [...] ولا شك أنهم إن لم يتُوبوا ويثوبوا إلى الاستقامة والنزاهة والعمل لرفع شأن الوطن بإقامة العدل في الأمة فسيجازَوْن عاجلا أو آجلا، إنْ خيراً فخيْرٌ، وإن شرّاً فشرٌّ. والله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِرْ ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللّهَ﴾[2].

قال: «والله أسألُ أن يوفقنا جميعا لما فيه سعادةُ الدارين ورفاهية الوطن وتحريره نهائيا. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

أخوكم عبد الكريم الخطابي 5/ 1/ 1948.

نقف عند هذه الرسالةِ لنستكْنِهَ نية المجاهد المسلم. ماذا كان يفعلُ لو وصل إلى السلطة ومارسها في دولَةٍ أكبَرَ من جمهوريته التي لم تُعَمَّرْ طويلا. هذا الذي كان الإيمانُ بالله وباليوم الآخر عقيدَتَه، وكان القرآن شاهِدَه، وكانت سعادةُ الدارين مطلبَهُ لنفسه وللمسلمين، كان مذهبُه في علاج آلام الماضِي وانحرافات الماضي واضحا. كانت له رُؤيَةٌ مستقبليَّة في كيفية طَيِّ صفحاتٍ لا تَسُرُّ. كانت في ذهنه وقلبه مترادفات قرآنية: الإيمان، والإيمان وحده = اتقوا الله حق تقاته = لا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون = سعادة الدارين. وكانت التوبةُ والدعوة

(1) سورة آل عمران، الآية: 102.

(2) سورة النساء، الآية: 131.

إلى التوبةِ أصلا من أصولِ عمَلٍ مستأنفٍ يصِلُ حاضرا بمستقبل، ومستقبلا بماضٍ.

كان ماضي جهادِه إيمان، وتقوى، واستشهاد في سبيل الله، وعدل، وصلاة، وزكاة.

كان رَتّب في جمهوريته نظاما متكاملا كأحدث ما يَكون النظام، في نطاق وسائله المحدودةِ، وفي معمعان حرب لم تتوقف يوما واحدا طيلة ستة أعوام. كان له مجلسٌ وطنيٌ مكَوّنٌ من ممثلي القبائِل يشاورُهم -وهو قائد حرب ورئيس دولة- في شؤونهم المدنية والعسكرية. وكانت شؤونا متداخلة، إذ لم يَكن هناك جيش منظّم متفرغ للجهاد، إنما كان الشعب كله مُعباً. يُطِل هذا على بيْدَر حِصاده إطلالة، ثم يَخِف إلى ميدان القتال.

أقام العدلَ فَخلَت السجون إلاَّ مِنْ أسرى الحرب. أقام الزكاة الشرعية فاستغنى الفقير.

العدلُ كان هاجِسَهُ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، نموذجه كما يدُل على ذلك لقبُه الذي اختاره تيمُّناً، وَوَرِثَهُ نسباً. فهو من ذرية عمر الفاروق رضي الله عنه.

رجل الإيمان، وجهاد المؤمنين، شغلاَ العالَمَ قاطِبةً طيلة ست سنوات. فزِعت أوربا واهتز حُلْم الاستِعْمار.

وانكبَّ كلٌّ يُؤوّل الانتصاراتِ الباهِرَة تأويلَه. عبد الكريم الخطابي. (يلغون اسمه الحقيقي محمد) بطل، عبقري، جنرال استثنائي، حرْبٌ ما سُمع بمثل نتائجها، تكتيكيٌّ مُبدِع، عقل جبار، مهارة مُذهِلة.

يؤوِّلُون ويُبْهَتُون، والرجل رجلُ الإيمان، والإيمان وحده في حقيقته.

اعتقال الرمز الوطنية

عبد الكريم أسطورَةٌ. عبد الكريم رمزٌ اعتقله متعطشون لبطولات، ورافضون لواقع فاشل، ومستهلكون محترفون للرموز السياسية.

ريفي أمازيغيٌّ مَحْضٌ عنْصُراً، مسلِمٌ جوهرا ، اعتقلته القومية العربية في بداية خطَاها نحو اللاييكية، ونوّهت به، ورفعته عَلَما تفاخر به علَم الغازي البطلِ التّركيِّ مصطفى كمال. هذا دوّخَ جيوش الحلفاءِ وأنقذ الخلافة العثمانية. وذاك صمد في وجه دولتين عظيمتين وهزمهما هزائمَ مشهودَةً.

وذُكر في الجرائد «الغازي العربي عبد الكريم». انتهازيةٌ قوميّةٌ جردت الرمز الإسلاميَّ من إسلاميته لتُطاوِلَ به أمجاد الغازي التركي. لتقطع به آصِرة الأخوة الإسلامية الرابطة بين عرب وترك. لكم غازيكم ولنا غازينا !

كان المنافق التركي الجنرال مصطفى كمال يتظاهَر إبَّانَ كفاحِهِ بأنه نصيرُ الإسلام. فلما استتَبّ له الأمر قتلَ علماء المسلمين وأجهز على «الرجل المريضِ»: «الخلافة» العثمانية.

كان ممن اغترّ بالجنرال المنافقِ في أول عهده قائدُ الجهاد المسلـمُ ابن عبد الكريم. ثم أيقظ الريفيَّ المؤمنَ إيمانُهُ، وغوَى الملحد «الذِّئبُ الأحمرُ» وهَوَى قبحه الله.

لا نَأْلُو نُميِّزُ بين الحق والباطل، ولايةً لأهلِ الإيمان وبراءةً من المنافقين الملحدين. ذلك لكيلا تسرِقنا المصطلَحات «الموضوعية» الـمُعَقمة المحايدة، الديمقراطية والثورية، التي تجمع الناس وتصنفهم طبقاتٍ، ومستوياتٍ اجتماعيّةً، وأبطالا تاريخيين خالدين.

أفمن كان هَمُّه لنفسه وللمسلمين سعادَةَ الدارين كمن كان يسخَرُ بالإسلام، ويهدِم الإسلام، ويتفرعن استكبارا في الأرض!

بعض الـمُلاينين يَوَدّون أن لا نُثِيرَ الحساسيات باستعمالنا قاموس مؤمن/ كافر، أو إسلام/ نفاق، أو حلال/ حرام، أو حق/ باطل. الملايِنونَ يريدونها عقْلَنَةً حكيمة، ولعل نياتِهم ساذَجَةٌ، ولعل كلمة «إسلام» لا تتعارض في وعيهم وعقلهم وقلبهم تعارضَ النقيض للنقيض مع كلمة كفر. تنمحي الفوارقُ لطول ما نعاشر الغافلين عن الله، ويتلطّف إيماننا ويتخفّف ويشْحُب ويتلاشى في الظلالِ شبَحاً باهِتا بين أشباح، لا تَميزُ منها غازِيا من غازٍ، وبطلا من بَطل، ومَوارِدَ بشريَّةً من مواردَ بشَريَّةٍ.

المدرسة الرجل، والرجل المدرسة

كان ابن عبد الكريم رحمه الله في مرحلة جهاده العسكرية وفي جهاده السياسي بعد ذلك مدرسة متميزةً. كان مؤمنا قرآنيا على شخصيته بَصَماتُ تربيةِ القرويين التي درس فيها أربعَ سنواتٍ. لَمْ تَخْضُد شوكة غيرته على الإسلام رتابة القرويين، ونومةُ القرويين قبل أن يوقظها علال والفقيه غازي ومحمد المختار السوسي وعبد العزيز بن إدريس ومحمد إبراهيم الكتاني وسائر تلامذة الشيخين أبي شعيب الدكالي ومحمد بن العربي العلوي رحمهم الله أجمعين.

ولم تطمِس نورَ الإيمان في قلبه وفقه الشريعة في عقله السنواتُ الطويلةُ قبل الحرب التي عاشر فيها الإسبان مُوظفاً ساميا في إدارتهم، يتعلم لغتهم، ويُتقن مهاراتهم، ويستفيد من علومهم.

مدرسةً متميِّزَةً كان رحمه الله، واضحةً في ذهنه مُواصفات المجتمع الإسلاميّ الذي ينبغي أن يُعتمدَ على إخلاصه وقوة تماسُكِه وقت الأزمات.

قال الخطابي: «الشعب في رأيي هو الشعب المؤمن بعقيدته، لأنه يعرف نفسه وشخصيته وقيمته وحقوقه. ومن هنا فلا يستطيع عدو مهما كان أن يجد في تماسُكه ثغرة ينفُذ منها إلى هزيمته. أما الشعب غيرُ المؤمن فأفراده منحلون متفككون، ولا يمكن لهم أبدا أن يثبتوا أمام عدو ما مهما كان هذا العدو ضعيفا». [1]

كان واضحا في تصور القائد أن العقيدة تربط المتفكك، وتشُد المنحل، وتعرِّف الشعب من هو وما قيمته وما حقوقه. كان يَعرف أن شعبا لا عقيدة له لا يثبتُ أمام العدو.

وثبت هو وقومه رجالا ونساء بعقيدة الإسلام ثباتا يذكر بثبات المجاهدين الأولين من الصحابة والتابعين. أحيى فيهم الإيمان بالله ورسوله، وشوقهم إلى سعادة الآخرة، فكانت استجابتهم انبعاثا وتجديدا، لم يُقحم عليهم عقيدةً غريبة مثل القومية والثورية والبرلتارية.

تثبت الأقدام بعقيدة أصيلةٍ إن كان للأقدام أصل. لا يثبتُ بين الأصلاءِ فكر دخيل. لا يقاتل الأُصلاء بإديولوجية مستوردة.

فإذا كانت الأرضية خاليةً من عقيدة جامعةٍ معبِّئةٍ، أو إذا اشتغلت البيداغوجية الـمُأليكة شغلتها لتُفرغَ المكان من أصالته، وأهل المكان من عقيدتهم، ونجحت في الإفراغ كما يحلُم «المسلمون» الزئبقيون النخبة العائمة على سطح مجتمعنا، فحينئذٍ تنغرس العقيدة المستوردة، وتُعبئ، وتحمس، وتشجع، وتنفُخ روح البطولة في الشعوب المقهورة.

(1) محمد سلام أمزيان، «عبد الكريم الخطابي وحرب الريف»، ص: 309.

وهكذا صمدت الفتنام لغزو دولتين عظيمتين. فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية، وهزمَتهما شرّ هزيمة، وضربت الأمثال في الشجاعة والاستقتال، ووشَّحت صدر العدو بوِشاح العار أبدَ الدهر.

كان قائد الفتنام هوشي منه ممّن تعلموا من ابن عبد الكريم تكتيك حرب العصابات باعتراف الزعيم الفتنامي، بعد أن تعلّم الإديولوجية الماركسية اللينينية من أصحابها. وكان تلميذا ذكيا ألْـمَعيّاً.

تعلم ابن عبد الكريم من عقيدته الإسلامية واعتمد على الله عز وجل. فقاتل هو ورجالُه، لم يتلقّيا أيَّ دعْم بشري. وحارب الفتناميون بأسلحة لا ينضُب مَوْرِدُها من السوفيت والدولة السوفيتية العظمى. رجال جندتهم إديولوجيةٌ من غيرهم، وسلاحهم عتادٌ من صنع غيرهم.

تجسَّدَ الإيمان في رجال أشداءَ

قال ابن عبد الكريم: «الإيمان بالله وبالهدف كقاعدة الارتكاز الأولى».[2]

وتجسد الإيمان بالله في رِجالٍ أَشِدّاءَ كانوا قلّة قليلة لا يُحسَب لها حساب. ونقرأ التفاصيل قريبا إن شاء الله.

سأله أصحابه قالوا: «أبهذه الفئة القليلة تريد أن تقاتل الإسبان ولهم جيوش وسلاح وأموال، ووراءهم دوَل ستُمِدهم بالمساعدات. فلِم لا تطلب المساعدة من دول كبرى؟[3]

(2) محمد سلام أمزيان، «عبد الكريم الخطابي وحرب الريف»، ص: 307.
(3) نفس المصدر، ص: 102.

فقال: «لقد طلبت المساعدة، وستصل في الوقت المناسب. وأعدكم بأننا وإيّاها سننتصر على كل ما يأتي به الإسبان ومن وراء الإسبان».

وسكتوا، ظنّاً منهم أن مع الرجل قوةً أخرى يدخرها ساعدته بها دولة عظمى. فإذا هو يستطرد قائلا: «إنها قوة الله. يا قوم، قوة الحق. وكفى بالحق ناصرا ومعينا».

ما ألّفَ وكوَّن طلاب الشهادة؟

فقال جنود الحق لقائدهم: «آمنا بالله ناصراً، وبالحق معينا، وبك قائداً. وها نحن طُلاّب شهادة. فسر بنا على بركة الله. وعليه فليتوكل المؤمنون المدافعون عن الحق [...] وفجأة دمعت عيناه قائلا : سبحان الله!

كيف تكون طُلاّب الشهادة، بل من كَوّنهم وعلمهم، ومن أية فُرقة جمعهم؟

قال الراوي رحمه الله: «ماتت القوة المعنوية بموت الروابط الاجتماعية بين أبْناء هذا المجتمع. واقتصر كل منهم على التفكير في نفسه ولنفسه، غيرَ مُعْتد بما بينَه وبين مُساكنيه من تضامن يحفظُ كيان الجماعة. فكان الانحلال والتحلّل. وكان بعبارة أخرى نذير الانقراض. وما ربك بظلام للعبيد». [1]

كانت مثالية الشعب المنظم فكرة في رأس القائد المؤمن. أمّا الشعب الماثِل الريفي التقليدي فكان تنخَر فيه الأوبئةُ الوراثية. قال الراوي رحمه الله: «ونظرا لما يتطلبه الموقف، رأى (ابن عبد الكريم) أن الحكمة السياسية والاجتماعية والاقتصادية أن يبدأ بإنهاء التطاحن

(1) محمد سلام أمزيان، «عبد الكريم الخطابي وحرب الريف»، ص: 81.

الداخلي ليُصبحَ المواطن مطمَئنا على مصيره ومصير أهله، ويعرفَ واجباته وحقوقه وما له وما عليه.

قال: «فتصدى ليزيل من نفوسهم ما كان عالقاً بها من خُرافَة الثأر على أنه خراب وعار وكفر بالقيم، وفقر وتعاسة وجهل وغباء، ووسيلة للاحتلال، وفوضى، ومأساة اجتماعية لا يُقرّها الناس الطيبون. فوُفِّق في هذه الخطوة، وانتهت ظاهرة الثأر إلى الأبد». [2]

قلت: رأى ابن عبد الكريم أن إرشاد الناس إلى دينهم يتطابق مع إرشادهم إلى مصلحتهم السياسية والاجتماعية.

كان قضاتُه، بعد أن استوى له الأمر، يحكمون بشريعة الإسلام. فكان حكم القاضي أن من قتَل عَمدا يُقْتل. يَحسم القضاءُ أمر العدالة، ولا تترك الدولة الوليدةُ قضية الانتصاف من الظالمين لثارات تتسلسل.

وحسم القضاء الشرعي في الأوبئة الاجتماعية الأخرى المعروفة في حاضرة المجتمعات الغثائية وباديتها وجبالها وسهولها.

يحسم القضاء الشرعي إن كان الجُناة استثناءً، أما إن كان الناس قاطِبة أسرع إلى الجناية منهم للكفّ والاستقامة، فنقلُهم من سلوك جاهلي إلى سلوك إسلامي لا يفيد فيه القمع والقضاء، إنما تفيد التربية الإيمانية وإيقاظ الضمير الديني.

وهذا ما تجند له ابن عبد الكريم رحمه الله بنفسه.

«ربْطهم بالخالق جلّ وعلا»

قال الراوي رحمه الله: «ثم جاء دوْر ربطِهم بخالق هذا الكون ومدبِّره، فأخذ يعلمهم الدين، ويلقنهم العقيدة. فيجلس في وسَط

(2) محمد سلام أمزيان، «عبد الكريم الخطابي وحرب الريف»، ص: 90.

الحَلقة وفي أي مكان ليشرح لهم، وبأسلوب مُبَسط، أصول الدين والشريعة بأنها معاملة وأمانة ونظافة ونظام وسلوك وأخلاق ومبادئ وشجاعة وكرم وعلم وبناء وعمران ورسالة في الحياة ووحدة وإخاء وتسامح ومحبة ورحمة ووطنية. ويَأتي لهم بالأمثلة كالمعلم أمام تلامذته.

قال: «فتارة يبين لهم نتائج الخمول والتواكل بأنها اغتيال للحياة والوطنية والرجولة والدين. أو أنها بعد من الله والناس الطيبين الذين سجّلوا الأمجاد في التاريخ بمواجهتهم للحقائق بعزم وعمل متواصل. وتارة أخرى يكشف لهم حقيقة الموقف في البلاد نتيجة للفوضى وعدم تقدير المسؤولية والطيش في تصرفات الفرد والجماعة. ونتيجة أيضا للكذب والغش في كل شيء.

قال: «فكانت كلماته بمثابة غسْل ينظفون به نفوسهم من أخطاء الماضي. وفي كل مناسبة أو فرصة يشرح لهم أساليب الحرب الحديثة وكيفية المقاومة بصورة فردية أو جماعية، هجومية أو دفاعية». [1]

مسيرة تربوية متكاملة

قال رحمه الله: «وبعد سبعة شهور من الجُهد المتَواصل ليلَ نهارَ سألهم : أتدرون ما كنتم تتعلمون؟ قالوا : الدين والإيمان والأخلاق والصدق والعزيمة والصبر والمحبة و... و...

«فقاطعهم متسائلا : ولكن لا تعلمون أن هذه كلَّها ستبقى ناقصة إذا انعدمت الحرية؟ وحريتنا كما ترون يهددها الغزو الأجْنبي.

(1) محمد سلام أمزيان، «عبد الكريم الخطابي وحرب الريف»، ص: 90.

قال: «فتململوا في أماكنهم، وتحسسوا على بنادقهم، وقالوا له : «إننا محاربون، وسنقاتل أعداء حريتنا، وسنواجه الغزاة... ومن الآن !»، [2].

قلت: حريةٌ هي شرط لإقامة الدين والأخلاق والإيمان.

وهكذا تدرّج المعلم بالتلامذة من بناء أساس العقيدة، إلى بثِّ رُوحِ الجهاد، وفي المسيرة التربوية تدعمت الأخلاق الإسلامية والصِدق والعزيمة.

مربوطةٌ رباطا مُحكما العقيدة بالجهاد. لم يكن ابن عبد الكريم لقيطا من لُقطاء الثقافة المطحونين في طاحون الاستعمار الاستحمار ليلتمس نقطة ارتكاز إديولوجية أجنبية عن دينه ودين شعبه. لئن كان في رواسب الغثائية انفصام بين العقيدة والجهاد، فقد كَفى التذكير المثابر، والتعليم الصابر، في إيقاظ إيمان نام على وِسادة العادات.

مسيرة تربوية وتهييءٌ نفسي عقلي عسكري. والمعلم المدرب فقيه من القرويين، رجلٌ منهم محبوب مطاع. رجل وسط الحلقة في المسجد وفي أي مكان. رجل ملتحم بالشعب، لا نخبة فوقية تطبقُ بيداغوجيتها لتنشئ جيلا نخبةً يتولى زمام القيادة بعد أن يفرغَ الشعب من عقيدته.

ونشأ مجتمع جديد يقول عنه الراوي رحمه الله: «هكذا تغيرت معالم الحياة من أساسها بصورة تدعو إلى الإكبار لهذا الرجل المصلح. فلقد استجاب الناس للدعوة إلى دروس وعظه وإرشاده وتربيته وتثقيفه وتعليمه. سَرعان ما بدَت لهم ظواهر المحبة والفضيلة والسلام. وأخذوا يتباذلون الثقة والحديث في مختَلِفِ الشؤون، وكأنهم أفْراد أسرة مترابطة.

(2) محمد سلام أمزيان، «عبد الكريم الخطابي وحرب الريف»، ص: 90.

«ويسيرون في مواكبَ تجْمَعُ العدوّ بعدوِّه والغريم بغريمه، وكأن شيئا لم يكن بينهم أبدا. ويَروحونَ ويغدون بسلاحهم على أكتافهم، وليس بأيديهم لاقتناص الفريسة. وإذا اجتمعوا في مكان واحد يضعون سلاحهم في ناحية مجتَمِعا دون خوف، لأن الأيديَ التي كانت دائما تحمل البندقية لتصويبها إلى الهدف أصبحتْ تتصافح باحترام متبادل، وفي ثقة بالأخوة الاجتماعية»[1].

مجتمع جديد قَضّ مضاجع الاستعمار

قال رحمه الله: «إنه مجتمع جديد حقا في كل مظاهر حياته السياسية والاقتصادية. فلا لصوصيةَ ولا نهبَ ولا سلبَ. سلام دائم، وأمن شامل، وحب كامل. ولا أنانية ولا عنصرية ولا فوضى. إنه مجتمع سليم من عوامل التحلل والانحلال والضّعف والاستسلام. مجتمع يؤمن بالتعاون للصالح العام. وفيه إحساس بضخامة المسؤولية».

هكذا يصف المؤرخُ من أبناء البلد، المطَّلعُ من قريب، الخبير من قريب، على ما تنطوي عليه المجتمعات القبلية المنحلة من حزازات وانتقامات ودسائس. ما هو إنْشاء متحمس. لكن ملاحظة متعجِّبَة لما تفعله «دروس وعظه وإرشاده وتربيته وتثقيفه وتعليمه». [2]

تربية أدمجت، ووعظ لامس القلوب، وإرشاد غيَّرَ، وعقيدة قلبت المعايير وصنعت مجتمعا جديدا.

لاَ غَرْوَ، فقد كان القائد الفذّ معلما واعظا متواضعا يجالس المسلمين في حلقة تذكير مسجدية.

(1) محمد سلام أمزيان، «عبد الكريم الخطابي وحرب الريف»، ص: 92.
(2) محمد سلام أمزيان، «عبد الكريم الخطابي وحرب الريف»، ص: 92.

وكان العدوّ شاعرا بأنها حركة إسلامية عميقةٌ واسعةُ الدّلالَةِ، لا تمرُّدٌ قبلي محلي من التمردات المعهودة. قاومت الشهامة المغربية الاحتلال الفرنسي مدةَ خمسٍ وعشرين سنةً أبدت فيها القبائل الأمازيغية خاصة بطولاتٍ شامخةً. كانت فُروسياتٍ شجاعةً واجهتها مدافع الاحتلال.

ولم تَقُضّ مضاجعَ الاستعمارِ تعبئةُ مُوحَا أحمّو الزياني ونظراؤُه الأبطالُ، وإن كانت أزعجتْهم إزعاجا غير قليل. رحمهم الله.

«أما حركة ابن عبد الكريم فقد أحس المحتلون أنها طرازٌ آخر من الجهاد، متميزٌ بقيادته العالِمَة، متميزٌ بذكائه الحربي، متميزٌ بتقنياته الحديثة [فقد كان البطل محْمد أخو الأمير ووزيره مهندسا في التعدين ممتازا تخرّج من مدارس إسبانيا]، متميّزٌ بمشروعه الواسع الذي خطط لتحرير المغرب العربي كله، واستجاب لندائه المشرق المسلم كله.

شَعُر المحتلون بخطر داهم أرَّقَهُم. وكان الفرنسيون الحريصون على مستعمرتهم الجزائر أخذوا يهيئون رحيلهم من المحمية المغربية أيامَ بلغت الحركة الريفية أوْجَ عُنفُوانها. كانوا مستعدين سنة 1924 أن يُعيدوا انتشار جيوشهم (كما يعبر العسكريون اليومَ) ليحصنوا الحدود الجزائرية.

قال المارشان ليوطي: «إن سماحنا لعبد الكريم بتحقيق أي انتصار علينا إنما يعني قيام إمبراطورية عربية إسلامية على شاطئ البحر المتوسط. وهذا يعني فتحا إسلاميا لأوربا من جديد. وهو أمر لا يمكن التسليم به». وقال: «ها هي دولة إسلامية قِوامها قوميّةُ شمال إفريقيا تنشئ نفسها في المغرب». (3)

(3) محمد سلام أمزيان، «عبد الكريم الخطابي وحرب الريف»، ص: 203.

كانت أطماع فرنسا مهددة تهديدا عمليا برهنت عليه انتصارات المجاهدين المغاوِيرِ. وتركّز الرعْبُ من ابن عبد الكريم، حتى من اسمه، فقد منعت فرنسا الناس أن يُسموا أبناءَهم «عبد الكريم». واستخرجت إسبانيا عِداءها الدفينَ الصليبيَّ، أذهلتها انتصاراتُ المجاهدين وهي كانت تريد القضاء بكل بساطة على سكان الريف، قصداً مُبَيّتاً من قرون لتستكمل طرد المسلمين من الأندلس ومن الوجود.

كتب مورَا عضوُ الكرتيس (البرلمان الإسباني) كتابا قال فيه: «إذا ما دخل الساحل البربري الريفيّ تحت يدنا يوماً ما فيجب علينا أن نخرج منه سكانه الحاليين».

عُنْجُهيّةٌ بدائيةٌ أينَ قسوةُ نياتِها من قدرتها على الإنجاز. فقد كانت هزائم الإسبان في الريف سببا مباشرا في سقوطِ حكومة بريمو دي رِبيرا، ثم سقوطِ العرش الإسباني، ثم الحربِ الأهلية التي عصفَت بالجمهورية على يد فرانكو.

عنجُهيةٌ، أين صَلَفُها الفظُّ العاجزُ من مَكْر المحتل الفرنسي وسياسة عميدِه المارشال ليوطي الذي خططها ونفّذَها وأورثها الأقوام من بعده، سياسةً تحتفظ بالهياكل المخزنية لتُحكِم قبضتها على مراكز قوة الحاضر: الاقتصاد، وعلى مراكز صنع المستقبل: «التأثير الخُلقِيّ» كما كان يُعبر ليوطي. أي صبغُ العقولِ بصِبْغة فرنسية، وتثقيفها بثقافةٍ فرنسية، واحتلالها بلغة فرنسية! يستعمل ليوطي عبارة «التأثير الخلقي» لا يقول: «الثقافي». والفرق شاسع. الفرق برنامج، وحكم، وسياسة، واحتقار قوم متحضرين لقوم همج. لا خلاق لهم. اختيار كلمة يتضمن عالما من المغزى.

وزار ملك إسبانيا ألفونسو السادس بابا روما يستنجده على السكان الريفيين المسلمين. وخطب بين يديه، قال: «وإن إسبانيا أيضا قد تجندت لحرب المسلمين في أفريقيا الشمالية حربا لا تنفك عنها حتى تفوزَ بغرس الصليب في ديار المسلمين، وتجعل من فيها من أتباع محمد (أقول: صلى الله عليه وسلم) يخنعون لها قَهرا». (1)

كم من فئة قليلة... في «أنوال»

هيهات. هيهات. فنصر الله عز وجل حليف من نصره ونصر دينه. في غزوة مُؤتَة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان أولُ صِدامٍ بين المسلمين والصليبيين رومِ بيزنطة. كان المسلمون ثلاثة آلاف، وكان الروم مائة ألف يؤازرهم مائة ألفٍ مِن حلفائهم العرب.

استُشْهِد في المعركة ثلاثة من قواد المسلمين تعاقبوا على حمل الراية :زَيدٌ بن حارثةَ، وجعفر بنُ أبي طالب، وعبدُ الله بن رَواحَة رضي الله عنهم. وانسحب بالمسلمين خالد بن الوليد لأن ميزان القُوى كان مجحفا جدا. كانت الحصيلة: 7 شهداء ومن النصارى 500 قتيل.

ويتكرر نصرُ الله عبادَه في موقِعاتِ الريف ومعاركه تصديقا لقوله تعالى: ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾(2).

أشهرُ الموقعات موقعة أنوال سنة 1925. أربعمائة مجاهد معهم أربعمائة بندقية وثمانية عشر ألف طلقةِ ذخيرةٍ. الحصيلة ثمانية عشر ألْفَ قتيل إسباني. كل طلقة بعدو.

(1) محمد سلام أمزيان، «عبد الكريم الخطابي وحرب الريف»، ص: 209.
(2) سورة البقرة، الآية: 249.

أكان الرُّماة المجاهدون ماهرين مهارة استثنائية؟ نعم.

هل كان للسلاح الأبيض نصيبٌ في النصر؟ نعم.

لكن كانت هنالك فاعلية أخرى. قال ابن عبد الكريم بعد الموقعة: «إن عناية الله قبلَ كل شيء وبعد كل شيء كانت معنا».

حصيلةُ المعركة بعد الهزيمة وهجومُ عامة الشعب بعد اختلال نظام الجيش الإسباني: خمس وعشرون ألفَ قتيل، وألفا مفقود، وتسعمائة أسير.

غنم المجاهدون في موقع أنوال مائتا مدفع، وعشرين ألف بندقية، وطلقَات مدفعية لا تُعد ولا تُحصى، وملايين الطلقات العادية، وسيارات، وشاحنات، ومواد تموينية غِذائية ما وجدوا لها مخازِنَ كافية، وأدوية، وخياماً عسكرية. زودتهم إسبانيا في هذه الموقعة وفي موقِعتي جبل عَرْوِي وشَفْشاوَن بكل ما يحتاجون إليه. زودهم الله تعالى ونصرهم. والحمد لله.

أربعمائة مجاهد بأربعمائة بندقية وثمانية عشر ألف طلقة. والله يؤيد بنصره من يشاء. عالم من علماء القروِيِّين جلَس على حصير المسجد طالبا ثم معلما. قبائلُ كانت تتناحر وتتنافر ألف الله بين قلوبها بتأليف من عنده. ريفيٌّ بربريٌّ يحفظ ستة عشر ألفَ بيتِ شعرٍ عَرَبِيٍّ ينقلب وقومَهُ أسْداً يُدخِلون الرعب في قلب أوربا.

سلاح الدبلوماسية السريّة

نقل محمد سلام رحمه الله عن جريدة التايمز الصادرة يومَ 25/ 7/ 1925 خطبة رئيس الوزراء البريطاني لُويْد جورج، قال:

«في أنوال سقط الاستعمار الأوربِّيُّ بإصابة قاتلة. لقد تحطمت أحلام الاستعمار الأوربي على قُرون وُعُولِ الريف. إن كارثة الجيْش الإسباني في الريف كارثة لجميع جيوش الاستعمار في كل مكان. ماذا حدث في الريف؟ إنه شيء غيْر طبيعي! ثقوا أنّ الاستعمار قد انتهى. وستَرَوْن كيف يكون رد الفعل في إفريقيا وآسيا».

تضامن استعماري بين الثُّعْلُبان الإنجليزيِّ والديكِ الفرنسيِّ. على الأقلّ في الخُطب الرسمية في البرلمانات. أما على الأرض فكان جبلُ طارق المستعمرةُ الإنجليزية القريبة من الساحل الريفي قاعدةً لدبلوماسية نَشِطَةٍ تتردّدُ على الأسَد الهَصورِ في الريف بالإيعازات المغريَة ليُوَجِّه بأسَه إلى الغريمةِ فرنسا المضايِقَةِ آمالَ الإنجليز في الاستيلاء على الساحل الجنوبي للبحر المتوسط.

وكذلك كانت العروض الـمُغْرِيَةُ الألمانية الحاقدةُ على فرنسا بعد هزيمة الحرب العالمية الأولى. وكذلك كانت دبلوماسيّةُ الطلياني موسليني الحاقد على الإسبان، الطامع في تأسيس إمبراطورية طليانية على الساحل الجنوبي للمتوسط. الحلفاءُ الاستعماريون متضامنون في الخطب الرسمية، متنافسون أشدَّ التنافسِ بواسطة الدبلوماسية السرية.

كلٌّ يَرُومُ استخدامَ المسلمين ليقتُلوا عنهم المسلمين في الجانب الآخر. فليست المحاربةُ بالوسائط اختراعا حديثا. كانت «المحلات» الشعبية القبلية التي تجندها فرنسا وإسبانيا، وكان الجنود المغاربة النظاميون المؤَطّرون بضبَّاط فرنْسيين وإسبانيين يمثلون الكتلة العظمى من القتلى في هذه الحرب البطولية التي كان من نَكبات الزمَان أن يقْتُلَ فيها مسلمون أحرارٌ مسلمين عبيداً أذلَّهم الاستعمار وساقهم قطيعاً «لحمَ مدافِع» كما يعبر العسكريون.

وشَمَّ الذئابُ والثعالبُ رائحةَ الدّمِ العَبيطِ فراحُوا يساومون ابن عبد الكريم ليأكلوا من المائدة الاستعمارِيّة أكبر قطعة.

حصيلة وأرقام

عرفوا قدر البطولة، وأحصَتْ لهم أجهِزتُهم بالأرقام ما يفعله أحرار لا ينامون على ضَيْم بالعساكر المرتزِقة والمحشورةِ المدججةِ بالسلاح، الحائمة في الطائرات، القاذفة بالقنابل المحرقة والخانقة.

نقل مؤرخُنا رحمه الله عن الجريدة الرسمية الفرنسيَةِ المؤرخة بـ: 02/ 6/ 1956 -أي بعد ثلاثين سنةً من نهاية حرب الريف- ما يلي: «وقد احتج وزيرُ الخارجية الفرنسيُّ بِينُو على البرلمان الفرنسي الذي شَحَّ عليه بالاعتمادات المطلوبةِ لتمويل حرب الجزائر التحريرية -وهي حرب يُسجَّلُ لَها بمداد الفخْر جهادُ المسلمين الظافر المنصور- احتجَّ لشُح فرنْسا في تمويل حرب الجزائر وإغداقها الأموال في حرب الريف.

أجابَ وزيرَ الخارجية نائبٌ برلماني اسمه كْلُوسْتِرمان قال: «سيدي الوزير! أريد أن أكشِفَ الستارَ عن بعض الحقائق فيما يتعلق بالحرب الريفية.

قال كلوسترمان: «لم يكن عبد الكريم يتوفّر على حدٍّ تقريبيٍّ إلا على عشرين ألفَ مُسلَّح. أما نحن فكنا نتوفّر على اثنين وثلاثين فَيْلَقاً في جبهة القتال، وأربَعٍ وأربعينَ سِرْباً من الطائرات، وثلاثين جنرالاً يقودون هذه القوات، وعلى رأسهم المارشال بِتان [...].

«كما كان من جانب إسبانيا مائتان وخمسون ألفَ مقاتِلٍ، وأربعون سِرْباً من الطائرات، وخمسة وعشرون جنرالا يقودون هذه القوات، وعلى رأسهم المارشال بْرِيمودي رِبِيرَا».

انتهى تقرير النائب البرلماني الفرنسي الذي لم يذكر الآلآف المؤلفة من الضباط الأسبان والفرنسيين. ولم يذكُر «المحلات» القبلية التي كان يقودها لقتال المسلمين الأحرار خَوَنةٌ متعاونون مع الاستعمار. في معارك الريف ساهَم الباشا الجلاوي بأربعمائة ألف مقاتِلٍ.

أخبار لا تصَدّق لولا الوثائق التاريخية. موازين قُوىً خيالية ونتائج في الميدان أكثر غرابة لولا الوثائق التاريخية. لولا الإيمان، والإيمان وحده. لولا الله ذو الجلال والإكرام.

احتشدَ في جبهةِ الاستعمارِ في السنة الأخيرة من الحرب مليون ورُبْع مليون مقاتل، ومعهم من العَتاد والآليات ما عبّرَ عن بعضه النائب البرلماني الفرنسي. ولم يتجاوَز الحشدُ الريفي عشرين ألفا من المجاهدين، كما عبر المذكور.

وأكَّد ابن عبد الكريم لصاحبه المؤرخ محمد سلام رحمهما الله أن حِصار عاصِمة المجاهدين أجْدِير شاركت فيه مِائتان وخمسون سفينة حربية وتجارية، منها ثلاث حاملات للطائرات.

كانت نِسبةُ المسلمين المحشورين في جيوش الحليفين الأوربيين العدوّيْن ثمانين في المائة. أعداداً ضخْمَةً وقطيعا مُعَسْكراً.

في جانب المجاهدين كانت الهِمَّةُ والشجاعة والذكاء والمهارة. كان الإيمان، والإيمان وحده الباعث. وكان العقل المدبِّرُ أيضا، والمهارة المكتسبة. تفوقت الهمة والذكاء على الأنظمة العسكرية المأجورة. تفوق حبُّ الله وحب الشهادة في سبيل الله على حب المال والرُّتَب العسكرية. فكانت النتيجة ما شهد به السياسيون المعارضون في البرلمانات، وما يشهد به التاريخ. أستغفر الله العظيم. النتيجة نرجوها للشهداء حياة كريمة عند الله الحليم الكريم.

نستطيع أن نتصوَّر بقليل من التخيُّل، ولو كنا غير عسكريين، ما يصحب المليون وربع المليون مقاتل، وما يصحب عشراتِ الأسراب الطائرة، وما يصحب المدفعية، من آليات وترتيبات. وما يستلزِمُ النظام العسكري والترتيب اللوجستيكي، كما يُعبرون، من أركان حربٍ إزاء المارشالين، وأركان حَربٍ إزاء عشرات الجنرالات، ومن هواتف ميدانية، ومتخصصين ميكانيكيين، ومدَرِّبين وأطباءَ، وإدارةِ تموين إلخ.

القائد المؤمن العبقري

كان قائد الجهاد رجلا واحدا. أركان حربه حفنة من الرجال: أخوهُ المهندس محْمد بن عبد الكريم، وعمه عبد السلام، وأَزَرْقان، وحَدّو. والسلام. وكانت الحكومة الريفية مشتغلة بإدارة الشؤون المدنية، وكان القضاة يقضون بالشريعة. وكانت البساطةُ في الشؤون المدنية ومعها الغَناءُ، والاستقامة والوفاء. كما كانت البساطة في تسيير الحرب ومعها العبقرية.

سأل الصحفي الفرنسي رُوجي ماثيو القائدَ العظيم بعد نهاية الحرب كيف قاد الحرب وحده، وأين تعلّم التكتيك العسكري وكيف. فأجابه ابن عبد الكريم أن قيادة المجاهدين من أبسط الأمور. شجاعة، وحضور بديهة، وتجاوب ذكي سريع مع الأحداث.

وأخرى يذكرها مؤرخنا للقائد: هي أن بندقيتَه وساعِده كانا دائما في الصف مع السواعد المجاهدة والبنادق الـمُصَوَّبة.

كانت بعض قنابل الطائرات تحصد العشرات من المسلمين في أسواقهم الأسبوعية ومداشرهم. وكان بعضها لا ينفجر. فيجْمع

القائد من الريفيين من كان تدَرّبَ في الجندية الإسبانية والفرنسية، ومن كان ذا خِبرةٍ ميكانيكية، فيصنعون من القنابل الـمُعَطَّلة قنابلَ يدَوِيّةً لا تقِلّ فتْكا من التي تُصنع في مدريد وبرشلونة.

كانت طائرات كولياط تقذف بقنابلَ وزنها مائتا كيلو. يصنع من كل قنبلة منها الحِرفيُّون في الصناعات العسكرية 470 رُمّانةً مُفَرْقعة يدوية.

قِرَانٌ وقِرانٌ

في شهر ماي من سنة 1926 بتأريخ النصارى تفاوض ابن عبد الكريم مع فرنسا، واستسلم بشرف، وحُمِل إلى منفاه في جزيرة لاَرِيُنْيون المستعمرةِ الفرنسية في البحر الهندي. ومكَث في المنفَى اثنتي وعشرين سنة انقلبت أثناءَها موازينَ القُوى في العالم، وتغَيّر فيها القِرانُ السياسيُّ الاستراتيجيُّ الذي عرفه ابن عبد الكريم إبّانَ جهاده.

كان مطلَعُ العشرينات من القرن العشرين بتأريخ النصارى يَعُجُّ بحركات تشنّجِيّةٍ ثورية عسكرية سياسية. انتصرت الثورة البلشفية السوفييتية فهي تمهِّد سلطانَها في الداخل وتُوَطِّد أركان دولتها الاشتراكية بإفناء الطبقة البرجوازية الأرستقراطية.

ومصطفى كمال يُنْشِب استحكاماتِه الدكتاتورية في أحشاء «الخلافة» العثمانية ليصرَعها ويُوديَ بها.

وأوربا تلعَقُ جراح الحرب العالمية الأولى، وتعيد بناء دُولها. تعيد البناء بفكر جديد، وإديولوجية جديدة، وتعْبِئَةٍ شَعْبَوِيَّة فاشستية. أستعمل الألفاظ كما استعملها أصحابها والمراقبون السياسيون.

كان المعلِّم موسوليني في إيطاليا قد جنّد الرَّعَاعَ بفكرة قومية مثلما كان قد جند لينين صعاليك بلاده بفلسفة أممية. ولم يلبث التلميذ هتلر أن أتقن أساليبَ الدعاية المهَرِّجةِ العنيفةَ يستعد للوثوب على السلطة.

كانت أوربا -والعالَمُ العربي الإسلامي- تـمُـرُّ بمرحلة فوْرةٍ وتَجَدُّدٍ. بيد أن فورةَ العالم العربي والإسلامي كانت مأساوِيَّةً لأن رمز الوجود الإسلامي -«الخلافة» العثمانية- كان على وشْك السقوط، ثم سَقط، ثم تألَّمَ المسلمون، ثم خَمَدُوا بعد هزّاتٍ شعبية هنا وهناك، كانت كأنها مَأْتَمُ وَداع لعهْدٍ.

وسَط تلك الفورة وهذا الخمود برزتْ حركة ابن عبد الكريم -أو «بارودُه» حسب تعبيره المتواضع- دقَّاتِ طبْل يوقظ النائمين.

كان القمع الفرنسي الإسباني الذي قرأنا عن حشوده البشرية ومدافعه وأسراب طائراته وأركان حربه وجنرالاته ومارشاليه هبَّة استعمارية منزعجة أشدَّ ما يكون الانزعاج. فما ينبغي للشرف الأوربي بعد أن خضدتْ شوكته بسالة الترك بقيادة الغازي التركي أن تنفلت من قبضته أفريقيا الشمالية بقيادةٍ بدويّةٍ يُسمع لإنجازاتها دَوِيٌّ عالمي.

كانت هذه ملامحَ القِران الذي وقَعت فيه أحداث الريف. قِرانٌ في فَلَك الأفكار والإديولوجيات والدبلوماسية، وقِران على أرض الاستراتيجية العسكرية الاستعمارية.

وتمضي ثِنتان وعشرون سنة ليرجع ابن عبد الكريم إلى الميدان السياسي في القاهرة سنة 1947. وليجد قِراناً آخر، وعالما آخر. عالما عرف أقسى حرب شهدتها الإنسانية.

تمخض القرن التاسع عشَر بتأريخ النصارى عن معاهداتٍ اقتسمت بمقتضاها أوربا الـمُصنعة أطرافاً شاسعةً من المعمور. وتمخض عن

منافَسات قومية ولدَتْ الحرب العالمية الأولى التي خرجت منها ألمانيا مهزومة مُذَلّةً بشروط معاهدة فِرسَايْ.

وقال هتلر :يا لَثاراتِ الشعبِ الجرماني سيدِ الشعوب! وتسلحت ألمانيا، وحاربَ الحلفاءُ جيوشَ الرايْخ المعبَّئين بفكرة التفوق العرقي، المنتَشِينَ بانتصارات ساحقةٍ على مَدَى ثلاث سنوات داسوا خلالها جبال أوربا الغربية وسهول أوربا الشرقية، حتى أوقفهم الجنِرال «الثلج» الروسي.

وضرب الأمريكيون هروشيما وناكازاكي بقنبلتين ذرّيَّتَين كان سقوطهما فَاجِعَةً إنسانية، وكان استعمالهما حدّا فاصلا بين مرحلتين من مراحل التاريخ البشري.

أحداث جسام لم يشهدها ابن عبد الكريم في جزيرته النائية إلا سماعا من بعيد. أحداثٌ صاغت العالم صياغة جديدة، وأنضجت الظروف الموضوعية لمطالبة الشعوب باستقلالها بوسائِل الضغط السياسي، والمرافعة أمام الأمم المتحدة الحديثَةِ العهد، ومناشدة الضمير العالمي.

كانت الشعوب المستعمرةُ تقدمتْ خطواتٍ في الوعي بحقوقها. خطواتٍ أمامَ الغَضْبةِ الريفية التي كان لَها العُمْقُ والقوة، ولَم يكن معها مُساعَفَةُ القِران الدُّوَلِيّ.

أستغفر الله العظيم من النطق بلغة الغافلين عن الله. في الحديث النّبوي أن الكافر يقول: مُطِرنا بنوءِ كذا، ويقول المؤمن: مُطِرْنا بفضل الله. إنْ سِحْنَا في الآفاق نتأمَّلُ في أنواع السياسة وقِرانات الاستراتيجية وأفلاك الأفكار السائدة في العالم، فما ينبغي أن ننسَى الله، فَيُنسيَنا أنفسنا. فما يساعِف غيره، ولا ينصر غيره، سبحانه لا إله إلا هو.

النواة الصّلبةُ

المسلمون المؤمنون بالقَدَر خيرِه وشرِّهِ عليهم تكليفُ الجهادِ ليُغالبوا القِراناتِ الواقِعةَ، ويوجهوها وِجهةَ المطالب الشرعية. وإلا كانَ سعْيُهم في الأرض حَبْواً ذليلا. لا يتنافَى الإيمان بالقدرِ عند المؤمنين والمؤمنات مع وَاجِبِ الاستقامةِ على ما فرضه الشرع. الإيمانُ في القلوب، والواجب الشرعيّ يخدمه العقل والجوارح.

من عمق إيمان صاحبنا أمير الريف أنه -حياتَه قبْلَ المنفى- كان المجاهدَ الذي لا تلين له قناةٌ. فلما انتهت المعارك كان كلامُهُ حكمة الوقت: بقي ساكنا تحت مقارِعِ القَدَرِ يقول: هذه مشيئة الله. وهكذا كان مؤمنا مكتملَ الإيمان والبندقية في يده، كما كان مكتملَ الإيمانِ والسفينة غاديةٌ به رائحة في رحلة طويلة إلى المنفى.

أثناءَ جهاده عانى من صِنفٍ من الناس كان زعمُهم أن عقيدتهم سليمةٌ. تلك الجبْريّةُ والاستسلام للواقِع كانا رائدي حركتهم. من الطُّرُقيين من مدّوا أيديَهم بالإساءة للحركة الريفية التحررية، ومنهم من خدم الاستعماريين الفرنسي والإسبانيَّ بإخلاص مستعملين نفس الكلمة: هذه مشيئة الله!

كلمة تكون حكمة على لسان من بذل الجُهد كلّ الجهد في إبطال الباطل وإحقاق الحق حتى النهاية. وتكون تعويذةً مشعوذة على لسان من استقال من كل واجب شرعي وتشبث بأذيال التواكل والخنوعِ يحسبها توكلا.

عانى ابن عبد الكريم من العقلية المتخلفة أيامَ جهاده. وعاد إلى القاهرة ليُعانيَ معاناةً أخرى، مع عقلية أخرى.

عاد ليجدَ قِراناً غيرَ ما عهِدهُ، ولِيَلْقَى عقلية غيرَ التي أملَت عليه في زمانه الأوَّلِ مواقفَه الرافِضة للمساومات، وعسكريتَه المقتحمةَ للعقباتِ، وطموحَه العابِر للقطريات.

وجد عقلية فعلت فيها فِعلَها ثنتان وعشرون سنة من القلاقل العالمية، والنضالات السياسية، والمسيرات الفردية، والتربية والسجون والمنافي والمناورات والتحالُفات والتأثرات بالمقروءِ والمعيش والمحيط.

وجد جيلا من الناس تفتَّتَتْ فيهم النواة الصّلْبة التي تجمع المسلمين وتُدْمجهم وتوحدهم وتقَربُ المتنافر من شخصياتهم.

كانت النواة الصّلبة التي جمعت حوله قبائل الريف هي الإيمان، والإيمان وحده. فلما عاد إلى الساحة بعد غياب لقِيَ أنواعا من المناضلين نواتُهم الإيمانية على دركات التبَعثُر والتلاشي.

وجد وطنيّين تجمعهم رابطة الوطنية. لا غير. والوطنية كفاح سياسي لا تذكر معه صلاة ولا زكاة ولا طاعاتٌ معروفة ومعاصٍ منكرة.

وجد قِراناً في الأفق الدولي، ووجد تركيباً غريبا عنه في النفسيات والعقليات وأساليب التفكير والعمل.

عتَبَةٌ ومدخل

كانت مقاومة الريفيين للاستعمارين الإسباني والفرنسي عتَبَةَ مرور، ومدخلا من عهد إلى عهد. لم يخضع المغاربة للاحتلال «الرومي»، بل قاومته القبائل الجبليّةُ البربرية والعربية أكثر من عشرين عاما، قبل حرب الريف وبعدها. لكن حرب الريف كانت نقطة تحوُّلٍ من مقاومة عفوية غاضِبة إلى مقاومة مُنظمَة، من مواجهة فرسان قبيلةٍ

أبِيَّة لعدوِّها في الدين إلى مواجهة قُوَّةٍ منظَّمَةٍ لغازٍ انتهك حُرْمَةَ الوطن وحُرمة الدين.

عتبة مرور ونقطة تحول من وعي مشتَّتٍ عاطفي غَضَبي، إلى وعي لَه قيادة تُفكر على مستوى العصر، معتزّةً بدينها، قائمةً بهذا الدين لدفع عدوٍّ في الدين هو أيضا عدوٌّ للحريَّةِ. بدأت تدخُل مع الاعتباراتِ الفطريَّةِ الدينيةِ التي تبعث المسلمين الأحرارَ على الدفاع عن الديار وعن الدين، لا تفْصِل حرية الدين عن حرية الحوزة الجغرافية التي نبتَ فيها الدين، اعتباراتٌ أخْرى مُفَكَّرٌ فيها مثل: استقلال الريف، وحرية قبائل الريف، وحق القبائل الريفية في أن يكون لها كيان مُوَحد مُنظّم، ودولة جُمهورية.

تحررَّتْ طاقات اجتماعية بهذا الوعي الجديد، وانطلقت بزَخْم وقوّة. وكان «الباروْدُ» هو الوسيلةَ لتحرير الوطن. وكان الهدفُ التحررَ من رِبقة المخزن الذي لا شرعيةَ له، ومن الغازي الأجنبي الذي لا مكان له.

دخلت إذاً مع ابن عبد الكريم على الساحة المغربيّةِ أفكار جديدة، وهو كان المثقف المطّلع على أحداث العالَم، يَقرأ اللغة الإسبانية، ويكتبُ في إحدى الصحف بمدينة مليلَيَةَ المستعمرةِ الإسبانية، ويقرأ، كما يقرأ غيره من المغاربة، الصحف المصرية وما تزخرُ به من أخبار وأفكار عن ثورة 1919 وبطولة سعد زغلول، وعن الغازي التركي الذي يُثوِّرُ تُرْكيا بعد أن صمَد في وجه الحلفاء الأوربيين، وعن بطولات السنوسيين في ليبيا، وما حقّقَه عمر المختار رحمه الله.

كان المغاربةُ تصِلُهم بواسطة البريد الإنجليزي، الذي كان لا يخضع لتفتيش إدارة الحماية الفرنسية، مجلاتٌ عربية وصُحف وأخبَار.

الذي فعله ابن عبد الكريم أنه جسَّد تلك الأفكار، وحاكى تلك الأخبار بفِعْلٍ لامِعٍ، فكان بذلك رائداً، فاتِحاً أبواباً، عتبةً ومدخلاً.

وترك تاريخاً أسطوريا، إن نسيته الأجيال الحاضرة، فإن التاريخ لا ينساه. والعِبرة من فعله اللاَّمع، مما أخطأ فيه وأصاب، مما أَتَمَّهُ وأنْجزهُ أو اغتالته دون تحقيقه عواصف القدَر، غنيمتنا ومطلبنا.

نقف لحظةً لنرْقُب الـمُدْخلَ، من ماذا كان إلى ماذا؟ في كل نقطة تحوُّلٍ ومرحلة تاريخية ومُنعطَفٍ تتغَير الأحوالُ، وتحصُل قطيعةٌ كليةٌ ثورية أو جزئيةٌ إصلاحية بين ماض وحاضر. قطيعةٌ ترسم سلبا وإيجاباً معالِمَ المستقبل.

أيةُ قطيعة حصلت على عتبة الحرب الريفية؟ وأي انتقال؟

أسئلة إن طُرِحَتْ في الـمُطلق الفكري والتأويل التاريخي احتملت أجوبة وأجوبة. لكننا إن استعرضنا الحُمولة الفكرية والمواقف العينية للرجال الذين صنعُوا الأحداث، وقارَنَّا ووازنَّا، كنا أقربَ إلى استخلاص الدرس، وأذكى وأقدر على توقُّع مستقبل يحاوره الماضي ويُجادله.

نظرةٌ إلى تغيُّر القِرانِ في الآفاق السياسيَّةِ الاجتماعيةِ الاقتصاديةِ الكليةِ في الداخل القومي وفي الخارج الدولي.

ونظرة إلى الرجال من أين جاءوا، وما ورِثوا من فكر، وما تسلسل فيهم أو تسرب وذهب من دين، وما وقَع عليهم من أثقال ناءَتْ بهم، وأعجزتهم، وأقعدتهم. ولِمِ انحرف من انحرف؟ وكيف انحرف؟

ليْسَ ابن عبد الكريم معيارا مطلقا نقيس عليه الصواب والخطأ. إن كانت القِراناتُ التاريخية التي عاناها في مرحلتيه الأولى والثانية ذهبت إلى غير رَجعة، فإن مَأثورَهُ ووقْعَه على من دخلوا من عتبته،

وعلى من تتلمذُوا لِمدرسته أو رفضوها، وعلى من تنَسَّل من نسْله في الوطنية والنضال، سائلٌ مُنْحدِر متفاعل منفعل جيلا بعد جيل.

وها نحن على عتبة تحوُّلٍ إسلامي، ومَدخل إسلاميٍّ، ومُدخَل إسلامي، على مشارف مستقبلٍ إسلامي نؤمن به ونسعى إليه ثقةً في موعود ربّنا جلّ وعلا.

قِران مغايِر تمام المغايَرة لما فتح عليه عين نقده وفُوَّهة بندقيته البطل المسلم الوطني الذي كان شعارُه: الإيمان، والإيمان وحده.

قِران حاضرنا تحدِّي التطبيع مع اليهود المحتلين واحدة من أقدسِ بلادنا. فاوضوا عنا، وتصالحوا، وصنعوا «سلام الشجعان».

قِران حاضِرنا أممٌ متحدة تتحكمُ في قراراتها الدول النووية الخمس التي لها دون سائر الخلْق حق القَبولِ والرفض. وتتحكم فعليا في كل القراراتِ الدولة الوحيدة العظمى: الولايات المتحدة الأمريكية.

قران حاضِرنا عِداءٌ سافِرٌ للإسلام والقائلين بإسلام حرٍّ أصيل. عِداءٌ تتزعمه الدولة الأعظَم، ويستشعره ويستبطنه الغرب كافةً، غرب الإنسان الأبيض حامي حِمى الديمقراطية وحقوقِ الإنسان... لأهله وذويه.

قران حاضرنا منافسة جنونية بين اقتصادات تطير بها أجنحة التكنولوجيا المجنونة، ويَحْدُو بها الملِكُ الدولارُ الذي يتخبَّطه الـمَس، كلما استقَرّ -وهو لا يستقر طلوعا وهبوطا- ألهبته بسياطِ السوق ومصلحةِ السوق وموازينِ التجارة شياطين الأبناك وأبالسة الشركاتِ عابرَةِ القارات.

قرانُ حَاضرنا نفط عربِيٌّ مَنْشأً ومنبَعاً، أمريكيٌّ جنسيّةً وغَلَبَةً ودرساً حارِقا متنزلا على رأس بغداد وعلى رأس كل نأْمة تقول: لا!

قران حَاضرنا قُوىً ناهضةٌ من كَبْوةِ الحرب العالمية الثانية ومن صدمة الانهيار الشيوعي أو الإصلاح الصيني: ألمانيا واليابانُ عِمْلاقا الاقتصاد والمال، والصينُ التنّينُ الأكبَرُ المتعاظمُ، وروسيا وفي خزائنها آلاف القنابل النووية، وفي ضميرها ودبلوماسيتها أنها القوة العظمى لا تزال.

قوىً اقتصادية مالية نووِية مستقبلية تاريخُها الماضي وهزائمها الحربية تطلبُ بطبيعة الأشياء انتقاما وثأراً ومكانا تحت الشمس. وآسيا تتصنع وتستغنى وتُحصل العلوم والتكنولوجيا وتخترع وتُطوِّر. ويشع نجمها متألقا في أفق المستقبل.

وقوة أخرى تعتَمل وتتألف وتمتد وتتوحد في أوربا. والدنيا مصالح. الدنيا موازين قُوى. الإنسان الذي في يَده مِكبَس القنبلة الذرية يهودي يهودي، أو أمريكي يدعم دولة اليهود بلا حدود، أو أورُبي يسخر في قراراة نفسه من حضارة الكاوْبُويْ، أو صيني هو أبو الحضارة وجدها. وغدا الألمان واليابان على المسرح مرة أخرى. بطبيعة الأشياء.

كم يدوم قِران موازين القوى في العالم؟

أستغفر الله العظيم وأتوب إليه من «طبيعة الأشياء» الشِّرْكيّة. سرقتْنا إليها لغة العصر. وهي لغة صماء عمياء بكماء عن فعل من له الفعل سبحانه.

قرانُ حاضرنا ثورة إعلامية فاتكة. تفتك بمال العالَم يستحوذ عليه من جيوب المستهلكين جبابرة الصناعة والتجارة والمال والبحث العلمي والاختراع: أمريكا واليابان، وغدا اليابان وأمريكا، وبعد غد اليابان وآسيا بصينها وهندها وتنيناتها، وما في وُسع أمريكا أن

تفعل؟ الحل العسكري النووِي؟ أو يتعقل الإنسان المستأمَنُ على المكابس الذرية فيُهذبُ الحرب التجارية القائمة فعلا منذ الآن. ويزْويها عن مهابِّ رياح الغضب؟ إلى متى يأمر وينهَى شُرَطيُّ العالم بهراوته الغليظة؟

قِران حاضِرنا وكابوس مستقبل العالم شَمال مُتخَمٌ غني مُرَفَّهٌ، وجَنوبٌ متكاثرُ الأعداد، سيءُ المستقَرِّ على الأرض، مريض، أُمِّيٌّ، متَنقِّل، مهاجر يهدد أمْن الساكنين في نعيم الدنيا. جَنوبٌ رمزُه، لَو طُلِب رَمْزٌ، عجوز مسلمة وطفلة من بنجلاديش وتلميذة متحجبة طردوها من مدرستها في فرنسا، أو يتيم أحرقوا بيت أبيه في بغْداد. ولو طُلِبَ رمزُ الرمز لكان مسلما ملتحيا أصوليا «إرهابيا» أمام محكمة قاضيها والغريم في قضيتها واحد. واحد في يده ميزانان. ميزان لتقييم نفسِه وبضاعتِه الحضاريَّة وشرفِه الاستكباريِّ ومكتسباتِه المنهوبة. وميزان يقْضِمُ من كفتيه شطريْ الجبنةِ التي اختصم فيها قطان.

ما يفيدنا تتبع الآثار التاريخية لزيد من الرجال أو عمرو، وهذا مسرح العالم نراه ولا يرون، ونقاسي وهم في جنات الخلد رجاءً لنا ولهم من الله؟ يفيدنا أن شعار الرجال العظماء في تاريخنا كان «الإيمان، والإيمان وحده».

الفصل الثاني

البواعث والأهداف

- بواعث وَأهداف
- الإرادة والسياسَة
- العِبرة والتربية
- حيطة التكليف وكنَفُ الشريعة
- «وإنما لكل امرئ ما نوى»
- «في سبيل الله والمستضعفين»
- البديل الإسلامي
- الجمعاء والجدعاء

بواعث وَأهداف

يعجِزُ ويخِرّ لِلأذقان صريعا في حَلْبة التاريخ من يفكِّر بعقول من في القبور. لكن من لا يتتبَّع آثارَ الأسلافِ على الأخلافِ يوشك أن يخوض معارك سياسية لا يعرف فيها جُغرافيَة النفوس، وهي ضروريّةٌ معرفتها كما هي ضروريةٌ معرفةُ جغرافية المكان في المعارك الحربية.

هذا الجيلُ من الطبقة السياسية الحالية يُمثِّل تشكيلة أساسية في قِران الساعة وفلَكِ ما يدورُ في الزمان.

ما نسبُ فكر هذا الجيل من بين الأفكار؟ ما بواعثُه على العمل؟ ما أهدافه من العمل؟ ما أساليبه واختياراته؟ ما هي التحولات المنحدرةُ في مَزْجَةِ نفسه وتركيبِ عقله من تسلسُلٍ بدأ ببطولة الخطابي المسلمة الوطنية، ومرت بمراحلِ نضال وطني مسلم، وهي الآن تتخبطُ في مناورات مع النظام الملكي، تستودع آمالها في ديمقراطيةٍ تخلّصُ من استبداد مقيمٍ؟

نتتبعُ تحولاتِ الدخائل النفسية والاقتناعات الفكرية الإديولوجية فنفْهَمُ ما يَحدُثُ، أو نُعْفي أنفسنا من اصطحاب تاريخ الرجالِ الفاعلين فيَنْغمضُ علينا سلوكهم، فلا نفهم فتيلا في ائتلافاتهم، واختلافاتهم، واستقامَةِ من جَدّ، وانحِرافِ من انحرف.

ومن ابن عبد الكريم الخطابي رائدِ الوطنية والنضال نبدأ مراقبتنا.

من جيله المنجمع على نواةٍ صلبَةٍ هي الإيمان، والإيمان وحده، إلى جيل كان إسلامُه لا يناقِش فيه أحَد أو يشك، إلى جيل كُشِط الإسلام مِن ورقة برنامجه، فإنما هي وطنية ثورية ثم ديمقراطية، إلى نشءٍ

غريبٍ عن الإسلام، متَنكِّر للإسلام، مستخفٍّ بالإسلام، ساخرٍ نابذ للإسلام.

نراقب تفتُّتَ النواةِ الإيمانية الصّلبة -كانت- في القلوب، ونواة الاحتكامِ إلى الشريعة الإسلامية -كانَ- في جمهورية الريف، ونواةِ الجامعةِ الـمُدْمِجَةِ. كانتْ وحدَة لا إله إلا الله محمد رسول الله، فَتَحَولَتْ شِرْكَ «الله، الوطن، الملك»، فكُرِهَ المِلِك لاستبدادِه، ونُسِي الله لأن الناس طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وتجَرَّدَ الناسُ من الدين ليقيموها دولة قطرية ديمقراطية لاييكية يحكمها قانون، لا تحكمها إرادة طائشة.

يُخيَّل للنظام الملكي أنه الاستقرارُ مجسما، والإسلامُ معمما متوّجاً بتاج إمارة المؤمنين. ويخيَّل للطبقة السياسية، الشاعرةِ بأصل منابعها وغير الآبهةِ، أن الصراع الذي كابدهُ الوطنيون الأحرارُ منذ أربعين سنةً من الاستقلال ستُعطيه الديمقراطية توازُناً أبديا في ظِلِّ ملكيَّة دستوريَّة يكون العرشُ فيها زينةَ طاووسٍ والجالسُ عليه طاووساً أليفا ينتفش في الحفلات.

انسياقٌ مع الأحداث الجارية، والرُّؤيةُ منحبسة لانحباس الأفق الحالي.

وإذْ نَرُومُ حواراً بين الماضي والمستقبل، ونرومُ بناء قواعدَ لمستقبل، ونروم رؤيةً تتجاوز آفاق الحاضر، وعلاقات الحاضر، وديناميكية السياسة الحاضرة، لتخْرِقَ إلى المستقبلِ قِراناً هائلا معادِيا، فلا بُدَّ لنا من استصحابِ تحوُّلِ العقلية الفاعِلَةِ في ضمير الفاعلين السياسيين المؤثرةِ في سلوكهم عَبْرَ تاريخ ثلاثة أجيال أو أربعة.

وإلاَّ انخرطنا، من حيث نشعر أو لا نشعر، في دوَّامة تدورُ باللاّحِق كما دارت بالسابق في فَلك السياسة. والـمَدُورُ به في الدواماتِ لا قِبل له بقطيعةٍ تفُك رقبته.

السياسة فنُّ الممكن كما يقولون، وأنت وما تسمح به القراناتُ الاستراتيجية الحالية، وأنتَ كن ابن زمانك أو استقِلْ من الوجود، وأنتَ كن على مستوى العصر أو تموت. ومستوى العصر ديمقراطية، ودولة قانون، ونظام دوَلِيٌّ أقصى ما يسمحُ به للشعوب -إن سمَح- الاحتفاظُ بهُوَيّةٍ قومية لا تتعدى الراية والنشيد الوطني والفلكلور السياحي.

الممكنُ في فن السياسة على مستوى العصر، بل اللاّزِمُ المؤكّدُ، أن لا تتحدّى الإرادةَ المسلحةَ بالصواريخ الذكيَّة، الماسكةَ بمفاتِيح الاقتصاد، الرائدَةَ في الفضاءِ وأرضِ الفضاء.

والمستَحيلُ في فن سياسة الممكن أن تقول رَبي الله في عالَم لا يعرف الله، وأن تدْعُوَ إليها دولة مسلمة حق الإسلام في عالَم المسلمون فيه «إرهابيون أعداءٌ للديمقراطية والسلام والاستقرار».

أين تكْمُنُ حقيقة القوة الخارقة التي انبعث منها ابن عبد الكريم الخطابي فانتفضَ انتفاضتَه الشجاعة غير هيّابٍ ولا وَجِلٍ، ورسَم لحركته أهدافا جليلة، وصانعَ العالم الغربيَّ الحاقِدَ عليه ست سنواتٍ، واتخذ وسائلَ يشهد الحشدُ الفرنسي الإسباني الهائل أنها كانت تحدِّيّاً يُحسب له ألفُ حساب.

أستغفر الله العظيم القوِيَّ الناصرَ من نصَرَهُ، الصانِع المتْقِنَ الصنعة، لا إله إلا هو.

ذاك إيمانُنا. ذاك حقيقة القوة الباعثة.

وفي حوارنا البشريّ مع سُكان الحاضر والمستقبل نلْقى نظريَّةً يَلْوِي إليها المؤرخُونَ أعناقهم. هي نظرية تأثير الأفراد النابهين في التاريخ. يبرز عبقريٌّ في العسكرية مثلُ الإسكندر المقدوني، أو قيصر الرومان، أو خالد المسلمين، أو نابليون فرنسا فيلقي بظلاله على وقائع زمانه وامتداد تاريخ أمته.

أو يبرُزُ عالِمٌ عبقريٌّ كالإمام الشافعي ومالك وأبي حنيفة وابن حنبل رحمهم الله والغزالي ومن لا يُحصون فيُكونونَ البسَاطَ العلمِيّ لأمة عظيمة.

أو يبرزُ علومي فذّ مثلُ باستور الفرنسي فيعود فضلُه على الأجيال الإنسانية من بعده.

وهكذا. وننظر إلى مُستقبلنا من زاوية حاضِرٍ يعوقه عن التطلع للمعالي -من بين ما يعوقه- سياسة الممكن. وفن السياسة.

من كان الإيمان، والإيمان وحدهُ مُنْبعث قوَّتِه لا يُقارن بمن منبعثُه سياسة الأمر الواقع، خذ منه ما يعطيك، وتربَّص فرصةً أحسنَ. من كان الله وليَّه ومُعتمَدهُ، فلا على المؤرخِ ولا على المؤرِّخِ أن يُصنّف مع الأشخاص الأفذاذ. وما على النتائج من بَأسٍ أن يعمل جنود مجهولون لا يعرفهم التاريخ البشري.

الإرادة والسياسَة

هو الله لا إله إلا هو، سنته ماضية. وقَدَرُه يُنزله كما يشاء على يد من يشاء.

تلتحق العقلية السياسية الماهرةُ في فن الممكن بالعقلية العتيقة الخانعة في حِجر الغالب، القائلةِ قبْل بذل أي مجهود لمقاومة المنكر: «هذه إرادة الله». جبريةٌ لا مشكورة ولا مأجورة!

عانى الخطابيّ من تخاذُل العقلية الجبرية الطرقية وخذلانِها جهادَه في معاركه الحربية، وسنرى قريبا إن شاء الله كيف عانى من العقلية الأخرى في محاولاته السياسية.

لا نريد أن نُثبت أبوّةً لأحد أو ننفيها. والوطنيون المغاربة والمغاربيون أدرى بالمقدار الذي أثّر به أو لم يؤثِّر صدى هذا الذي خاض الغَمراتِ وبقيتْ أنظارُ غيرِه معلقة على مستقبل لا يجيء، عاجزةً عن ترجَمةِ الرؤية -لمن كانت له رؤية- إلى واقِع. بذَل الخطابيّ قُصارَى جُهْدِه وأعذر وضربَ مثلا، وتملَّى غَيْرُه بمداعبة حُلْم بعيد المنال.

تتفاوت الرجال وتختلفُ بينَهم مقَوِّمات القيادة. من الرجال من يقترح نفسَهُ للصف الأول، فتقعد به الإرادةُ، فيَفيء إلى مخاطبة المستقبَل بمشروع سياسي حدوده فنيّة إمكانيَّة. ومن الرجال من تقتحم إرادتُه حدودَ الممكن، لا ضَيْرَ عليه إن كان دون المطْمَح خَرْطُ القَتادِ، وكان دون المطمَحِ حشودٌ تُعْيِي وتُنْهِك.

تجدُ من ذوي الطموحات العالية والإرادات التي لا تنثني رجالا من المِلَل والأجناس. ذاك الإسكندر المقدوني، وهذا ماوتسي تونغ، والآخر هوشي منه تلميذ الخطابِّي في عِلم تكتيك حرب العصابات، وفي عزائم حرب العصابات. مِلَلٌ وأجناسٌ ما هي من صنف القيادات التي يُغْرينا بتقليدها الخوَاءُ والخلاءُ كما يُغرِي بعض الغاضبين الثوريّين من حالهم في تاريخنا الحديث. لا يغرينا مَثل الملل والأجناس لأن لنا أصلا. تألق الخطابي رحمه الله في سماء الرجولة لأنه كان له أصل. أصلنا وأصله واحد، ربنا وربه الله، مَثَلنا ومثله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تحت شمسِ القرآن تكشِف ضياء الحق أوهامَ الباطل. أمامَ السيرة النبوية الراشدية تنخسِف سَفاسِفُ «ساس يسوس» التي لعنها محمد عبده رحمه الله.

إن اقتحام التحديات العظمى التي تعترض مستقبل الأمة، كما أشرنا إلى مَخايلها منذ حِينٍ، لا تنهض إليها إلا تعبئةٌ تنفُخ فيها روحَ طَلَبِ الشهادة في سبيل الله إرادةٌ لا تغرُّها زينة الدنيا ولا تخيفها سطوة أبناء الدنيا المستكبرين في الدنيا. لا تنهض إليها إلا تعبئةُ أمة برئت من داء الغثائية، تحملها إرادة لها غاية في الآخرة، تقتحم إلى تلك الغاية عقباتٍ في الدنيا وأهدافا في الدنيا.

ليس المقصودُ من تأمُّلاتِنا على هامش تاريخ حيٍّ مضى أن نصف انحطاط جيلٍ عن جيلٍ، واختلافَ باعثٍ عن باعثٍ، وتجدُّدَ وسائِلَ بعد وَسائِلَ، ومحدودية هَدفٍ واتساع هدف.

ليس مقصودَنا الوصفُ، فالمستقبلُ لا تبنيهِ سلبيّاتٌ انتُقِدَتْ، وأنسابٌ في السياسة والنضال انقطعت أو اتصلت. إنما تبني المستقبل تربيّةٌ استقَتْ من النبْع الصافي، لا يصُدُّها عن مَشْرَبه تشكيك مُلْحِدٍ، ولا يُسَطحها ويبَطِّحها جيلٌ خلا وجْهُه من هم الدين، وتفرغ قلبه من جَذْوةِ الإيمان، وأقفرت ساحتُه من رَيَّا الإسلام.

التكتُّل السياسيُّ اجتماعُ شخصيات مكتملةُ الذات في رأي نفسها، لا يُسأَلُ زيْدٌ وعمرو هل صلى الصبح في المسجد، أو لِمَ رضيَ بمنكَرٍ وسخِط معرُوفاً في نَفْسه وأهله ومجتمعه. أما التحزبُ لله فهو وَلايَةٌ في الله، وتميُّزٌ وتآمُر بالمعروف وتناهٍ عن المنكر في خصوصية الجماعة التي ترشح نفسها لقيادة حكومة أمة.

في السياسة لا يُسأل زيد أو عمرو عن معتقَدِه. ويسأل المؤمنُ المومِنَ، وتسأل المؤمنةُ المؤمنة في حزب الله عن حال الإيمان كما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم حارِثةَ عن حقيقة إيمانه.

إذا كانت نواة الإيمان انصدعت من جيل لجيل، وتفتَّتَتْ، وتلاشتْ في بعض تلاشيا مطلقا، وذابت في بعض ذوباناً سائلا، فلطبيعة التكتل السياسي الذي لا يبيح لأحد أن يتدخل في الشؤون الخاصة لأحد. والدين من أخص الخصوصياتِ في مِلّةِ الديمقراطية اللاييكية. لذلِك يُشْدَهُ من الاستغراب والاستبشاع سياسي تسأله: هل حضرت معنا الغَداة في المسجد.

«الإرادةُ السياسية» على لسان من في يدهم السلطة تعبيرٌ عن قَرارٍ اتُّخِذَ، فيلزمُ الحكومة الوفاء به إن أمكن. والإرادة السياسية في عموم المتكتلين لا تقيم حسابا لغير كفاءةٍ لا بد منها لكيلا يفقِد الحزب السياسيُّ صِدْقّيته. ثم هي بعد ذلك طموحاتٌ شخصية، واقتناعات إديولوجية، أو انتهازيّة سياسيّة، أو كل ذلك مجتمعا متسانداً.

خلا الوجه، وتفرغ القلب، وأقفرت الساحة مما سِوَى عقلانية تحسُب، وتكتُب، وتخْطبُ، وتخصُبُ.

مصيري السياسي لا علاقة له البتَّة بغير مصيري السياسي. فإن كان في جانب من جوانحي بذرَة إيمان وذكرى فِطرة، فقد تعلمتُ في ندَوات التوعية أن الدين شيء والسياسة شيء.

العِبرة والتربية

العِبرة من العُبُورِ، جمعتهما المادة اللغوية. والاعتبار الذي أمر الله به عز وجل تربيةً لنا هو النظر في مصائر أمَم طغت في البلاد وأكثرت فيها الفساد، فصب عليهم ربّك سوط عذاب، إن ربّك لَبِالمِرصَاد.

انظر إلى مصائر المستكبرين، آحاداً كانوا أو قُرىً، ثم اعبُر من ضِفّة التاريخ إلى ضِفّة نفسك، وضِفة قريتك، وضِفّة ما تعانيه أمتُك، لِتعمل بالحكمة الاعتبارية في إصلاح مصيرك الأخرويِّ أولا، ومصير أمتِك، لأن إصلاحَ مصيرِ أمّتك عمل يرضاه الله.

وجَسْرُ العبور في رسالتنا هذه يصل بين شاطئٍ تاريخيٍّ وُلدت فيه الوطنية مسلمة شعارُها الإيمان، والإيمان وحده، وشاطئٍ حاضِريٍّ الوطنيةُ فيه استحالت نضالا له رصيدٌ أو أنتَ في الساحة دعِيٌّ دخيل، واستحالت ديمقراطية مطلوبة ممتنعة، والدين فيها بدعةٌ.

ما يغني العاملين لمستقبل الأمة وَصفُنا للتاريخ وشواطئه وجسوره وعابري الجسور إلا كما يُغني العطشان وصفُ الهواجِرِ وحَمَارَّةِ القيظ. لعل وصفَ المياه الجارية، والعيون النابعة، والأقداح الباردة كان يُسليه ويُلهيه.

لا يطفئ الوصْفُ غُلَّتَه، بل يُلهب الوصف عطشه إن تناول الصحاري ورمالها والفيافِيَ وقحولتها. وما في حصيلةِ خالِدٍ من كسب زيد شيءٌ في حسابات الدنيا وحصائلها، ولا في سِجِلِّهِ يوم القيامة نقيرٌ أو قطميرٌ مما جناه زيْد من المآثم واقترفه، أو عَمِله من المبَرَّاتِ والطاعات وصرَفه.

العبور في حد ذاته تربية إن راقبتَ الجسور لكيلا تَهوِيَ بك خُشُبٌ مسنّدة، أو تعثُر بك قدم في حُفَرٍ لا ممهدةٍ ولا مُعَبّدةٍ.

أثناءَ الاعتبار وبعد الاعتبار تغني التربية فقط. والتربية عمل يسبقه علم. التربية تنمية وارتفاع: إسلام، فإيمان، فإحسان.

التربية صلاة، جماعة تلتقي خمس مرات في اليوم. هذا أولا. التربية خطبةُ واعظ الجمعة. خطبتُه هي الحد الأدنى الواجِب وجوبا مؤكّداً من السَّماع المربي. ومن الجمعة للجمعة مجالس إيمان، وشُعب إيمان.

التربية مُرَبٍّ بحاله ومقاله. التربية مسجد وحلقات علم وذكر. التربية أم مؤمنة، ومدرسة، وجامعة، وتلفزيون وإذاعة وصحافة. التربية عضْوٌ في جماعة المسلمين يُحِبُّ ويُحَبّ، يَنْصُرُ ويُنْصَر، يشارك في عمَل كل خير، ويَجْفو وينكر بالقلب واللسان واليد كل منكر. التربية قرآن يُتْلى ويعمل به.

الاعتبار في المسألة أن السياسة لها إرادة ولا تربية. والدعوة طموحٌ إلى ما عند الله، وإلى مقعدِ صدقٍ عند الله، والعملُ السياسي لإمساك وازع السلطانِ بقَصْدِ إخدامه القُرْآنَ وسيلةٌ شريفة شرَّفها القصدُ والنيةُ، ويشرفُها الاستقامَة إلى أهدافٍ شرعية وغاية إحسانية.

إن حقيقة تاريخ الأمم الحية تكمن في عُمْق حركيتها الاجتماعية، وتَماسك اندماجها في وجه الأعاصير، وقدرتها على الاقتحام الإيجابي للمستقبل بإرادة لا تنظر إلى الوراء.

وروح الحركية والقدرة إنما هو الباعث المتجذر في قلوب الرجال، من غضبٍ على عدوٍّ غاشم، أو مطمَحٍ تعلقت به آمال، أو إرادةٍ ألهَمَتْها عقيدة، أو زحفٍ نهضت له أمة لها في الكون رسالة.

إن سؤالَنا المتكررَ عن الفرق بين السياسيِّ ورجُل الدعوة في البواعث والأهداف والوسائل يقودُنا إلى الجواب عن طبيعة اللُّحمة الجامعةِ الحافزة. ما يُحركُ الناس؟ من يحرك؟ ماذا في ضمير الرجال الذين يقودون الحركة؟ ما يدور في جذع الأدمغة المفكرة؟ ما سِرّ صِحّة الصحيح وعلة العليل في الحركة؟ أي مِثالية تُلقي بظلالها على الموكب المتحرك؟ ما يعطل حركة هذا وهؤلاء فيتأخرون خطوة وخطواتٍ عن الركب؟

ما يجمع الناس في العمق؟ ما يفرقهم؟ تجمعهم وطنية؟ وتجمعهم طبقة؟ مصالح؟ فكر؟ عقيدة ونية استشهادية؟

لكل مستوىً من الإدماج حركية تناسبه، وقِرانٌ خارجي يتحكم في اتجاهه ويصارعه، ونظام في المجتمع قائم يفرض على الحركية الإرادية حدودا.

هذا النظام في المجتمع الذي يُراد تغييره لا يمكن نسفُه ضَرْبَةَ لازِبٍ، ولا يمكن تنفيذ حُكم الإعدام فيه. وقد أعطت الحلول الثوريَّةُ الناسفةُ العنيفة الدليلَ على أنّ إعدامَ طبَقَةٍ ظلمت واستحقَّت المقت لا يعْنِي إلا تغييبَ وجوه لتبرُزَ وجوه ويبقى حبْل الغرائزِ البشرية غير المهذَّبة واصلا بين طبقة أُعْدِمَت وطبقةٍ أعْدَمَتْ. والمتأمِّل فيما خلَفَ الأرستقراطيةَ الروسيةَ بعد الثورة البلشفية يجدُ مقنعا.

حيطة التكليف وكنَفُ الشريعة

إن القاعدة الاجتماعيَّةَ المناسبةَ لتشييد العمران الأخويِّ والحكم الشوري هي جماعة المسلمين. وقد أفضنا في الحديث عن الوَلايَة الجامعة في غير هذا المكان ولاية المحبة، والنصرة، والتعاون على البِرِّ والتقوى، والتحزُّبِ لله، والبراءَة ممن يحادّون الله ورسوله. أفضنا في الوصف. والوصف نزهة على الشاطئ، ليس الوصفُ واستيعابُ صورة الموصوفِ باللَّسْعة التي توقظك حِدَّتُها، ولا هي باليقظَةِ التي تبصِّركَ أين أنت وأين ينبغي أن تكون، ولا هي بالحدة التي تَخِزُ بإِبَرٍ مستَفِزّةٍ قلبك الراقد، وضميركَ القاعد.

الذي يوقظُ ويحْفِز ويوجِّهُ التربيةُ. ماذا يريد من لم يترَبَّ على إيمان وإحْسان غيرَ ما تصبو إليه النفسانية الشهوانية، والشيطانية النازغة، والغضبية الاستكبارية؟

صَبْواتٌ تُخالِط المنطلق في الطريق، فتُحرِّفُ وِجهتَه إن لم يكن لَه حصانة وأصالة، أو تَلْحقُ بجيلٍ بعده. أو تمتزجُ بالدماء الحركية امتزاجا، فتبحث بعد ثلاثة أجيالٍ عن الصفاء في رؤية من كان الإيمان، والإيمان وحده رائدَهم، وعن الإسلام الذي لا شك فيه، وعن القسَم الذي أدّيناه على المصحف أن نخلِص لله والوطن، فلا تكاد تجد شِرْوَيْ نقير.

نزعُم أن الإرادة السياسية، والحركية السياسية، والمشاريع السياسية والبرامجَ، آلت إلى الفشل في الماضي وتؤول إلى الفشل في المستقبل لأنها كانت إرادةً بلا تربية، وسياسةً لا تُربِّي، وساسةً لا يسأل بعضهم بعضا : «خيرا إن شاء الله. ما حضرت معنا صلاة الفجر اليوم!».

في فقرة سابقةٍ قلنا: التربية الأم والأسرة والمسجد والمدرسة والجامعة والإعلام. وتلك محاضِنُ الإسلامِ المحتلَّةُ اليوم بجحافل الغزاةِ.

المؤَثّر في هذه المحاضِن اليومَ وحينَ يأذن الله بسراحه من قبضة التربية الـمُضادَّةِ هو الخارج المتحرِّرُ من مَساق التسبُّبِ في الحياة، واللامُبالاةِ بما بعد هذه الحياة. تحرر من تسبُّبٍ ومَساق، ودخل طوْعا واقتناعا وإيمانا ويقينا في حِيطةِ التكليف.

استيقظ قلبُه من سُباتِ الغفلة، وتابَ عقلُه من التسكُّع في طرقاتِ الأوهام. عرف أن له ربّاً، وأن ربّه بعث إليه شخصيا رسالةً هي القرآن، مع رسول هو محمد صلى الله عليه وسلم.

استيقظ المؤَثّرُ في محَاضن التربية، أما كان أو أبا أو معلما مدَرِّسا، أو إماما خطيبا واعظا، أو ما كان، وقرأ الرسالَةَ مكتوبة متْلُوَّة، وقرأها كما يعيشها -بعضاً مستطاعا- مؤمنون ومؤمنات، فأخذ الأمر مأخَذَ الجدِّ، واستولى على يقينِه همٌّ مصيره الأبدي.

ها هو ذا المؤثِّرُ على طريق الانضباطِ بما كلفهُ الله. خلق الله عز وجل هذا الذي كان هائما على وجه الحياة، وكلَّفَ الله هذا الذي ما كان يَحْسِبُ أن له قدْراً وقيمةًفانطلق يتعلم ما التكليف؟ وما الواجب؟ وما السنة؟ وما الدين جملة؟ وما الطاعات والمعاصي تفصيلا؟

التربيةُ أم ومدرسة ومسجد. والتربية خروج من حَيِّزٍ متسيّب إلى فضاءٍ منضبط. والتربية تعلم وعلم. والتربية مؤَثِّرٌ استيقظ قلبه. وتحرر عقله.

التربية دخول في حيطة التكليف، وتَسَرْبُلٌ بسِربال الشريعة، في كَنَف الشريعة.

وإذا بالمؤثِّر على طريق الاستقامة، على الطريق، لا في نهاية الطريق بوجه من الوجوه.

الطريق صاعدة، شاقة، كلها عقباتٌ إلى الموت. الإنسان في كبد ما دام في هذه الدنيا.

الطريق إسلام وطاعات وكفٌّ. وَإيمان له العُمْق، وله الأخلاق، وله العمل الصالح. وإحسانٌ له الطموحُ الأعظم، والتكليفُ الأدَق: طموح الـمُريدين وجه الله، وتكليف مَن باعوا أنفسهم واشترى الله.

زكاةُ المؤَثّرِ المستيقظ المتعلِم الصاعِد في سُلَّم الدين أن يُنفق مما آتاه الله. الزكاة الشرعية التي هي من أركان الإسلام نصيبٌ من مال المسلم مفروض. والزكاة المربية نصيبٌ من وقت المؤمن والمؤمنة وجُهدِه وماله ليؤَثِّر، ويُعَلِّمَ، ويوقظَ، ويُتوِّبَ، ويُحَزِّبَ حزب الله.

وهـذا مفـترَقُ طرِيـق السـياسي عـن طريـق رجـل الدعـوة وأختِ الدعـوة.

لذاك تكاليف نضالية وطنية أو ما كان، ولهذا تكاليفُ من الله منَزِّلِ الرسالة على محمد صلى الله عليه وسلم.

ذاكَ في مَنَعةٍ من حصونه الحزبيةِ يُقارع الاستبداد لتحيى الديمقراطية والحرية وما شئت. وهذا يناهض الظلم المستبِدَّ لتكون كلمةُ الله في الأرض هي العليا، وكلمةُ الذين كفروا السفْلى. هذا يناهضُ، ليس له حصونٌ رَأْيَ العَيْن، من لا يدري أن المنحاز إلى كنَف الشريعة منحاز إلى كنَف الله. ومن كان في كنف الله أمن من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

ينجح السياسي إن حقق زعامةً، وتولّى منصبا، وانتزع حقوقا، وطبّقَ برنامجا. وذلك منتهاه ومِلْءُ وِعائه. فإن كان سياسيا مسلما وطنيا تتسابق فيه أو تتناسق أو تتنافى داعيات السياسة وداعيات الإسلام وداعيات الوطنية، فهو لِما خَتَم به مسارَه، وحسابُه على الله.

أما العامل لتكون كلمة الله في الأرض هي العليا فالأولويات عنده مُقرَّرة محسومة. مؤمنون ومؤمنات يرجون من الله الشهادة في سبيل الله لينالوا الجائزة الكبرى من نعيم الجنة. ومحسنون ومحسنات ما أغرتهم الدنيا بزينتها، ولا يحجبُهم نعيم الآخرة عن المطْلَبِ الأسمى: القُرْبِ من الله. جل الله، تعالى الله.

وميدانُ العمل واحد، والوسائل السياسية قد تتشابه، والتنظيم الحركي قد ترتِّـبُه عقلانية مشتركة، والأهداف السياسية الاقتصادية الاجتماعية قد يحسن هؤلاء برمجتها وقد لا يحسنون. وقد يظنون أنهم وحدهم يحسنون ويفهمون.

نقطُ لقاء. والغاية مختلفة، والباعث على العمل مختلف. والتربية هناك أن لا وِصاية لأحدٍ على أحد، ولا إقصاء لأحَدٍ بمقتضى مِلة الديمقراطية التعددية، وبمقتضى أن الدين لله والوطن للجميع.

«وإنما لكل امرئ ما نوى»

يتقابَل ويتداخل المطلبُ السياسي والمطلب الدّعَوِي على النقط الثلاث: الباعث، والأهداف، والوسائل. فهل هناك تضَادٌّ لا لقاء معه وَلا حوار؟ أم أن التسامُحَ والتكامُلَ وغض الطرف تمهّد للقاء وحوار؟

أم هل من سبيل إلى الصفاء البلّوْري الذي تكون فيه البواعث خالصة من كل شائبة، والوسائل مطهَّرة، والأهدافُ يصمُدُ إليها الهادف ويصيب كما تصيبُ طلقاتُ بنادق الرُّمَاةِ الريفِيّين أمْسِ، وصاروخُ اللازر اليوم؟

نرجع إلى الحديث النبوي لننطلق منه ونستهديَ به. روى الشيخان وغيرهما عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ مَا نَوى. فمن كانت هجرتُه إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله. ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه».

نسائل أنفسنا في ساعة شجاعة وصدق مع النفس إن كنا نفكر تفكيرا سياسيا بإرادة سياسية، وبصدقٍ مع الله وتوبة إليه ومراقبة له ومحاسبةٍ للنفس إن كان باعثنا في زعم أنفسنا الإيمانُ، وكان لنا من أعمالنا غايةٌ وراءَ ما يتحرك من أجله السياسي المناضل أو المصلحي

أو الانتهازي. نسائل أنفسنا ما مردودُ أعمالنَا علينا نحنُ في الدنيا والآخرة؟ ماذا أستفيد أنا شخصيا، أنا الصائر إلى الرمْس وما بعد الرمس، من نضالي وكفاحي وغضبي ومساري السياسي، بل مساري الحياتي كلِّه؟

هناك من يرفُض مثلَ هذه الوقَفات، يعتبرها مَضيعةً للوقت، ومرضاً نفسيا. فهذا استرحنا منه.

آخَرُ لعله يكف لحظة وساعة ويوما وفترة عن الانحراف المِهني الذي يصيبُ السياسيين فيعتادون الدّوران مع الدّوْلابِ اليومي للأحداث، ولعله يشك لحظة وساعة ويوما وفترة في الغَبْن الفادح الواقع عليه: حياته لعقود طويلة، ولسنوات في السجون ودهاليز التعذيب، ولأيّامِ محِنة وليالي سهر، ما ربحه من كل ذاك؟ غيرَةٌ وطنيةٌ، وشَرفُ نضال، ومجْد بطولة.

ثم ماذا؟ تِبْنٌ لا وزن له، وخيالٌ ووهم لا وجود له، أن يقول التاريخ عني أو لا يقول. أعَبْدٌ للتاريخ أنا؟ أأجد التاريخ في قبري ينتظرني بأكاليل السعادة؟

لنا حاجة إلى هذا الآخِر الذي لعله يشعر بأن صفقةَ حياته صفقة غبن. معه نتحاور، وله نكتب.

قال الله تَعالى في حق من كدحُوا في الدنيا كدحا كبيرا وأجرموا واستكبروا وجحَدوا وعتَوْا عُتُوّا كبيرا وهم بالاخرة وبالله هم كافرون: ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنْثُوراً** ﴾[1].

إذا كان مثَلِي الأعلى بطلٌ من أبطال التاريخ الثائرين، والمصلحين، ومؤسسي الدّول الفخمة، والتاركين بصماتِ أثرهم على وجه عصرهم،

(1) سورة الفرقان، الآية: 23.

والمحوِّلين مَجْرى التاريخ، فإنّما أجري وراء هباءٍ منثور. كدْحٌ سعِدت به شعوب الأبطال التاريخيين أو شقِيت، وصدىً سمعته آذان البشرية ثم مضى وخفتَ ومات. إلى ماذا آل البطَل إن كان في حياته الدنيا لم يؤمن بالله وباليوم الآخر؟

إلى ماذا أَؤول أنا المسلمُ الفاعلُ في الحقل السياسي، وفي كل حقْل، إن كانت نيتِي أثناء الفِعل لمْ تخْلُصْ، وعابها عيب، وأبطلها عَطبٌ كان في قلبي لم أصلحه، وعاهةٌ في عَقلي لم أتعلم ما كلفني به ربي، وما رسمه لي من محيط الشريعة وكنفها؟

يلتقي على ثلاث نقطٍ المناضل السياسيُّ والعامِل لآخِرته المتحزبُ لله: لا بد لكل واحد منهما من باعثٍ سامٍ أو سافل، لا بد لكل منهما من رؤية واضحَةٍ للأهداف، لا بد لكل واحدٍ منهما من وسائلَ.

نقطُ لقاء، وضرورةُ عمل، وازدحامٌ في ساحة عمل، ومصلحةٌ عامة يزعمُ كل منهما أنه الأجدر الأقدر على إيصال الشعب إليها.

إن كنتُ ديمقراطيا تعدديا لاييكيا فلستُ أنظرُ في هذا النوع من التحليل غيرَ نظرة ازدراء. كنتُ أعدُّ مثلَ هذا الكلام تخبيلا للعقول، وتسلُّقا ساذجا على أسوار السياسة، وإغلاقاً لإمكانية أي حوار، وظلاميَّة بليدة لا تزال تُدخل الاعتبارات الغيبيةَ في السياسة.

إن استرحتَ منه فهو لا يستريح منك.

أمَّا إن كنتُ رجُلَ دعوةٍ فهمِّي الدائم أن لا يَقْدَحَ في عملي نية سيئة، أو سوء نية، أو تراجُع عن كلمة الحق، أو سكوتٌ أخرس

لا ينطِق -إن نطق- إلا بلغة مشتركةٍ حِواريّةٍ مَلْساءَ لا تخْدِشُ نتُوءاتُها الحساسياتِ المرهفةَ.

وهَمِّي الثاني أن يقرأ فاضلٌ سياسيٌّ، أو مثقفٌ دأبُهُ الفضولُ العلميُّ، وحِرفتُه الانصاف، جُملة تذكر، أو صفحةً توقظ. فسعادتي حينئذٍ مُكتملةٌ إن بارك الله في كلمتي وجملتي ففزتُ بالوعد النبوي، ودخَلتُ في مشهَدٍ سَعَادِي مع الإمام علي كرَّم الله وجهه الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لَأن يهديَ الله بك رجلا واحدا خير لك من حُمر النّعَمِ».

تلك نماذجنا العالية الغالية: رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون وصحبُه المجاهدون. لا الأبطال التاريخيون الجبابرة الذين كانوا في الدنيا كالجبال، وهم وأعمالهم في الآخرة هباءٌ منثور.

أستثني الأبطالَ المؤمنين بالله ورسوله، المجاهدين في سبيل الله. وما صاحبُنا الريفيّ وشهداءُ الجهاد عن طرازهم بغُرَبَاء. نرجو له وللمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات من الله تعالى المغفرةَ والتجاوُز.

نموذجنا العالي الغالي سيُدنا أبو الحسن علي بن أبي طالب. رَوى أصحاب السِّيَرِ أنه كرم الله وجهه تمكن في خيْبَرَ من يهودي فهَمَّ بقتله. وكان اليهودي جَلْدا صَلْبا، فبصق في وجه الإمام. فما كان من الإمام إلا أن كفَّ عنه. سأله الصحابة في الميدان عن سبب كفِّه عنه، فأجاب بأنه لا يريد أن يضرب ضَرْبَةً بغير نية صالحة خشي أن يقتل العدوّ انتقاما وغضبا لنفسه.

إن بصق العدوُّ في وجهك وأنت قادرٌ غاضِبٌ كما يغضَبُ المقاتلون، فقد ضاعف أسبابَ غضبك عليه، وأسرع إلى حتفه بجناية حاليَّةٍ مستفِزَّة تشدِّدُ ما له عندك من جنايات.

لكنك إذا كنت الإمامَ عليا، أو تلميذا من المدرسة التي تخرج منها الإمام علي، أو ناشئا في القرون المتأخرة مثالُك خرِّيجو تلك المدرسة، فإن حِسابَ آخرتِك، وعادتَك المتأصّلَة في ليل المناجاة ونهار المحاسبة، تمسك بيدك لتذكِّرك أنّما لكل امرئ ما نوى.

«في سبيل الله والمستضعفين»

علِم الله الرؤوفُ بعباده الرحيمُ أن فينا ضعفا، وأن كمال الصفاء البلَّوْريِّ في النيات والباعث والوسيلة والهدف مِثال يصبو إلى بلوغه الـمُبْحِرُ في محيط التكليف الشرعي، الصاعد على سلَّم التربية من إسلام لِإيمان لإحسان. يصبو ويقتحم عقباتٍ في النفس البشرية، وعقباتٍ تبصُق في وجهك وتستفزُّكَ، وعقباتٍ تصدّك عن سبيل الله، وعقبات تُحَرِّف بك الطريق من مسارك الصاعد لتُلهيَك بالسفساف، ولتغرك بزينة العاجلة، ولتزُجَّ بك في هَوَسِ العالم.

علم الله خالقُنا وبارئنا أن فينا ضُعفا عن حمل أعباء التكليفِ بالقوة التي لا تلين، والنية التي لا تتململ، والإصابة التي لا تخطئ. فخفف عنا. له الحمد وله الشكر.

خفف عنا حين جعل التكاليف الشرعية منوطةً بالاستطاعة في قوله سبحانه: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾(1)، وقوله عز من قائل: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا**﴾(2).

وخفف عنا حين جعل في التكليف عزائمَ للأقوياء الأصحاء، ورُخصا للمرضى والعاجزين.

---

(1) سورة التغابن، الآية 16.

(2) سورة البقرة، الآية: 286.

وخفف عنا التخفيف الكامل والعفو الشامل إن نسينا أو أخطأنا.

ووضع عنا الإصْر والوِزرَ ما تبْنا واستغفرنَا.

وعفا سبحانَه عما يكون في نياتنا من نقص في التوجُّه، بل شرَعَ لنا أن ننتصِرَ لأنفسنا ممَّن ظلَمنا رُخصةً لضعفنا عن كبت غضبيتنا الانتقامية. والعزيمةُ للأقوياء القادرين على كظْم الغيظِ، المحسنين العافين عن الناس.

على أقْدارِ الناسِ ودرجاتِهم على سلَّم الإسلام والإيمان والإحسان يطلبُ إليهم التكليفُ الشرعيُّ حَدَّ الوُسْعِ والطاقة. ما لا بدَّ منه بحالٍ من فروض العين مثلَ الصلاة في وقتها للـمُقيم والمسافر والصحيح والمريض فالأداءُ واجب، والكيفيَّةُ تُخَفَّفُ على صاحب العذر. وما هو من قبيل فروضِ الكفاية فذوو الكفاءات والقُدْراتِ يكفون سائرَ المسلمين. ويفوزون دون سائر المسلمين بالجزاء الأوفى.

هذا في التكليفِ الظاهر التنفيذي. أما التكليفُ القلبيُّ المتعلق بصفاء النيَّةِ وخلوصها فالتخفيفُ فيه واسعٌ أيضا. يدخل هذا التخفيف الباطني وذاك التنفيذيُّ الجوارحيُّ في كليةِ ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[3]. وفي كلية «**إن هذا الدين يُسْرٌ**» الحديث.

من دخل في حيطة التكليف الشرعيِّ وكنَفِه فواجباته الدينيّةُ أداها على درجة دينه وعذْره فنجا، أو تلاعب بها ونافق فيها فذاك من الخاسرين، إلا أن يتوبَ إلى الله ويتوبَ الله عليه. يستوي في هذه المسؤولية كلُّ زيْدٍ من الناس وعمرو. السياسيُّ المناضل الذي لا يصلِّي خَرَّبَ عماد بيْتِ دينه إن كان يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول

(3) سورة الحج، الآية: 78.

الله. أما إن لم يكن يشهد، إن كان خارجَ دائرة لا إلا إلا الله المرحومة، فذاك لا بيتَ له حتَّى يَخْرَبَ.

ونصل إلى ساحة العمل المشتركَةَ بين المسلمين -المصلين وأهلِ لا إله إلا الله- منهم المناضل الذي لا يَعْلَم أن لإسلامه تكاليف مضبوطة، والعامل لآخرتِه. يلتقيان ويفترقان درجَةَ صدقٍ، وكفاءَةَ عمَلٍ، وباعِثَ عمل، وهدف عمل، ووسيلةَ عمل.

الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوَى. فهل في مقدور المسلمين الصادقين السمُوُّ إلى السيادة المطلقةِ على النفْس، يحبِسها ويحاسبها حتى تصفُوَ نيتُها لكيلا يضيع عمله هباءً منثورا، ولكيلا يكون عمْرُه سلسلةً من التحرُّكات الذاهبةِ مع رياحِ التاريخ، لا وزنَ لها عند الله، ولا أثرَ لها في الصحيفة. يوم يُؤْتَى الناس كتُبهم: هذا يؤتى كتابه بيمينه، وذا الـمُبْعد يؤتاه بشماله، والسابقون السابقون، أولئك المقَرّبون في جنات النعيم.

رجلان، أو امرأتان، قدما تضحيات نضاليةً، وحملا همَّ الشعب، وأنجزا نفس الإنجاز. هذا باطلٌ عملُه عند الله، وذاكَ صحيفتُه ثقيلة في الميزان يوم النشر والحشر والموازين والصراط والجنة أو النار.

كلمةٌ تلوكُها الألْسُن: كلنا نعمل في سبيل الله! كل من ماتَ في ساحة النضال فهو شهيد! وكأنَّ إلصاقَ كاغَدٍ على نعشِ مُلحدٍ مكتوبٍ فيه «هذا شهيد الوطن» أو شهيد الحرية، أو ما شئت، يقوم مقام الطابع البريدي على الرسالة المضمونة، توصِّل صاحبَ النعش إلى ملائكة الرحمة ولو كان في حياته الدنيا ملحدا، أو تاركا للصلاة، أو عاصيا لم يَتُب إلى الله، أو كذابا محترفاً.

كلا! فإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى. لا يستوي من كانت هجرتُه إلى الله ورسوله جهادا في سبيل الله مع من كانت هجرته لمنصب دنيا وسُمعة تاريخ نضالاً وبطولةً قالت في الدنيا: أنا! أنا! وهي في الآخرة من الهالكين!

ما بين صفاء نيةٍ مثل نية الإمام علي كرّم الله وجهه وبين ذمة الناصيةِ الكاذبة الخاطئة العامِلَةِ في الدنيا بنيةٍ فاسدة، الخاشعة في الآخرةِ الذليلة فيها، مجال رَحْمَةٍ وتخفيف.

هامش خطإٍ وسَهْو وضَعْفٍ بشري ترسم حدوده الآيتان الكريمتان: قوله تعالى يخاطب المؤمنين: ﴿**وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا**﴾[1].

وقوله جل وعلا: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ**﴾[2].

هامش للضّعف البشري ومجالُ رحمة وتخفيف. قلّما تصفو النيَّة الجهادية من الغضبية البشرية أمام مشهد المظلومين من الرجال والنساء والوِلدان الذين يعانون من ظلم الظالمين وعُدوان المعتدين. وتعالَ أمْسِكْ بيَد شابٍّ مؤمن تطوّع لصد عدوان الصِّرْب وما فعل الصّربُ بالحرائر والأطفال والمستضعفين. أمْسِك بيده حتى يَبْرُدَ وتصفُوَ نيته. يبْردُ ويستقيل من المهمة، ويُحوقِل مع القاعدين: «هذا ما أراد الله!».

(1) سورة النساء، الآية: 75.

(2) سورة الحج، الآيتان: 39-40.

علم الله ربّنا وخالقنا ما ركّبَه في طوايانا من مرجِلِ غضَبٍ على الظُّلْم هيَ من مُقوماتِ الجهاد ما طلبَ إلَينا الشاقَّ الممتنِعَ: أن نقاتل في سبيل الله بدون أي اعتبار. إنما قال: ﴿**فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ**﴾ وحرضنا على قتال الظالمين تحريضا بليغاً إيحائيا بما وصف من حال المستضعفين من الرجال والنساء والوِلدان يستغيثون ويستصرخون.

وكذلك في آية الحجِّ أذِنَ لنا في قتال عدوِّنا لحيثيات منها أنّنا أُخرِجنا من ديارنا. سبّق هذه الحيثية المستفزَّة الموقظةَ لغضبيتنا، وثَنَّى بالحيثية العُلْيا. وهي أننا نقاتَل من أجل عقيدتنا.

ونجدُ في صف الجهاد من ثارت حميّتُه لأنهُ أُخرج من دارِه، ومن كان غضبُه لله ولدينِ الله المقاتَلِ أسبَقَ في الاعتبار أو الوحيد في الاعتبار. ولعل هذا يكون استثناءً، وروحاً سماويَّةً كما كان أمثالُ الإمام علي كرم الله وجهه.

المسلمون مراتب، والبواعثُ مراتب، والنيات مراتبُ.

وإنما تقَرِّبُ بين المستوياتِ التربيةُ. التربية تنميةُ الإيمان والطموحِ. التربية صعود إراديٌّ وتصعيدٌ مستمر. التربية اقترابٌ من الكمال وتقريب. التربية قَدْحُ زِنادٍ في القلب والعقل، إشعالُ فتيلٍ، تعبئة طاقاتٍ فرديّةٍ لتندمج في حركية اجتماعية يَعْمَل فيها العاملون بجهْدٍ مُتكامِلٍ ينفع الله به الأمة.

إن قُلتَ: تعبئةُ طاقاتٍ فرديةٍ حركيةٍ جماعيةٍ، فقد رَسمْتَ للحوار هدفاً. نعم! ورسَمتَ للقاء موعدا. نعم!

نعم! لكن الحوار واللقاء على أرضية غيرِ أرضية الإسلام تغرير وسوء تقدير. قال الله تعالى يحذر المسلمين من المنافقين أن يتخللوا صفوفهم: ﴿ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً ﴾[1].

نعم! ويتفاوت المسلمون المنضوون في كنف الشريعة والتزام التكليف. أما الخارجون عن نطاق الشريعة الرافضُون لحكمها فهم في الساحة عُمال من طبيعة أخرى، وتربية أخرى. وقد يصل التناقض بين نية ونية، وطبيعة وطبيعة، وتربيةٍ وتربيةٍ حد القطيعةِ المعلنَةِ.

ذاك الذي كتب بقلمه، وخطب في خطبته، واحتجَّ مِلء رئَتَيه أن له حقا في أن يمارس حريته في الإلحاد، وإلحادَه في «الاجتهاد»، ومَدَنيَّته الديمقراطية اللاييكية طبعا ومولدا، وأن يجلسَ للحوار على أرضية تناسبُه ليست هي أرضيةَ الإسلام، وأن يتكلم بلغة لا يفهم غيرها لاسيما لُغَةَ القرآن.

ذاك ما يجمعُك ويجمعُه؟

ذلك تعلو البشاشةُ الساخرةُ أسارير وجهِهِ إن قرأ في صحيفته نعتَ المؤمنين والمؤمنات بأنهم ظلاميون، وقرأ في صحيفته صورةَ مُصَلٍّ ومحجّبةٍ وسَطَ صفحة عامرة غامرة بمقال مترَجَم أو مُبْدعٍ عن التطرف والمتطرفين. الصلاة تطرف! الركوع والسجود أوضاعٌ غريبة.

لا جرم يرفضُ الجلوسَ على أرضية الإسلام. لا جرم يفعَلُ لأنهُ نِتَاجُ تربية أَخْلَتْ قلبه من أحاسيس الإسلام، وأفرغَتْ عقلهُ من كل معرفةٍ تقُول بالوحي والشريعة، وغَرَّبَتْ كيانَه النفسيَّ، وثقفتْه، وعلمتْه.

إنه نتاج تربية أخرَى غير تربية تقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

---

(1) سورة التوبة، الآية: 47.

البديل الإسلامي

يستعمل كثير من الإسلاميين عبارة «البديل الإسلامي». وهو تعبير يفضي إلى مغالطة وسوء تفاهم. قد يكون مستعمِل العبارة لا يُلقي بالاً لمدلول الألفاظ. وتُتداوَل العبارة وتجري على الألسُن، وتجرُ معها حمولةً من الغموض.

إن كل بدَلٍ لا بد أن يكون له مع الـمُبْدَل منه علاقةُ مِثْلِيّة، أو علاقة اختلاف، أو علاقة تضاد. لغة السياسة تفي بالمقصود إن أخبرَتْ أن الحزب الفلانيَّ حل محَلّ الحزب العُلاني في الحكم. فالأحزاب السياسية أحزابٌ سياسية مَنْشَأً وهدفاً ووسيلةً مهما كان الانتماء الإديولوجي المعلن. والتعدديَّةُ الأثيرُ لديها، الضروري في نظامها الديمقراطي، إحلال بديل محل مُبدلٍ منه في تداوُلٍ على السلطة هو ضمان نجاةِ الديمقراطية وسلامتِها من الاستحواذ والاستبداد، ومن الثورية الفاشستية الشيوعية التي لم يبق من يعتنق ديانتها اعترافاً أو جهارا، ولو كانت الممارسة الفعلية لا يقبل فيها المحتلُّ أن يرى بديلا يُنحيه عن مقعده.

ليس مقصودي في هذه الفقرة أن أتعرض لنقطةٍ محوريّة في هموم الفضلاء الديمقراطيين إزاءَ نياتِ الإسلاميينَ إن وصلوا إلى الحكم عن طريق انتخابات حرة. ليس مقصودي أن أهدِّئَ مِن رَوْع أحد إن وصل الإسلاميون إلى الحكْم قبلَ نُضْج الوعي التاريخي في الأمة، وقبل تعبئة الأمة بتربية عميقةٍ تجعل المطْلبَ الشعبيَّ هو الإسلام والإسلام وحده، فسيبقى مكان للأحزاب من كل نوع ولون من ألوان الديمقراطية وقُزَحِ طَيْفِها. فلا مناص عندئذ من التبادُل الديمقراطي،

من حكومة تَنْزِع إلى إعادة القطار إلى سِكته الإسلامية، تعقُبُها حكومة تَقلب الاتجاه.

حداثة أو أصالة؟ شريعة أو لاييكية؟

متَى خرجنا نَحن والفضلاءُ الديمقراطيون من الدهليز المظلِم، دهليزِ الانفراد والاستبداد، فالناعورة الديمقراطية آلةُ الوقْتِ. الوُضوحُ والرؤية البعيدةُ مِحَكٌّ وبرهان. ما أظرفَ الديمقراطية لو كان ادعاؤها أن الأمر تنافُس شريف حُرّ بينَ برامجَ ومذاهبَ وأفكار! ما أظرفها لَو لم تكن سابقةُ الجزائر، ونكوص أدعياء الديمقراطية عن الديمقراطية!

وعن الوضوح والرؤية العميقة البعيدة نبحثُ حين نقول: إن البديلَ الإسلامي إن لم يكن على بيّنَةٍ من طبيعةِ المبدَل منه يوشِك أن يتزيّا بزَيه ملاطفة، ويتكلم بلغته مجاملة، ويصْطنِع أسلوبه مُداراةً، فلا يشعُر يوما إلا وقد تجنّس بجنسية الـمُبدل منه.

وبما أن هذا الـمُبْدَل منْه هو نفسُه بديلٌ، فالطريق مُمهَدَة من تنازُل لتنازُلٍ، ومن ملاطفة لملاطفة، نحو مِثليةٍ مُطَّرِدَةٍ لا يقِف فيها الحِوار بينَ سياسيين ملتحين وسياسيين بلا لحية إلا وقد نبذ الفريقان دين الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

الوضوح نلتمس لغته من علماء النحو والصرف. نقتبس المصطلح، ونترك النحاة للدفاع عن حِماهم الذي تغزوه لسانياتُ العصر. يرجع عالم النحو والصرف المسلم إلى القرآن، ويَصدُرُ عن القرآن، ويرجع اللساني الحَدَاثويّ إلى مرجعٍ لا يَرِدُ ولا يستقي إلا من علوم حديثة لا تعرف القرآن إلا نصا من النصوص، تشرِّحه

تشريحاً موضوعيا لا تُرَبّكهُ اعتبارات قداسية. وتلك معركةٌ أخرى لها رجالها.

عند النحوي في «باب البدل» تقسيم: بدَل الشيء من الشيء، وبدل الجزء من الكل، وبدل الاشْتِمال، وبدَل الغلط.

نربأ بأنفسنا وبالفضلاء العقلاء أن نكون أشياء كالبيادق على رقْعةِ الشطرنج. البيادقُ السياسية لا قيمة لها عند الله والناس حتى يكون الناس بديلا لها. ونربأ بأنفسنا وبالفضلاء العقلاء أن نكون أجزاءً من كلٍّ يُحتَمَلُ أننا منه ويُحتمَلُ. نحن والفضلاءُ العقلاءُ أهلُ لا إله إلا الله محمد رسول الله من هذه الأمة لا ريْبَ، ما لأحَدٍ الحَقُّ أن يكون وصِيّاً في الدين على أحد.

لو جلسنا جميعا على أرضية إسلامية، لا نجادل فيما هو معروف من الدين بالضرورة، لكان البدَلُ والمبدَلُ منه أبناءَ عُمُومةٍ يجري في عروقهم دمٌ مشترَك، إن لم يكونوا إخوةً في الإيمان وولاية الإيمان وبراءة الإيمان.

لكن هنالك بدَل الغلط. النحوي يُعْرِب الجملة «جاء زيدٌ عليٌّ». قصَد مجيءَ علي فسبقه لسانه وغَلِط واستدرَك.

الغلط في الجملة السياسية صنف من الناس مسخت التربية المضادة شخصيّتَهم مسْخاً، وطمستْ من عقولهم معاقِد التوحيد، وكَشَطتْ من نفوسِهم خامَة الفطرةِ، وأهالَتْ رُكام الثقافةِ المضادة للدين على خلاءٍ كان من الدين، أو على جَنينِ إسلام خُنِق في المهد، وقُتِل، وأُقْبِرَ.

يقول الصَّرْفيُّ في «باب الإبدال والإعلال»: الإبدالُ وضْعُ حرفٍ صحيح محل حرف صحيح، أو محلَّ حرفِ عِلّةٍ.

نريد الوضوح لكيلا نغلَط في أساسِ الدين فنكونَ نحن الحرف الغلطَ المعلول.

ما يكون لنا في الدين أن نشك في إسلام مسلِم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ولا يصدُر عنه قولٌ أو فعلٌ يناقض شهادته، مثلَ أن يَكتُبَ مُرافعةً يدافع فيها عن حقه في أن يكون مُلحدا.

مسلمون أيها الفضلاء؟ نعم، نعلم ذلك ونسمعه عن كثير منكم، بل نسمع فنعلم أن من الفاعلين في الأحزاب الوطنية مؤمنون ومؤمنات هُم مِلْحُ تلك الموائد، وهم فيها الفوائد.

لكنَّ سكوتَكم عن الحروف الغلَطِ، وعن حروف العلةِ الكامنةِ في صفوفِكم الصامِتَةِ، البارِزةِ الكاتبةِ الناطقةِ، هوَ موضوع سُؤالنا إن سَألنا، وموضوعُ عجَبنا كيف يتساكن مؤمنون ومؤمنات مع منافقين ومنافقات. منافقون ومنافقات لو أسَروها في أنفسهم. لكن جُرْأتهم على الدين تصرخُ: هاؤُم حروفَ العلة!

هؤلاء الحروفُ، بل هذه الحروف ما مَنشأها ومولدها. من رباها، وكيف رباها، ولأيةِ وظيفة رباها؟

هذه الحروفُ رحِمٌ تلِدُ ذريَّةً مِثلها، محاضنُ تفقِّسُ فِراخَ الكفر، مبيداتٌ تُبيدُ الفطرةَ في نسلها الفكري كما أبادَ فيهم أساتذتُهم من غيرنا الفطرة.

والله لا نكرهُ مُسلماً وإن اختلفنا معه في فروع السلوك. نكره أفعال المَسيء ونرجُو له التوبة، وندعو أنفسنا والمسلمين والمؤمنين إلى التوبة كما دعانا الله إليها. نحسِبُ التوبة، بل نؤمن ونوقن، أن التوبة قربة إلى الله تعالى. إن ظن بنَا من يشمئز من التوبة غير ذلك فهو وما يظن. نحب الإيمان والعمل الصالح بمعيار الإسلام أنّى كان. ونقدر

الأخلاق الجميلة والمروءات الحميدة. ونكره الإلحاد لأن الاستكانة إلى الإلحاد المقَنَّعِ والمكشوفِ، والسكوتَ عنه، وملاطفتَهُ ومحاورتَه، بليّةٌ في الدين نعوذ بالله منها.

الجمعاء والجدعاء

كيف دخل الإلحاد، ومن أين دخل، ومن أدخله على أمة كان الإيمان بالله ورسوله، وشهادة أن لا إله إلا الله حصنها الحصين؟

إنها شيطنة ماكرة، هجمة غادرة، جلْبَة ساحرة، تلك التي خالطت الأمة واختلست منها أبناءَها وبناتها.

شيطنة بشرية اختطفتْ البنين والبنات من حضن الأمومة الفطرية والأبوة الأصيلة، فكانت لهم الظئرَ الخائنةَ، والمرضعةَ المغتالة الغائلة.

شيطنة نقرأ وصفها بين سطور الحديث الشريف الذي أخرجه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**ما مِن مولود إلاّ يُولَد على الفطرة. فأبواه يهودانه، أو يُنصِّرانه أو يُمَجِّسانه. كما تُنْتَجُ البهيمةُ بهيمة جمعاء. هل تُحسون فيها من جدعاء؟**» ثم يقرأ أبو هريرة: ﴿**فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾[1].

في رواية لمسلم: «**فهل تجدون فيها من جدعاء؟ حتى تكونوا أنتُم تجدعونها**». وفي رواية أخرى لمسلم: «**ما من مولودٍ يولَدُ إلا وهو على المِلة**».

المولود في الإسلام والمولودة يولَدان على الفطرة التي فطر الله الناس عليها. وهي الاستعداد التّلقائيُّ الطَّوعيُّ الطبْعي لقَبول حقائق وجود

(1) سورة الروم، الآية: 30.

الله تعالى، وخالقيته، وألوهيته، وقَبول الدين وتكليف الدين، وكنفِ الشريعة، وتعظيم حُرَم الله، ومحبّةِ الله ومحبةِ رسوله، والتطلُّع خوفاً وطمَعا للقاء الله بعد الموتِ، وضرورةِ الاستقامة والعمل الصالح طلبا لما أعد الله في الجنة للمؤمنين والمؤمنات، وجزعا مِمّا خوّف الله به عبادَه من مصير الكافرين والمنافقين.

مثَّلَ لنا المعلّمُ المعصوم صلى الله عليه وسلم كمال استعداد المولود والمولودةِ في الأسرة المسلمة بالمثال الغليظِ لنَفهَمَ عنه حقيقةً لا ينبغي أن نشُكَّ فيها. مثَّل بالبهيمة تُولَد جَمعاءَ مجهّزَةً بكل الأعضاء، لا بتْرَ فيها إلا أن يكون فاعِلٌ مُعتَدٍ على كمالها الجسمي يقطع منها عضوا.

مثال غليظٌ لكيلا يحسِبَ الناس أن الفطرةَ كلمةٌ فارغة من المعنى. فكما أنّ أعضاء البهيمةِ حِسٌّ في حِسٍّ له وجودٌ نراه ونلمسهُ، كذلك سلامةُ الفِطرةِ وعطَبُها يكادانِ يَلْحَقان بالـمُحسِّ الملموس.

أسْوِياءُ الإيمان يتعجبون كيفَ يَعْمَى العقلُ في بعض الناس فيقبَلون ما يصْدِمُ البهيمةَ الفطريّةَ الصدمةَ النّكراء: يقبلون مقالة من زعم لهم أن الله خرافةٌ تلهّى بها الإنسان في مراحل طفولته، وأن الإنسانَ هو ربُّ هذه الطبيعة، وأن الدين اختراعُ طبقة اجتماعية تستعمله إديولوجيّةً قمعيَّةً، وأن الحياة لا معنى لها ولا هدف إلا أن يتمتع الإنسان بالحياة، وَمَلذاتِ الشباب، وزينةِ الجمال في المرأة، وفي الفنّ، وأن الموت نهاية طبيعيّة لكلِّ حي، وأن الكشوفات العلميَّة أزالت الستارَ عن المكنِزْمات البيولوجية فلم يبق هنالك أسْرار يختبل الدين في غموضاتها.

يتعجبُ أسوياء الإيمان من غباء الملحد والملحدة، ويدُلهم الحديث الشريف على أنّ الغباء في الدين، والرِّدّةَ في الدين، والإفلاس من الدين، صنعه صانع، أثرهُ مؤثِّرٌ، ربّاهُ مُرَبٍّ.

الأبوان الفطريان المسلمان يغذّيان في نفس الوليد والوليدةِ الاستعداد الأصلي الطيِّعَ، فينشأ الوليدُ وتنشأ الوليدةُ على الإيمان والإسلام. فإن كان الأبوان يهوديين أو نصرانيين أو مجوسيين حرّفا الفطرة وغذّيا في ذريتهما عقائد دينهما.

ويضَعنا الحديث الشريف على الجادة لنقيس ونُوسِّعَ ونفْهم أن جدْعَ البهيمة، وبتْر أطرافِها كنايَةٌ تُعَمَّمُ ليدخُل تحتها كلُّ تحريفٍ واستئصالٍ أشرف عليه أبوان في النسَب البدني، أو أبوةٌ وأمومةٌ مَدْرسيَّةٌ ثقافية.

ونوسِّعُ الكنايةَ لتشمَل العمليَّةَ الـمُدَبّرَةَ التي صنعت في مدارس الاستعمار جيلا مجدوعَ أطرافِ الدين، أو مُشَوَّهَ التصوُّر عن الدين. ولتشمل الكنايةُ التأثيرَ الخَفِيَّ التدبير الذي يُربِّي بوسائلِ الإعلام الطاغية الباغية، ويقطَعُ ويشوِّهُ. ولتشملَ الكنايةُ جنونَ من يجدُ راحةً في أن تُبتَرَ منه أعضاء الدين، كما تُجَنُّ بهيمةٌ تمشي على أربع أو اثنتيْن فتنهُش أطرافها، أو تَتَرَدّى من شاهِقٍ وتنتحر. بقرة مجنونة أَنت أيها الملحد؟

للعملية التربوية المدبَّرةِ وغيرِ المدَبّرَةِ، وللجنون الانتحاري الظاهر والخفِي لغة في عصرنا، وصورة، ووجه، وفَعَلَةٌ، وأجهزة.

عالميةُ التواصُل، وأجهزة التواصل، والمناسبات الثقافية للتواصل. وعالمية التجارة، وتواصلُ التجارة، لا أحد يستطيع العيش معزولا عن السوق العالمية.

تواصلٌ وتجارةٌ تقودهما من أنفٍ مجدوع مقطوعٍ سيدةُ العصر التكنولوجيا. لا أحد يستطيع إيقاف الزحف التكنولوجي، والـمُناخُ العام العالَمِيُّ تصنعُهُ التكنولوجيا. المناخ العام التجاري التواصلي التكنولوجي يسْرِقُ الدُّوَل ويَغتصب حريتها. مُناخٌ عَصبُه المالُ،

وعقله مهندِسٌ على مشارِفِ «الطريقِ السيّارِ للإعلام» ومادّتُه الدماغُ الذكي، وبضاعتُه في يد الاستثمارات القارونية التِي تُدِرُّ على الشركاتِ العملاقة عرقَ جبين الإنسان ودَمَ عروقه.

مُناخٌ عامٌّ جارِفٌ لا يقِفُ لك لحظةً حتى تُسَوِّي على مَهَلٍ تربيَةً تَرْفُو الأطراف المجدوعة، وتَأْسُو الجراحات في الدين، وتعيد إلى جسم الدين قابليَّة الحياة، وإرادةَ الحياة، وإلى قلب الدين نَبْض الحياة.

مُناخ عالمي تقطع معه الاتصالَ فتموتُ حالاً. اقتصاد اللحظة، وتواصل اللحظة، وحضارة اللحظة، ولحظة السرعة، كمَّاشاتٌ تأخذ بتلابيب الدّوَل، وتلابيب مَعاش الناس، وتقول: لا فَكاك! لا فكاك!

مسَحنا مسحا عابِراً الجوَّ السائِدَ الغامِر للفطرة والدِينَ والمولودين. ذلك لنتصوّر العمقَ الإيمانيَّ الضروريّةَ تربيةُ الوالِدينَ والمولودين عليه لنمانِع الجرْف المستمِرَّ، ونقاومَ الـمَدَّ الشيْطانيّ الذي يحْسِبُ العاقّونَ أنه الجبل الذي يعصمهم من الهلاك. وهو هو الهلاكُ بعينه، لو بقيت في الفِطر عينٌ تطْرِفُ، وأذنٌ تسمَعُ، وجارحة تتحَرَّك.

إنه القرآن كلمةُ الله الموحي بها إلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وإنها سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحيُ الثاني. وما وصفناه من مناخ جارف، وتليد من كيد الشيطان وطارِفٍ، إن هو إلاَّ بَلاءُ الله المنزّل، وسببُ سنتِه التي لا تُعطّل.

ما يُثَبِّتُ الإيمان في أصولِ الفطرة وينميه ويحفظه غيرُ تربيةٍ مُسْتأْنفَة للوالدين والمولودين، تربيةٍ قُرْآنيةٍ سنيَّةٍ عميقةٍ عمْق اليقين، عالية المطمح عُلوَّ هِمَمِ المحسنين.

وما هذه الصحوةُ الإسلامية المباركة إلا طلائِعُ العافية العائدةِ بإذْن الله إلى جسم الأمة. ما هي إن شاء الله إلا الرّائدُ الذي أجْدبَ أهله،

وقَحِلَتْ أرضُهم، وشَحّتْ غمائمهم، فذهب المذهب الصحيح إلى حيث الماء والخِصْبُ. ما هي إلا البشيرُ إن شاء الله إلى قوم أخرجوا من ديارهم وأموالهم بباطل الغالب الحضاري، وأتْلَفَ بعْضُ ذراريهم المفتاح، فيأتيهم البشير بجَلاَء أهل الباطل، حامِلاً معه المفتاح.

هذه الصحوة الإسلامية رائدةُ عودة من بلاء وجلاء، كما كان رُوَّاد التربية المضادة نذيري تدمير وخلاء.

الفصل الثالث

رواد التربية المضادة

- روّاد التربية المضادة
- أعجاز نخل خاوية
- الإلحاد والترف
- العقل، العقل!
- عقل، وعقل
- نداءُ الفطرة
- العقلانية
- الثلاثة الأثافي
- عقلانيةٌ تتَمطّى

روّاد التربية المضادة

عندما احتل المستعمرون الهولنديون والإسبان والفرنسيون والإنجليز بلاد المسلمين كان التخطيطُ لتوطيد حضورهم واستمرار وجودهم يعتمد فَصْمَ الشخصية المسلمة عن روابطها. وكان غزوُ العقول و«تمدينُها» لا يتخلّفُ عن الغزو العسكري إلا ريثما تُقْمَع إرادةُ المقاومة وانتفاضاتُ المقاومة بقوىً غيرِ مكافِئةٍ لقُوى الاستعمار.

ويُنشئ الاستعمارُ مدارسه لتكون معاقلَ لتكوين موظفين محليين ومساعدين. وينبَغ من أبناء المسلمين «نوابغ» يتشكلون بعْثاتٍ إلى أورُبا حيثُ يستقون من النبع ومن مَراشِف الحضارةِ ما يَنْقَعُ غُلّتَهُم التي أثارها تلَهُّفُ ذويهم على أن يرَوْا لذريَّتهم حُظوةً اجتماعية، ومكسَباً عِلْمِيّاً، ورقِيّاً إلى مراتِبَ إداريَّة تعطيهم من الجاه ما للمسيو أو المستر أو السنيور السيد.

نستمع لأحد روّاد الحركة الإسلامية المعاصرة، السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي، يصف لنا كيف يرجع الشباب المبعوث للاستقاء من النبع. قال السيد: «ويرجع أكثر هؤلاء الشباب المسلمين طليعةَ الفكر الغربيِّ، ودُعاة متحمّسين إلى تقليد الحضارة الغربية وقِيَمها ومفاهيمها وتصوراتها».

أين صُنِعَ هذا التحوُّلُ الاندماجِيُّ في شخصية المستعمر؟ وكيف رُبِّيَتْ الطلائع المتحمسة المقَلِّدَةُ الهائمةُ إعجابا بقيم الحضارة الغربية؟

بل كَيْف جُدِعَت فِطرةُ أبناءِ المسلمين وبناتِهم، فانتقلوا، بل نُقِلوا، من كَيْفٍ إلى كَيْفٍ، ومن معنىً إلى معنىً، ومن ثقةٍ ورثوها عن الأم والأب بالدين إلى ثقة عمياء بما يلقنه الأستاذ المعلم

الغربي، وبما ينْهمر على العقول الغضَّة من وَابل الغزو الفكري، رشحاتٍ في المدرسة الثانوية المحلية، ثُمَّ زَخَّاتٍ في جامعات أوربَّا وغطساتٍ وغرقاتٍ؟

يخبرُنا عن المسيرةِ الهائمة الـمُهَيَّمَةِ واحدٌ من بَني بَجْدَةِ الاستعمارِ الاستحمار، هو اللورد كرومر الحاكمِ الإنجليزيِّ في مصر، ومُوَطِّدِ دعائم الاستعمار الإنجليزي في مصر.

يقدمُ لنا شهادةَ اللوردِ شيخُ الدعوةِ الرشيدُ السيد أبو الحسن فيقول:

«إن اللورد كرومر الذي كان أكبرَ رَائد إلى تغريب مِصر، والعالم العربي بالتتبُّع، قد صور بنفسه الجيل المصريَّ الجديد، الذي نشأ في أحضان التعليم الجديد وآمن بسيادة الغرب وفضل حضارته ومبادئه تصويراً صادقا دقيقا، قد يُنسبُ إلى المبالغة والقسوة والتشاؤم إذا صدر عن قلم مفكر إسلامي، أو عالمٍ مسلمٍ متحفِّظٍ. ولكن صدورَه عن قلم رجُل كان من أكبر دعاة التَّغريب في الشرق يجردُه من كل مبالغة وتهويل، ويضفي عليه قيمةً علمية كبيرةً، ويجعله وثيقة تاريخية تستحق كل اعتبار وكل اهتمام»[1].

وينقل لنا السيد الندوي عن مذكرات كرومر المطبوعة سنة 1908.

كتب كرومر في مذكراته: «إن المجتمع المصريّ في مراحل الانتقال والتطوُّرِ السريع. وكانت نتيجته الطبيعية أن وُجدَت جماعة من أفرادٍ هم «مسلمون» ولكنهم متجردون عن العقيدة الإسلامية والخصائص الإسلامية. وإن كانوا «غربيين» فإنهم لا يحملون القوة المعنوية، والثقة بأنفسهم».

(1) كتاب الصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية، ص: 106.

قلت: القوة المعنوية التي بعثت البريطاني من جزيرته ليغزُوَ الأُمم ويستعمر نصف الكرة الأرضية وثلاثة أرباع محيطاتها، هي ثقتُه بنفسه، وبرسالته في الوجود، وبأصالته وتمكنه من لُغته وفكره وتاريخه. وهي قوة انتُزِعت من الـمُغَرَّبِ الدخيلِ المتقَمِّصِ شخصية مُعارةً، أو المقمَّصِ رغْمَ أنفِهِ، وجَدْعَ أنفه.

كتب كرومر: «إن المصريَّ الذي خضع للتأثير الغربي، فإنه وإن كان يحمل الاسم الإسلامي، لكنه في الحقيقة مُلحدٌ وارتيابي».

قال: «والفجوة بينه وبين عالِمٍ أزهريٍّ لا تقل عن الفجوة بين عالم أزهري وبين أوربي.

«إن الحقيقة أن الشاب المصريَّ الذي قد دخل في طاحون التعليم الغربي، ومرَّ بعملية الطحن يفقد إسلاميته، أو على الأقلّ أقوى عناصرها، وأفضلَ أجزائها. إنه يتجرد عن عقيدة دينه الأساسيَّةِ. إنه لا يعود يؤمن بأنه لا يزال أمامَ ربّه، وأنه تُراقبه عين لا تخفى عليها خافية، وأنه سيحاسب أمامه يوما من الأيام».

قلت: سبحان الله! ألا فاعجبوا من نصرانِيٍّ -لعله كان كذلك- يعيب على أبناء المسلمين تجردَهم من عقيدتهم، ويشير إلى مواطن القوة التي أضاعوها، مع أنهُ هو مديرُ المطحنة التي فصمت الشخصية، وجدعت فطرة البهيمة، وغزت العقيدة الإسلامية فوْرَةً بعد فورةٍ، وانسيابا كما ينساب السُّم في دماء اللديغ! أليْس قد حصل الـمُراد، وأدت المطحنة وظيفتها خيرَ أداء كما يحب المستحمرون؟ فلِمَ يزيدُ المدير الطاحوني السخريّة ضِغْثاً على إبّالَة!

قال كرومر: «ولكنه (يعني المغرّبَ الملحدَ) رغم ذلك كلِّه يستفيد من مظاهر الحياة الإسلامية التي تتسامح مع مواضِع ضَعفه الخُلُقيِّ ولا تتصادم معها، والتي تتفق مع مصلحته في مجالات الحياة».

قلت: تلخص الاستفادة من المظاهر كلمةٌ واحدة: النفاق.

ويزيدنا اللورد الرائدُ معرفة بصَنيعة يده فيقول: «إن المصريَّ المتحرِّرَ يسبق الأوربي المتحرّرَ في التَّنوُّر، وحريّةِ الفكر، والحيْرَة. إنه يجد نفسه في بحر هائج لا يجد فيه سُكاناً ولا رُبّاناً لسفينته. فلا ماضِيه يضبطه، ولا حاضرُه يفرض عليه الحواجز الخُلُقيةَ.

«إنه يشاهد أن الجمهور من مواطنيه يعتقدون أن الدين يعارض «الإصلاحات» التي يراها جديرة كلَّ الجدارة بالنفاذ.

«إن ذلك يثيرُ فيه السَّخَط والكراهية الشديدة للدين الذي يؤدّي إلى مثل هذه النتيجة، فيدوسه بقدمه، وينبِذه بالعَراءِ».

قلت: إن «الـمُتنوِّرَ» «بأنوار» العقلانية المتحررة من كل دين يصطدم بالذهنية الرعَويَّة الخاضعةِ للحاكم، النائمة عن حقها، الساكتةِ عنه، فيَزْدَري أهاليَهُ الخامدين وقد جاء مملوءاً بمفاخر الديمقراطية التي شاهدَها عن كثَب لا عن كُتُبٍ.

ويدوسُ الدين تحت قدمَيه، لأن الدينَ هو ما تعلَّم عنْهُ في مدارس الاستشراق. يعود فيرى على أرض الواقِع صحة مَا يصف المراقبون من انحطاط المسلمين وتدَنِّي عقليتهم، وسخافة خرافاتٍ شعبية يتلَهَّى بها، ويُلهَّى بها، قطيعٌ أخرس.

ها هي المطحنة «التنويرية» أدت شطْر وظيفتها، وهو تنفير المبعوثِ المبثوثِ من جذوره وأصوله. الشطر الثاني من الوظيفة الطاحونية هو الانسياق الكلي مع التيارِ الحي اللاّمعِ القويِّ للحضارة الغربية وقيمها ومبادئها.

نفَر من ماضي قومه وحاضِرهم وقَطيعيتِهم الموروثة، وارتَمَى في أحضان قوم آخرينَ يَحْفِر لنفسه بين جدرانهم الثقافية نسباً. لو استطاع أن يستبدل بجِلدِه جلْدَهم لفعل.

فرَّ من قطيعيةٍ وانحطاطٍ عُذرُهُما جهلُ العامَّة، وطغيانُ الحاكم البَلَدِيِّ، وإجهاز المستعْمِر على أسباب الـمَنَعة والقوة. وسارَ مسُوقاً مغفَلاً في قطيع مقلدٍ جريمتُه الغبِيَّةُ أنهُ متعلمٌ كجاهلٍ، ومسلمٌ ككافرٍ، وحُرٌّ يَرْسُفُ في أغلالِ عبوديَّةٍ هُوَ أعطى بمقتضاها مقادةَ نفسه لأشباه نفسه وأنسباءِ نفسه، ووطني يَبْني بلاده في زعمه، وهو ذنبُ استعمار يخرِّب مِلَّة أمته.

أعجاز نخل خاوية

عادٌ قومُ هود عليه السلام كذبوا رسول الله إليهم، فأرسل الله عليهم ريحاً صَرْصَراً عقيماً أهلكتهم. فيصفهم القرآن الكريم ﴿**كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ**﴾[1]، وفي آية أخرى: ﴿**كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ**﴾[2].

أمّا العادون في زماننا على دين أمتهم، المكذبون بالدين، فالذين قعَّرُوهم واستأصلوا شَأفة الإيمان من قلوبهم وعقولهم، نفخوا فيهم روح النفاق، فهم يَحيَوْن بها بين ظُهْرَانَيْنا.

نستمر مع اللورد الإنجليزي في وصفه ضحاياه، قال: «إنه (المصري الملحد) إذا قطع الصِّلةَ عن دينه وتعاليمه، فلا يحْجُزه عن التورُّط في المزَالِق الخلُقيةِ إلا مصلحتُه الشخصيةُ السافرةُ، مع أن الأوربِّيَّ الذي يحرص على تقليده لا يزال متقيدا بشرائع أمته الخُلُقيةِ».

قال: «إن المجتمع الذي يتكون من مثل هؤلاء الأفراد المتحررين في مصر لا يُنكِر على الكذب والخديعة إنكارا شديدا، ولا يمنعه من ارتكاب الرذائل خوفُ سوءِ الأُحدوثة في المجتمع. إنه إذا رفض دين آبائه فإنه لا يُلقي عليه نَظرةً عابرةً».

---

(1) سورة الحاقة، الآية: 7.

(2) سورة القمر، الآية: 20.

قال: «إنه لا يرفُضه فحسبُ، بل يرفُسُه ويركُله برجله. إنه يتَرامَى في أحضان الحضارة الغربية، متعامِيا عن كل حقيقة. ويغيبُ عنه أن الجانِبَ الزاهِرَ البرَّاقَ للحضارة الغربية ليس إلا الجانِب الخارجيّ من هذه الحضارة».

قال: «إن الحقيقة أن القوة الخُلُقِيَّة التي تنبَع من التعاليم المسيحية هي التي تضبط سفينة الحضارة الغربية، وتمنعها من الاضطراب الزائد في البحر الهائج».

قلت: اللورد إنجليزي ينتمي إلى أمة رئيسُ دولتها أورئيستها هو رئيس كنيسَتِها. انفردت أمُّنا فرنسا بالعِداء الكامِلِ لكلِّ دين. وقد كتب اللورد مذكراته منذ نحو تسعين سنة، كانت الديانة النصرانية يومَها لا تزالُ «تضبط سفينة الحضارة الغربية». أما الآن وقد تحرر الغربُ -أو كاد- حتى من ذكرى الدين، فالناكصون عن دين آبائهم وأمهاتهم من بني جلدتنا يَأْوونَ إلى وَكْرِ الإلحادِ معشِّشةً فيه الرذائلُ الخلقيَّة.

لم يكن اللورد ليُعَيِّرَ الناكصين ويَصِمَهم بأنهم مزيفُون لو كتَب اليومَ. اليومَ لا تكاد تكون للمعيَارِ الخُلُقِيِّ الكنسي قيمةٌ في عُقْرِ دار النصرانية. ضَعُف الطالبُ والمطلوبُ، وخَسِئَ في الحَمْأَة الوارد والمَوْرودُ عليه.

اللورد يتحدث عن طَحينِ مدرسته وعن القوة الباطنية لنصرانيته كما عاش النصرانيةَ وتوهّمَ القوةَ. قال: «ولما كانت هذه القوة قوّةً باطنيَّةً، فإنها تتوارَى في غالب الأحيان عن أنظار المتشبهين الزائفين بأبنائها الحقيقيين. إنه يَحلف ويقول: إنه نبذ التعصب الدينيّ، وإنه يحتقر تعاليم آبائه».

قال: «إنه يقول لزميله الأوربي: إننا أصبحنا نملك الخط الحديدي، وقد أسسنا في بلادِنا مدارسَ عصريةً، وأنشأنا الجرائد والمحاكم، ومظاهر الحياة الحديثة والمدنيةِ العصريَةِ التي تتكَونُ منها حضارتُكم. فكيف نُعتَبَرُ متخلفين عنكم وأحط شأناً منكم؟»

قال: «إنه يجْهل أنه لا يستطيع أن يُجاريَ زميله الغربيّ ويكونَ نِدّاً له. فإن المسيحيَّ المتحضِّرَ، وإن لم يكن راسخا في دينه، ولكنه إلى حد كبيرٍ نِتاج للمسيحية».

مِن أعْلَى ينظر اللورد الحاكمُ مديرُ المدرسةِ التغريبيةِ إلى هذه الميوعات المتشبّهةِ المتسلِّقة على جدران حضارة لها أصالتها ودينُها. ينظر إليه كائناً لَزِجاً يتمسَّحُ بالمظاهر ويتشبه. مَلَك الخط الحديديَّ، وبنى المدارسَ العصرية، والجرائد والمحاكم والهياكل على غيرِ أساسٍ من قِيمِ دينه وأصالة قومه.

تلك نظرةُ مستعمِر كان يُقدر الحشَراتِ المتشبهةَ لو كانت في هذه بقيةٌ من وفاءٍ لمعتقداتِ آبائها وأمهاتها، وبقيةٌ من عزّةٍ بذاتها، لا ترفُس دين الآباء، ولا تدوسُه جهلا وغباءً وسَطْحِيَّةَ شخصية.

وننظر نحن من زمانِنا، ومُلابسات عصرنا، ومُناخ عالمنا، وتطلعاتِنا لمستقبل تعتز فيه أجيالُنا الصاعدة بدين الإسلام باعتباره الحقَّ المنَزَّل من عند الله، وباعتبار المجتمع التقليديِّ المنحَطِّ المنهزمِ أمام قُوَى الاستعمار أقربَ قُرْباً وأوثق صِلة بالعقيدة الإسلامية من جيلٍ انقطع، وانقمع، وضاع، وزاغ.

خِيارُ الجيلِ المسلمِ التقليديِّ هم الذين نهضوا لمقاومة الاستعمارِ لا المتشبهون الزائغون.

مِنهمْ مَن أعرض إعراضاً مبدئياً عن ما أتى به الاستعمارُ من بَهْرَج الحضارة، فقاوم المحتل من مُرتكَزِ إيمانه، وإيمانِه فقط. ومنهم مَن ابْتُعث إلى جامعات أوربَّا مُحَصَّناً بفطرةٍ سليمةٍ قويةٍ، وشَخصيّةٍ لا يُقَعْقَعُ لها بشنانِ البهرجِ الحضاري، فتعلم النافِعَ من معارفِ أوربا. ولَـمّا لَم يكن سَطحيّاً إمَّعَةً تعمَّق في دراسةِ الحضارةِ الغربيّةِ، فأبْصَرَ ما وراءَ ستار المظاهر، وكرِه، وتَقَذّر، وحاكَمَ الغرب إلى أصالتِه وقوته وحقِّ دينِه، لَم يحكُم على دين آبائه بِمعيارِ من يزدريه ويحتقره لتفاهته.

محمد إقبال المفكر المسلم الهندي، الشاعر الفحل، درس في ألمانيا دراسات طويلة. وعاد إلى وطنه ليُحذِّر المسلمين من ماديّة الغرب، وتفاهة حضارته، وقسوة حضارته، وخواءَ حضارته من المعنى. وكانت مؤلفاتُه السياسيّةُ أهَمَّ مُحرِّك في اتجاهِ تأسيس دولة باكستان، انفصالا عن الهند سنة 1948 بتاريخ النصارى.

كتب إقبال رحمه الله «إيَّاك والحضارةَ اللادينيةَ التي هي في صراعٍ دائمٍ مع أهل الحق. إن هذه الفتانةَ تَجْلِبُ فتنا وتُعيدُ اللاتَ والعُزّى إلى الحَرَم. إن القلبَ يعمَى بتأثير سحرها. وإن الروح تموت عَطشا في سَرَابها. إنها تقضي على لَوْعة القلب. بل تنزِعُ القلب من القالَبِ. إنها لِصٌّ قد تمَرَّن على اللصوصيّةِ، فيُغيرُ نهاراً وجهاراً. وإنها تَدَع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له». (1)

أمْثال إقبال من المسلمين الصادقين الأقوياء رصدهم الاستعمارُ وعرفَهم أعداءً لمشروعه لا يلينون. فلما انقلبت أوضاع العالم بعد الحرب العالمية الثانية، وحانَ حيْنُ الاستعمار، اختارَ الساسَةُ الأوربيّونَ «معتدلين» من الوطنيين المغَرّبين جلسوا معهم على مائدة المفاوضات.

(1) الكتاب المذكور للندوي، ص: 85.

وهكذا فكّر وحذّر وعلَّم إقبال، وتفاوَضَ محمد علي جِناح على دولة باكستانية قومية لاييكية. وناضل في تونس صالح بن يوسف المؤمن، وقطف الثِّمارَ الطاغوتُ بورقيبة. وفي الجزائر هبّ شعبٌ مُسلمٌ يدافع عن إسلامه، وتفاوضَ في إِفْيانَ مُغَرَّبونَ على دولةٍ جزائريةٍ حرةٍ، سرعان ما قادها المتفاوضون إلى اشتراكية تألقَتْ في دُخان الثورية الاشتراكية العالمية سنواتٍ، ثم هَوَتْ إلى سحيقِ الحرب الأهلية.

وفي المغرب أسس العلماءُ الحركةَ الوطنيةَ وعلموا ونظموا، وقاوَمَ المقاومون وجيش التحرير. وتفاوض في إِكْسْ لِبَانْ «معتدلون» مغربون وآخرون ملكيون، وآخرون فرنسيون بجلباب وسلهام. ثم جَنَى ثَمرةَ الاستقلال، وغرس في البلاد شجرة الزقوم اللاييكية الفاسدةَ المفسدةَ رئيسُ المغربين، المندمج في الغرب 100 في المائة بشهادته على نفسه، الملِك على المغرب إلى حين، الحسن الثاني. مسلم كمحايِد، مجتهد في الدين بلا فقه في الدين، حاكم بأمره يزعم أنه يحكم بالدين.

لا غرْوَ أن يَتمسَّك بإسلامه، وعزته بدينه، ووفائه لدينه وآخرته أمثالُ ابن عبد الكريم الخطابي البطلِ، وأمثالُ علالٍ الفاسيِّ، والفقيه محمد المختار السوسي، ومحمد إبراهيم الكتاني، وعبد العزيز بن إدريس وسائر علماء الوطنية رحمهم الله جميعا. فأولئك خاضوا المعارك السياسية بشخصيات مكتملة راسخةِ القَدم في الإسلام، مِلاكُ شخصيتهم روحُ القرويّين: الإيمان، والإيمان وحده.

أدْعَى للإعجابِ والتقدير من تعرضَ للقنبلة الثقافية الغربية أثناء دراسته في أوربا سنينَ طويلَةً، فَمَا زاده التَعمّقُ في الثقافة الغربية إلا تشبثا بدينه. فينا، والحمد لله، نُظراءُ لمحمد إقبال. ما هذه الفراشات التي احتَرقت أجنحة دينها في لَهَب الغزو التغريبي، وانسَحقَتْ مادَّتها

فِي مِطحنته، إلا شواذٌّ رَفَعَ من شأنهم قبل الاستقلال وبعده رَافِعٌ. خَسِئَ الرافع والمرفوع!

في هذه الأمة الوَلُودِ والحمد لله -كانوا ولا يزالون- أمثالُ محمد بنِ الحسنِ الوزانيِّ رئيس حزب الشورى والاستقلالِ رحمه الله. اسمُ الحزب عنوان على نيّة المؤسِّسِ. ثم غَيَّرَ الحزب اسْمَه -تحت أي تأثيرٍ؟- ليصبح حزبا دسْتُوريّاً ديمقراطيا. درسٌ آخر في تطوُّرِ السياسة وتطويرِها الناسَ من صفاء النية وإسلامية البرنامج إلى دخول جُحْرِ الضَّبِّ الخَرِبِ. إن انخرطت في المصطلَح وتبنيته عنوانا ساقك إلى مَساق.

صافيةً كانت مقاصد الوزاني رحمه الله، إسلامية، شورية. وجاء الاستقلال فبرهن بمواقفه الشجاعة، ونظافة يده، ونصاعة فِكره، وتَأَصُّلِ إيمانه، عن مَعدنٍ نفيس.

نقْرأ الصفاءَ والوفاء فيما كتبه في جريدة «الدستور» العدد 4 يوم الجمعة 23 نونبر 1962 تحت عنوان «الحقيقة، كل الحقيقة». توّجَ مقاله بآية قرآنية ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ**﴾[1].

قال في مقالته ينتقد الدستور الملكيَّ لسنة 1962 بتاريخ النصارى: «أمَّا أن المملكة المغربيَّةَ دولةٌ إسلامية فلسنا ندري ماذا يُقْصَدُ به. هل إنّ المملكة بصفتها دولةً إسلاميةً ستلتزم في عهد الدستور اتباع تعاليم الإسلام، وتطبيقَ أحكامه، واتخاذَ أنظمته، حتى تكونَ دولتُنا الإسلامية دولةَ القرآن والسنة قولا وفعلا وشرعا ونظاما وحكما وسياسة. وبهذا يصبح للمملَكَةِ مفهوم ومدلول إسْلاميٌّ حقيقيٌّ. فتكون بهذا دولة إسلامية هي الأولى من نوعها بعد دولة الخلفاء الراشدين».

(1) سورة يونس، الآية: 32.

قال رحمه الله: «فإذا كان هذا فإننا نحبذ، ونصفق، ونطْرَبُ، ونَفْخَرُ، ونفاخر. وإذا كان القصد من ذكر عبارة الدولة الإسلامية غيْرَ ذلك مما هو معهود في دساتير أقطار إسلامية أخرى، فإنّ وصْف المملكة بذلك الوصْف سيقوم في دستورها حُجّة على الدولة بقدر ما لا تتقيد بالإسلام في تشريعها وحكمها وسياستها».

انتهى كلامه رحمه الله. ولم ينته التلاعبُ الملَكي بالدستور وشعارات الإسلام بعد ثلاثٍ وعشرين سنة من كتابة هذه العباراتِ الطافِحَةِ إيمانا وشوقاً إلى ما يشبه الخلافة الراشدة. وهيهات يجيءُ من الحكم الوِراثِيّ غيرُ النفاق الوراثِيِّ.

الإلحاد والترف

سَلِم الوزاني وإقبال وأضرابهما من صحيحي البِنية الفِطرية، وهلك هالكون وهالكاتٌ أصابتهم أعطاب نفسية أشرنا إلى بعضها، وسَخِرَ من المصابين مُدير الطاحون الـمُغَرِّب. وأصابتهم أعطابٌ عقلية نشير هنا إلى مآتيها ونتائجها.

لو كان الاستخفاف بالدين نزوةً وحماقةَ مراهقين يرجعون بعد انبهار، وينجبرون بعد انكسار، لقلنا: رجعت المياه إلى مجاريها بعد فيضان. لكنّ آلة التغريب في المدرسة والجامِعة تؤَيِّدُ بالإقناع الفكريِّ ما يقتنصُه الانبهارُ النفسي، فإذا الحقُّ ما يفكّر الغرب، وما يعتقد، وما يعلم.

نقرأ هذا الاقتناعَ عندَ رائدٍ مصريٍّ للتغريب في مطلَع هذا القَرن العشرين من تاريخ النصارى، وعند تلميذٍ مُغَرَّبٍ في أواخر هذا القَرن.

كتب طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» منذ بضع وستين سنة ما يلي: «نحن نُكَوِّن أبناءنا في مدارسنا الأوّلية والثانوية والعالية تكوينا أوربيا لا تشوبُه شائبة».

ويكتب الأعمى البصيرة: «إننا في هذا العصر الحديث نريد أن نتصل بأوربا اتصالا يزداد قوة من يوم إلى يوم حتى نصبح جزءا منها لفظا ومعنى وحقيقةً وشكلا».

ويكتب: «أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكونَ لهم شركاء في الحضارة، خيرِها وشرِّها، حُلوِها ومُرِّها، وما يُحَبُّ منها وما يُكرهُ، وما يُحمد منها وما يُعاب».

وكتب: «وأن نُشعِر الأوربِّيَّ بأننا نرى الأشياء كما يراها، ونُقَوم الأشياء كما يُقَوِّمُها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها».

قلت: قام أبناء البلد يرفُسون دينَهم، ويمارسون إدارة المطحنة نيابة عن الروّادِ الأجانبِ جنسيَّةً، الأساتذةِ المعلمين الأصفياء.

مارسَ المِهنَة طه حسين عميدَ جامعةٍ وزيرَ تعليم. وأعطتْ برامجهُ أكْلَها. جيلا وأجيالا تفكر كما يفكر الأوربيون، وترى كما يرون، وتقوِّم الأشياء كما يقومون، وتحكم كما يحكمون. وقد أَلِف الناسُ الحديثَ الأَدبيَّ الـمُرَبِّيَ عن الحضارة والحداثة واللحاق بالركب الأوربي، فاحلَوْلَى ما كان مُرّاً مَذَاقُه، وحُمِدَ ما كان عيبا. فإذا الحَضارة الأوربية لُبٌّ لا قِشر فيه، وخيرٌ لا شرّ معه.

كانت مُسْكةٌ من إسلام خالطت قلبَ الصبيِّ الأعمى طه حسين الذي حفظ القرآن صبيا، فهي كانت من زاويتها الهَضِيمةِ توبِّخُ طه حسيناً الدكتور وتُبصِّره بالمعايب والشرور. ربَما كان ذلك كذلك، فقد عاد بِأَخَرَةٍ يكتب عن الإسلام كتابةً معتَدِلةً.

وهيهات! فتشكيكه الفلسفيُّ الذي بثه مُنذ كتابه عن الشعر الجاهلي سَرَى واعترى.

بعد ستين سنة نجدُ خلفاء طه وخرِّيجي مدرسته أكثر جُرأةً، وأشَدَّ نِكايةً على الدين. تخرج من مدرسة طه حسين، ولطفي السيد، وسلامة موسى وحزبِهم الـمُخَرِّبِ أجيال اندسَّت في الجامعات، وحملت الرسالة الإلحادية، فهي اليوْمَ في الشرق عاليةُ الصوتِ، وفي المغرب لا تزال مندسَّةً تنفُث. ويَجْرُؤُ مكانَها على الدين طلَبَةُ الإلحاد في الجامعات.

تقْشَعِرُّ جلُودُ الوَرق، وتشمئِزُّ من مصافحة أفكارِ الملحدينَ مثلِ غالي شكري، وفرج فودة، ونصر حامد أبي زيد.

تسكت الدولة المصرية، الديمقراطية جدا، الدكتاتورية بُدّاً، عن كُفريات الملحدين. ويَعجز الأزهر وعلماؤه الـمَوْهوقُونَ في حبائل الدولة، فتَسقط فتوى هنا وفتوى ها هناكَ رصاصاً فارغاً. وتقومُ قائمة اللائيكيين اللادينيين احتجاجا على القضاء المصري الذي طلق من نصر حامد أبي زيد زوجه، حُكْماً عليه بأنه مرتد ولا يجوز لكافر أن يتزوج مسلمة.

والجَوْقَة العالَمِية المؤيدة لحقوق الإنسان تدافع عن حق أستاذ الجامعة أبي زيد في أن ينالَ الترقيات، وعن حقه في أن يُعلم الإلحادَ مُعقْلَناً مُتقناً.

أبو زيد أستاذ في جامعة القاهرة، يدرِّس القرآن والسنة النبوية. ويَكتُب فيما يكتُب «إن ما جاء في القرآن الكريم عن الله، وعن الملائكة، والعرش، والشياطين، ومشاهد يوْم القيامة، هي من الأساطير التي يجب أن تتجاوزها أفهامنا في العصر الحديث، لأنها نزلَت في عصر يحتاج إلى مثل هذا السياق اللغَويِّ لكي يفهمه الناس».

انتهت كلمة أبي زيد الذي يعتبر زندقته السافِرةَ اجتهادا، إن أصاب فيه فله أجران، وإن أخطأ فله أجر واحد.

هل بلَغَ مشروع اللورد كرومر، وبناءُ لطفي السيد وطه حسين وسلامة موسى غايته؟ هل أصبح أساتذة الجامعات، ومدرسو القرآن في الجامعات يفكرون كما يفكر الأوربيون؟

كلا. فجُرْأتهم على الدين تجاوزت كل مُتصَوَّر.

تفَرْنَج المثقفونَ تَفَرْنُجاً عقلانيا، وتفرنجت الطبقات الثريّة تفرنجا حياتيا. أولئك استعاروا أنماط التفكير، ومادية التفكير، وهؤلاء استعاروا أنماط الحياة ووسائل التنعُّم واللذات. سبقتنا مِصرُ في المضمارين، والموجة لا تزال تمتد، والأَثَر لا يزال يتعمق. والعاهةُ أعطاب عقلية جرثومتها تنتقل من مُصابٍ لسليم في الجامعات، وأعطابٌ نفسية تغزونا فَواعلها على أمواج الأثير ومن خلال الهوائيات المقعَّرَةِ أفلاما خليعةً لقيطةً، سبقتنا إلى الخلاعةِ مصرُ كما سبقتنا إلى الإلحادِ مصر.

منذ ستين سنة كتب طه حسين في كتابه «مستقبل الثقافة في مصر» عن الطبقة الـمُترَفةِ، طبقةِ الباشاوات والبهوات ما يلي: «حياتنا المادية أوربية خالصة في الطبقاتِ الراقية. وهي في الطبقات الأخرى تختلف قُرْباً وبُعداً من الحياة الأوربية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات وحظوتهم من الثروة وسَعة ذاتِ اليد. ومعنى هذا أن الـمَثَل للمصري في حياته المادية إنما هو المثَلُ الأعلى للأروبيِّ في حياته المادية».

قلت: هل الترفُ الحياتيّ الطبقي والترف الإلحادي قرينان لا يفترقان؟ ما يجمَعُ أمراءَ الإلحادِ أساتذةَ الجامعاتِ وسوقَةَ الإلحاد في التكَوُّناتِ المناضلة الملحدة؟

كانت رابطةُ الإديولوجيَّة اليسارية الثورية إطارا جامعا فلما انهارت الإديولوجيات انحاز أَمَراءُ الإديولوجية إلى الدولة -الملحدُ منهم والمعطوبُ والسليم-يمْتَحون من مائِها، وعلى قارِعة البطالة والضياع بْرولتاريا من الطلبة المغفلين عن دينهم.

نرجع إن شاء الله في فقرة مقبلة لنستمع لمؤسس حزب الشورى والاستقلال الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني رحمه الله يحدثُنا عن «الاستعمار الجديد» الذي اكتسح البلادَ والعبادَ، استعمارٍ تحالَف فيه مُترفو المال ومتْرَفُو العقل.

العقل، العقل!

أَنَّبَنِي صاحبي الأمازيغي العزيز[1]، واتهمني بأنني لَا أعيُر العقلَ اهتماما.

استشهدت، أخي، بكلمةِ الإمام الغزالي: «العقل منبع العلم ومطلَعُه وأساسه». وتأسفت لجمود الفقهاء ودكتاتوريتهم في زماننا، وهم القاصرون العاجزون عن استعمال «منبع العلم». واعترفْت، كما يعترف كل مؤمن بالله مثلِك أن من وراء النواميس الكونية «الدقيقة الـمُعقّدة المتداخِلة المتشابكة» خالقاً عظيماً يسجد العقل أمام عظَمة خلقه، ثم ينصرف العقل إلى شأنه.

إنه، يا أخي، إذا انصرف العقل بعد سجدته فإنما ينصرف إلى حيرةٍ لا تنتهي إن لم يستوهب الهداية من الخالق، وإن لم يسمع بالسماع القلبي الفطري كلام الله ينبئه عن مآله بعد الموت وعن وجوده.

(1) انظر كتاب «حوار مع صديق أمازيغي».

إن العقل إذا انصرف بعد سجدته ليدبِّر أمره في هذا الكون يظَلُّ كالأعْمَى الدائر حول نفسه، لا وِجْهةَ له فيتقدمَ إليها، ولا هاديَ له يبصِّره بنفسه وطريقه.

وأخبرتني أن تصرُّمَ العمر زادك إيمانا بالله. وكذلك يكون المؤمن الذي لم تنطمس فيه عينُ الفطرة، ولم تَذْرُ رياح الفتنة ما تَطحَنُهُ التربية المضادة مِن ذات النفوسِ السطحية والعقول الهبائية.

أريد هنا أن أنْقُلَ بعض مقالات الإمام الغزالي لأنظُر وتَنْظُر عن أي عقل يتكلم مؤَلّفُ «إحياء علوم الدين».

قال رحمه الله: «الغاية معرفةُ الله. والعقل والذكاء وسيلتها». وقال: «أشرف أنواع العِلم العلـمُ بالله وصفاته وأفعاله. وفيه كمال الإنسان، وفي كماله سعادتُه وصلاحُه بجوار الجلالِ والكمال».

وقال رحمه الله: «معرفة الله وصفاته وأفعاله لا تحصلُ من علم الكلام. بل يكاد يكون حجابا ومانعا عنها».

وقال رحمه الله: «أساس السعادات كلِّها العقل والكياسة والذكاء. وصِحةُ غريزة العقل نعمة من الله في أصل الفطرة».

أقول: تعال أخي نقف مَلِيا مع هذا العقلِ الكبير لحظة لكيلا تختلط فيما بيننا وبينه المفاهيم فنسقط في سُوءِ تفاهُم.

إن الغزالي وأمثاله من علماء المسلمين كلما تحدثوا عن العقل فللعقل عندهم معنىً قُرآني. خلفيتُهم قرآنية. العقل عندهم تعقُّل فطريٌّ سجد أمام عظمة الخالق، ثم سَمِع الوحيَ الهاديَ، وامتثل، وسَعَى جُهده لتحصيل سعادته الأخروية. العقل عندهم آلة نفيسة ونعمة من الله الوهاب عظيمةٌ وظيفتُها السَّعادية الدنيوية والأخروية لا تُؤديها كاملة، ولا جزئيةً، إن لَمَ تتلـمَذ للوحي.

العقل المتفكر في آياتِ الله يهتدي بما معه من فطرة لَمْ تُجْدعْ إلى وجوب خالقٍ، ووجود خالق. هذا القدْرُ من الإدراك ليس هو معرفة الله التي يتحدث عنها العلماء ويطمحون إليها.

غاية هذا العقل المتفكر المثْبتِ وجودَ الله أن يصطَنع جَهازاً علميّاً ومنطقا ومنهجية ليجادِل في الله من ينكر وجود الله، ويُعَطل صفات الله، ويشكِّك في مصدر الوحي. هذا الجهاز الجدَلي الدفاعي اكتمل عند علماء الكلام، له منطقُه ومنهجيته ومصطلحه. وهو علم كِفائي لا بد أن يتصدى به متخصصون ليدفعوا الشُّبَهَ العقدية.

علم الكلام كما عرفهُ الغزالي، واستَعمله، وأثْراه بمساهماته الـمُهمة في دَحْض مقالات الفلاسفة والزنادقة والباطنية، ليس هو معرفة الله التي يطلبها أمثال الغزالي، «بل يكاد يكون حجابا ومانعا» من هذه المعرفة.

علـمُ الكلام كما ينبغي أن يكونَ أداةً عقلية لمجادلةِ زنادقة العصر وفلاسفته وباطنيته لا يزالُ جنينا. ولن يكون بعد اكتماله هو المعرفة المطلوبة.

لا مُتَّسَعَ هنا للحديث عن ما يسميه بعضهم «إشراقية الغزالي». وقد أخبرتك في مقدمة هذه الرسالة/ الكتاب مَا رجعت به من رحلتي في عالم الصوفية، وذكرت لك كتابي «الإحسان»، تجد فيه خلاصَةَ علم التربية الإحسانية التي سُمِّيتْ تصوفاً.

رجعتُ من عالَم الصوفية بعد جولة في عالم الغرْبنة كُنتَ رفيقي في بعض مشاهدها. وها أنا أحاوركَ، والمثقفين المغربين، بما منحتني من فرصة للحوار. ذلك الحِوارُ الصعب المنغَلَقَةُ مسالكهُ بيننا وبين مَن سَبَى عقولَهم التفكير الغربي، فهم يفكرون كما يفكر الأوربيون.

منهم بعض الفلاسفة الذين يضعون الأسئلة على كل كبيرة وصغيرة، ويعيدون النظر في البديهيات التي يؤمن بها عامة الناس. ويراجعون المعتقداتِ والتقاليدَ وأنماط التفكير المسلمةَ الموروثةَ والحادثة على ضوء مكتسَبهم الضخم من رُكام الفلسفة الأوربية.

الشك مَبدَأُهم المقدسُ. والتشكيك وظيفتهم. لاَ أقصد الشكَّ المنهجيَّ التجريبيَّ في علوم الكون، فذاك مُعتَمَدٌ نرجع إليه بعد حين إن شاء الله.

الشك الفلسفيُّ مِهنةٌ أثرُها مدَمِّرٌ على العقل الفطري، كما هي مُدمّرةٌ على النفْس الفطرية أساليبُ التربية المضادَّةِ المدجِّنَةِ التي تحدثنا عنها آنفا. مِهنَة وشيطنة، ما لَمْ يتوجّه الفيلسوف بجَهازه واطلاعه ومنهجيته إلى تحرير العقل المسلم من التبعيّةِ القطيعية للفكر الملْحدِ اللاديني.

عقل، وعقل

تعبيرُ صاحبي الديمقراطيِّ الأمازيغيِّ وتفصيلُه العقل إلى عقلين: عقل مقْبِلٍ، وآخر مدْبر يدفع بنا إلى التساؤل عما يجعل العقلَ المسلِمَ ينفتِحُ على الكونِ الـمُحَسِّ وما يجري فيه من أحداثٍ وما يحكمُه من قوانينَ، فتبزُغُ عبقرياتٌ علمية ماهرةٌ تصفِّقُ لها العقولُ البشريةُ، ويفخَر بها تاريخ الاكتشافاتِ العلميَّة، وتاريخُ نَقْلِ العلوم مِن أهل مِلّةٍ إلى أهلِ ملّة، ومن جنسٍ بشري إلى جنس.

تاريخ المسلمين حافل بعباقرةِ العلماء البارعين في العلوم الكونية، لا مجال هنا للتذكير بها والاعتزاز إلا مرورا مَرَّ الكِرام.

تصفق العقولُ وتعتزُّ بهذه العبقريات. حتّى إذا تعلق الأمرُ بالإيمان بالله وباليوم الآخر ضاقت عقولُ أهْلِ المِلَلِ والنِّحَلِ، وتعجبَتْ

كيف يجتمع الإيمان بالله وباليوم الآخر مع البَراعة في علوم الدنيا في عقل فلكيٍّ كالفزاريِّ والبتاني، وفي عقل عبقري الفيزياء ابن الهيثم، وعبقري الهندسة البَيْرُوني، ورائد علم الكيمياء جابر بن حيان، والطبيب العظيم الرازي، وعالم النبَاتِ الغافقي، والجراحِيّ الفذ الزهراوي، والجغرافيِّين المسلمين الكُثْرِ السابقين عصرهم، وطَبقاتِ المخترعين والـمُدَبِّرين التطبيقيّينَ في ميادين الميكانِيكا، وصناعةِ الورق، وصناعةِ البارود، وتكرير السُّكر.

تتعجب عقول أهلِ الملل والنِّحَلِ، وعقولُ الملحدين واللاَّأدْرِيِّينَ والماديّين من اجتماع الإيمان بالله وباليوم الآخر في عقلٍ واحدٍ عند أجيالِ علماء المسلمين النابغين في علوم الكون، المؤسسين لحضارة فذّةٍ استوعبتْ علوم البشرية وتعلـمَتْها من الهند واليونان وسائر الأقوام، ونمّتها، وطورتها، وأورثَت الإنسانية حصيلَة العقْلِ البشري.

تلك الحصيلةُ هي القاعدة العُلومية التي تناولَها العقل الأوربي منذ أربعة قرون، فطوّر، ونمّى، واخترع، وشيد ولا يزال يشيِّد ما لا حد له ولا نهايةَ من الـمُذْهلات.

شيدَ العقل الأوربيّ العبقريُّ على فراغ؟ كلا، فالعقل الإنساني منذ نشأت الحضاراتُ البشرية له سَهْمٌ وحضور فيما يفتخر بإنجازه العقل الأوربي. وحضور العقلِ المسلم في المشَيّدِ الحاضر، وسيطا متَرْجِما ومطوّراً مُبدعا ومخترعا مؤسسا، لا يُنكرهُ منكرٌ، إلا أن يكون كمن يَحجبُ قُرصَ الشمس بالغربال.

لولا السَّلَفُ الـمُسلمون وإسهاماتُهم الرائعةُ في مكاسب العقل البشري لَمَا كان لما نَراه من المذهلاتِ وُجود. ينسَى العقل الأوربيُّ الدَّقيقُ المجرِّب أو يتناسَى السّلَف المسلمين في علوم التاريخ، والجغرافيا، والزراعة، والاقتصاد، والفلَك، والأخلاق، والنفس،

والتربية، والنظُم الإدارية، والآداب، والفنون. ولا يجب أن يعترفَ بفضل السابقِ الواصِلِ الوسيطِ. فيزعم أن العقلَ اليوناني هو سلَفُه المباشِرُ الوحيدُ. ويُعَلِّم في طواحينه الاستحمارية عقلانيةً وثنيَّةً أسطورية يونانية. هي وحدَها لا غيرها المنطَلَقُ، ومنبعُ الإلهام، ومشرِقُ شمسِ الحضارة.

العقل المؤمن بالله وباليوم الآخر، المشاركُ في علوم الكون وحصائِلِ التجربة البشرية دون أن يطعَنَ الحاصِلُ البشريُّ في الـمُتَلَقّى من الوحي، كان عقلا كاملا، مكتملا منجمعا. لأن دين الإسلام كلمةُ الله إلى الإنسان جاءت بها الرسُلُ، والكون مخلوقُ الله معروضٌ على مخلوق الله المميَّز بجوهرة العقل، المطلوبُ إليه شرعا وقرآناً أن يسعى في الأرض. في الأرض رزقُه ومعايشه، لا بد أن يكْدَح لتحصيلها، وفي السماء قدَرُ رِزْقِهِ، يؤمن بالرازق دون أن يُعطِّل التكليف الشرعيّ بالسعي والكَدْح وإعمالِ العقْل.

عقلٌ مجتَمع متكامِلٌ كامِلٌ، كانت نجاعتُه في العلومِ الكونيّةِ سيراً للعقلِ وانبساطاً لاكتشاف ناموسِ الكون وآلياتِ تَسخيرِ الله للإنسان ما في السماوات وما في الأرض. كان سيراً وانبساطا في مسايرَةِ سنة الله في الأسبابِ والمسببات، وسنته تعالى في التاريخ، وسنته تعالى في أخذ القُرى الظالمة.

عقْلٌ مجتمع كامل لأنه عقل يسمَع الرسالتين معا بسمع واحد: رسالةَ القرآن المتلُوَّة، ورسالَة الكون المنشورَةَ في الآفاق.

أما العقْلُ الماديُّ المعاشِيُّ المشترَكُ بين بني البشَرِ، فَقَدْ صَمَّ عن سماع رسالة الأنبياء عليهم السلام، وتمَرَّد على الله، وأنكر وجود الله، وتألّه، وتمطَّى، واستكبر. لكنه، مِثلَ الذبابةِ في القارورة، محبوسٌ بين أرض الله وسمائه. يخيَّلُ إليه أن عقلانيته المخترعَة ستُسَلِّحُ إرادتَهُ البرُوميثِيَّة يوماً

ما ليخرق طِباقَ السماءِ، وليستعْمِر بعد قَرْنٍ أو قرنين المريخَ والزُّهَرَةَ وإن فعل وفتح الله عليه من البلاء باباً جديداً، فما تكونُ أسلحتُه المخترعَةُ أمام فضاء الله الفسيح الذي يقدَّرُ وُسْعُهُ اليومَ بخمسَ عشرَةَ أو عشرين مليار سنة ضوئية؟ واحسُب يا حاسب يا مسكين!

إن فتح الله عليه بابا جديدا من البلاء فلن تخرج الذبابة من القارورة، ولن تربَح الفراشَة إلا حُروقاً لِأجنحتها.

وصلتْ العقلانية المخترعةُ إلى مَقام الحيرةِ أمام ما يُخيَّلُ إليها أنه مَبْدؤُ نشوءِ الكون، وما تدلها عليه الحسابات الرياضية من أن البدايةَ كانَتْ من ذرة هي أصغر من كل ذرة في الوجود، وأثقلُ من كل ثقيل في الوجود. ثم انفجرت انفجارها العظيم، وتمددت ولا تزال تتمدد، ويُحتمَل رياضيا أنها يوما ما ستنكمشُ لتعود إلى نشأتها الأولى.

عقل ماديٌّ لا يزال يسأل حائراً جاهلا: ما هي المادة؟ المادة قوة وطاقة؟ المادة إشعاعٌ؟ المادةُ وجودٌ أم الوجود هو «المادَّة السلبية»؟

العقل الماديُّ يخْتلِط في عتمة المادةِ السوداءِ المكتَشفةِ حديثا. هي أصل كل ما في الكون من شموس، وكواكِبَ، وثقوبٍ سوداءَ، وغازٍ كَوْنِيٍّ، وجاذبية، وكهربائية، وتمدد، وتقلّصٍ.

لا يسجُد هذا العقل الأعمى أمام عظمة الخالق، لأنه جعلَ في أُذنيْه أصابعَ استكبارهِ، واستَغْشَى ثِيابَ عتُوِّهِ وإنكاره.

يُنكر هنا في الدنيا، ويعترف في الآخرة وَلاَتَ ساعةَ اعتراف.

في سورة الملك يدعونا الله عز وجل، ويدعو العقْل البشري، لينظُرَ ويتفكَّر في مُلك الله. ويدعوهُ أن يرجِع البصَر كرَّتيْن، بصَر الحِسِّ وبصَرَ العقل، ليُدْرك إتقان الله عز وجل صُنْعَه في الأرض والسماء.

ويدعوه لينظر في خلق الطيْر وعَجيبِ تكوينه، وفي تسخير ما في الأرض للإنسانِ وجميلِ رزقِهِ المبثوث في مناكبها.

ويخبرنا سبحانه وتعالى أن العقول الكافرة لجَّتْ في عُتُوٍّ ونفور، وأكبَّت على وجهها، ولم تَسمع نذيرَ الوحي.

عقول ما سمعت سمعا كاملا متكاملا في الدنيا، وهي في الآخرة في مُقام الحسرةِ والندامة تقول ما يخبرنا به الله تعالى مَلِكُ الدنيا والآخرة **﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقاً لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾**.[1]

ما أعظمَه ذنباً ذنب العقلِ الذبابةِ يأكلُ من زرق الله، ويكفر نِعَم الله ويكفر بالله. يتتلمذُ لنواميسَ وضعها خالق الكون في الكون، فينْفُذ إلى أسرار في الكون بعضُها أغربُ من بعض، ثم لا يعترف بما يراه العقلُ الفطري بديهة. وهو وجود خالق قادر حكيم.

ما أعظمَه ذنباً ذنب العَقل الجاحد الذي زوّده الله بفطرة سليمةٍ جمعاء، جدَّعتها تربية مضادة، وران عليها غليظٌ كثيف من عقلانية ملحدة.

نداءُ الفطرة

ما الذي جمع في عقل المسلمين النابغين في الماضي بين الإيمان وبين الذكاء وحسن التدبير في شؤون الدنيا؟ كيف تربَت تلك الأجيال تربية منفتحةً على عالَمين، لا يتناقض ولا يتمانع ولا يتشاكس في عقلهم عالَمَ الغيب والآخرة مع عالم الشهادة والحِس والدنيا؟

الجواب البسيط الذي نستقبل به تربية ونجدِّد انفتاحا هو أن تلك الفِطَرَ نشأتْ سليمةً تلَقَّتْ الإيمان على الطريقة الفطرية، لم يجْدَعْ فِطْرتَها

(1) سورة الملك، الآية: 10.

تَربيةٌ مضادَّةٌ، ولا أصاب عقلَها بعطَبٍ تعليم مضاد. كانت الأمة الإسلامية قويّةَ الوُجودِ راسخةَ القَدَمِ في الدنْيا، فاستوعبَتْ عقولُ أبنائها خيرَ ما عند الأمم، ولم يبْهَرْها ويستعبد عقْلَها شَرُّ ما عند الأمم.

في بحثنا عن تربية للمستقبل وتعليم ننطلقُ من حاضر مهزومٍ نفسيا وعقليا وحضاريا وعسكريّاً ومِلِّيّاً. فمن انهزامِنا واستضعافِ أنْفُسِنا لِأَنْفسنا خُيِّل إلينا أن شَرَّ ما عند الغالب وخيرَهُ صفقَةٌ واحدةٌ، بل خَيَّلَ لَنا مُخَيِّلٌ، وربانا مُرَبٍّ، أنَّ معيارَنا الذي يُقَبِّحُ ما يستحسنُه الأقوياءُ في الدنيا هو الفاسِدُ، لا معيار الأقوياء الغالبين.

فلزعْزَعَةِ الاقتناعاتِ التي دربوا عليها عقْلَ المغرّبين منا، ولتنحية الغثائية المرضية الموروثة، لَيْسَ من مُستمسَكٍ إلا تجديد الإيمان بالله وباليوم الآخر. فالخوف من الموتِ والحِرْص على حياةٍ أيِّ حياة هو رأسُ الداء. وإرادةُ النجاة عند الله رأس الدواء. ويتْبَعُ في السياقِ واجِبُ إعدادِ القوةِ في عالَمٍ قاسٍ لا مكان فيه لضعيفٍ إلا إن قَبِلَ بالعيش الذليل في كنَف الأسياد.

القوة إرادة، والإرادةُ عمَلٌ. والعلْم بما أصاب عقولنَا مقدمة ضرورية لعمل منقِذٍ. العمل سياسةٌ، والمغرَّبُون السياسيون -الوطنيون منهم والمناضلون والمحترفون- يسُدُّون في وجه الأمة طريقَ الأمة إلى مصدر قوَّتها ومغزى وجودها في الدنيا: رسالةَ الله إلى الإنسان، وتحريرَ الإسلامِ عقلَ الإنسان. إنهم بِمَثابةِ شُرطِيِّ المرور الواقفِ على مُفترَقِ الطريقِ معه تعليماتٌ كُتِبت له، ولُقِّنَ كيف يطبقها، واقتنع بصواب ما لُقِّنَ، وتبنّى ما لُقِّن، وتجنّد لتنفيذ ما به اقتنع عقلُه، وطابَتْ نفسُه، وتجنّدَت إرادته، وسُلِّحَتْ قوتُه.

فمَهما قصَّرْنَا في التنقيب عن أصل التربية المضادة التي صنعتْ من أبنائنا وبناتنا ما صَنعَتْ، وعن مَسَاربِ العَدوَى النفسية التي

جدَعت الفطرة، وعن المذهبية العقلانية التي أثَّرت وأقْنَعتْ، وعن الإديولوجية المعادية للدين التي جندتْ وسَلَّحَتْ، فإنما نُعمِّي على أنفُسنا سُبُلَ التغيير. وكُل علاجٍ يقترحُه المتطَبِّبُ دون معرفة الداء وأصله، والدواء وخصائصه ومقاديره وأوقاته، فإنما يكون آفةً على آفةٍ.

غَيِّرْ ما شئت من هياكل، وافرِضْ بسُلطة الدولة ما شئْتَ، وهرِّجْ في إعلامِكَ بالكذب لترويج إديولوجيتك ما شاء لك التهريج، فلَن يَعْدُوَ بطشُك وكذبُك وعنفُكَ على الواقع أن يكون عجَاجاً عابِراً. بعُمْقٍ وكيْد وتدبيرٍ هيَّأَ منذ عقودٍ طَويلَةٍ مسْتحْمِرُو الأمم برامجَهم لتحضِير الهمَج المتخلفين، وكان في قَعْرِ وِعائنا الاجتماعي همجية غُثائية منها أمسكوا بأجيال ربَّوْها على كراهية ماضيها وما في أمتها، وجرّأُوها على رفس دين أمتها بالأرجل.

هذه الأجيالُ المغرَّبَةُ المنبهِرَةُ بالغرب وحضارتِه وعقلانيته، الملْحِدُ بعض أفرادها، الساخرون من الدين، هم قِلّةٌ عدديَّةٌ تستجْلِبُ قُوَّتَها من مواقعها في سلطة الدولة: في الجامعات، والإدارات، والمؤسسات الاجتماعية، ومراكز القراراتِ. رَغْوَةٌ وزبَدٌ عدداً، قوةٌ فاعلة مؤثرة مَدَداً.

وفي القاعدة الشعبية الأميةِ، ونصفِ الأميةِ، تتفاعل الغثائية العتيقةُ مع أفيون الشعوبِ الإعلامي المائج المارج.

الثورِيُّونَ القوميّونَ يُسَوُّون القاعدة والنخبة المثقفة على كلمة الاشتراكية والوحدة والحرية، وعلى مَسْح الرؤوسِ بقمع العنف الثوري، وغسْلِ الأدمغة بالترغيب والترهيب، وتوجيه الأمة ضِدَّ ماضيها، وإلهابها بالسِّياطِ الشعاري والسياطِ الفتاك نحو «مستقبلِ الأمة المشرق، والعزَّةِ للعَرب، والتنميَّةِ والرخاء».

نخبةٌ ثورية تعلو، وتتمكن، وتتفرعن، وتتملك الإرادةَ والقوة. فهل يفيد تعميقُ البحث عن جذور ما أفسد الفطرة وأهلك العقل في إزاحة المفسدين الصادقين عن سبيل الله؟ أم هلْ يُفْضِي التَّعفُّنُ إلى انهيار العفونات من تلقاء نفسها؟

نكُفّ عن التفكير سياسيا لنفكر تربويّاً. يعني أن ننظر إلى بعيدٍ، إلى مستقبَلٍ لا نروغُ عن ضروراتِ بنائِه لَبِنَةً لَبِنةً مكتفين بتصور هياكِلَ تخلُف هياكلَ، ووجوه تعقُبُ وُجوها، وشرعيةٍ تحكمُ حيث كان القانونُ الوضعي يحكُم.

لو كان الإسلام مذهبيةً اجتماعية سياسيةً لجَاز أن ننظر إلى المستقبل كما ينظر السياسيون. لكن الإسلامَ رحمةٌ للعالمين. والرحمةُ نزلت من عند الله سبحانه لتستقر في القلوب المؤمنة، تخدُم أهدافها في الدنيا وغايتها في الآخرة عقولٌ مؤمنةٌ طائعة.

من موقِعهِ في المسجد وسَط حلقة العلم والذكرِ والوعظ يُسْمِعُ رجلُ الدعوة كلمة الله إلى الإنسان. لا مِن الأعالِي النخبويَّة المغرورة. في المسجد وفي مجالس الإيمان تُشِعُّ الكلمة الحقُّ على الأسرة فتحييها، وعلى العامَّة والخاصَّةِ. ويبلُغُ الـمَدُّ التربويُّ مداهُ، ويسْقُط المتعفِّن، ويقْوَى الضعيفُ، ويجتمع القرآن والسلطان بعد افتراق. ويومَها تزداد الحاجةُ إلى تربية، وإلا كان السلطانُ عُشّاً حاضِنا يتجدد فيه الفساد.

يُسمِعُ الواعظ المربّي في المسجد، والأستاذ المعلـمُ في المدرسة والجامعة، والأم والأب، والرفيق الصاحِب، والحاكِم المؤمِنُ من منبر سلطته ومن مجلِسِ حكمه، ويُسمع كل مؤمن وكل مؤمنة، النداء الفطريَّ. من الناس من فطرتُه في غَوْرٍ وجذْبٍ، فلا بُدَّ من مرور زمان عليه، أو مرورِه هو من الزمان ليُخلِي الطريق لجيل بارئٍ. ومن الناس من سيجْلس في طريق إحياء الفطرة وإسماع ندائها مجلسَ الوسواس

الخناس الذي يوسْوِسُ في صدور الناس من الجنة والناس. فتلك الشيطنة لا جواب عنها إلا بما يجابُ به مستَرِقُو السمْعِ.

نداء الفطرة يناجيني، يقول: مصيري عند الله في الدار الآخرة متوقف على استماعي واستجابتي وطاعتي وعملي بما أنزل الله من تكليف وشريعة. كمالي الروحي ومنزلتي عند الله يتوقفان على تحقيق عبوديتي لله وعلى معرفتي لله معرفةَ السعدَاء المحبوبين عند الله.

تناديني الفطرة، تقول: أرضَى بالمنزلة الدُّونِ عند الله، بل أرضَى بإعطاء الدَّنِيَّةِ في ديني إن لَمْ أعْمِلْ كياستِي وذكائي وحيلةَ عقْلي لإخراج أمّتي من ورْطتِها التاريخية، وهزيمتها النفسية والفكرية.

سعادتي في الآخرة أقْربُ ما يحققها جهادي لإسعاد أمتي في الدنيا. سعادتي الشخصية في الدنيا سعادة مرتَحِلٍ متزَوِّدٍ من دنياه لآخرته. سعادتي في الدنيا سعادةُ صابرٍ على البلواء شاكرٍ للنعماء. ما سعادتي اللذة هنا كما ينْعَم من لا يرجون لقاء الله. لذلك فأنا لا أفكر كما يفكرون، ما عقلي من عقلانيتهم.

العقلانية

نُتَرْجِمُ بكلمةِ «عقلانية» كَلمتين اثنتيْن في اللغة الأوربية: «راسْينالِتي» و«راسينالزم». وللكلمتين المترجَمتين معنيان متداخلان لَفظاً متباينان دَلالَةً. فإذا تُرجما إلى العربية بكلمة واحدة اكتَظَّ التداخلُ واختفى التبايُن. ولذلك يصعب الحِوارُ بالعربية بين عَرَبٍ يفكرون كما يفكر الأوروبيون لكنهم لا يعطون لكلمة «عقلانية» مترجمةً إلا مدلولاً واحداً عناداً وتدليسا، وعَرَبٍ يسألون الكلمةَ الواردة الغازية المتلبِّسة باللفظ العربي عن أصلها وفصلها ليحاوروا الناس بأمانَةٍ.

نأخذ بعض التعريفات الأكاديميةِ للكلمتين الأوربيتين من مصادرها: «راسينالتي». صفة ما هو «راسْيُنِل». و«الراسيُنِلْ» هو ما يعتمد على العقل لا على العفوية والعشوائية. «الراسيُنِلْ» ما هو مطابق لمقتضى العقل والحكمة العملية.

فالعقلانية بهذا المعنى العملي المعتمِد على العقل والحكمة لا على العفوية والعشوائيةِ مطلَبُ كل عاقِل، وعِمادُ كلِّ تَصَرُّفٍ يُصنِّفُكَ مع العقلاء لا مع المخبولين.

فإذا أخْذَمنا العقلانيةَ بهذا المعنى في مجالها العملي، وهو دوائرُ معاش الإنسان على الأرض، ودوائرُ كسبِه الرزْقَ، وإدارتِه الاقتصادَ، واختراعِه الآلاتِ، وقياسِه المسافات، وصنْعِهِ من الأَرفاق ما يجْعلَ الحياةَ رَخاءً، فنحن وغيرُنا عقلانيون بنفس المعنى. وإذا صرَّفْنا الذكاء العقلانيّ -بمعنى الحكمة العملية- في فنون العلوم النظرية والتطبيقية من رياضيات وفزيقا وكيمياء ومكانيكا، أو في مُرَكَّباتٍ علومِية كما هي مُرَكبةٌ في عصرنا التطبيقاتُ الكَهْرُمغناطيسية، والديناميكياتُ الحرارية والفضائية، والمعلوميات، والسِبِرْنِيقيَّات، والفَلَكيات، وما إلى ذلك من عجائب التركيبات العقلانية، فَنَحنُ وغيرُنا أفْرَاسُ رِهانٍ: كنَّا والحمد لله، وسنصير إن شاء الله.

كنا قبل اخْتراع كلمةِ «عقلانية»، وقبلَ ترجمتنا بهذه اللفظة لمطلوبٍ أكِيدٍ. ونصيرُ مستقبلا إن شاء الله، فما الذكاءُ والعقلُ الباحِثُ المخترع حُكْر على جنسٍ من أجناس النوع البشريِّ.

بلْ العقلانيَّةُ العلومية الفاعِلَةُ هي منذُ اليَوْمَ مِن أثْمَنِ مَا ينهبُه مِنا أقوياء العالم وأغنياؤه. يرجع النابغُ من شبابنا والنابغة ومعهما الشهادات العليا من أكبرِ جامعات العالم، فلا يجدون موْطِئَ قدمٍ

ولُقْمَةَ عيش في بلدهم المنكوبِ بأدواءِ التخَلُّفِ العَامّ، وأدْواء التعفن الإداري، وأدواء المحسوبية والرشوة وهَدْر الكفاءات.

عقلانية نابغَةٌ، وأدمغةٌ ممتازةٌ يتلقَّفُها العالَمُ المصنَّعُ، ويَكفُلها، ويفتحُ أمامها فُرَصَ العمل، ومختبراتِ البحثِ، وأمَلَ تحقيقِ الذاتِ. العالَمُ المصنّعُ النظيفُ الإدارةِ المهتبِلُ بالأدمِغَةِ النابهة، يعيشُ الحاضرَ ويهيئُ المستقبلَ، على اقتناع تامٍّ بأن الحاضِرَ والمستقبلَ لا يرفعان إلا أمة فِي حِرْزِها ومِلْكِها تكنولوجيا متطورة، وبحثٌ علومي يُمَوّلُ بسخاء، وباحثون علوميون يشعرون أنهم في بلدهم في الرَّحْبِ والسَّعَةِ ماديا ومعنويا وشَرَفا، وتعليمٌ يكون الأدمغة ويبثُّ روح العقلانية المتعلمة الصانعة.

التنمية أو الموت. لا بقاء في عالَمِ الـمُصنّعين الأقوياء لمتخلف، ولا قوة إلا بتكنولوجيا مفتوحةٍ على سوق المنافسةِ العالمية، ولا تكنولوجيا إلا بعقلانيةٍ يُوَطنُها في الديارِ نُبَهاءُ أذكياء ماهِرون متدَرّبُون. ولا تتوطن التكنولوجيا وصناع التكنولوجيا في بَلَدٍ اقتصادُه خرابٌ لأنّ نظامَ حكمِه جَوْرٌ واحتقارٌ للكفاءات. ولا صلاحَ لنظامِ حكم وإدارةٍ في بلاد المسلمين إلا بالإيمان، وبالإيمان وحدَه.

نرجع إلى تدْليسِ المترجمين الذين لا يفصِلون بين مَدْلولَيْ كلمةِ «عقلانية». فإذا قلنا: إنه لا بقاء بدون تنمية... ولا صلاح إلا بالإيمان، وبالإيمان وحده، قالوا: لا عقلانية إلا بإلحاد.

إذا قلنا: إنه لا صلاحَ للحكمِ والإدارة والاقتصادِ إلا بالشورى في سياقها الإيماني، قالوا: لا صلاحَ ولا تنمية ولا ولاَ إلاَّ بديمقراطية وعقلانية في الـمَساق اللاييكي.

إذا قلنا: إنّ العقْل المسلِمَ الكامِلَ يَسمَعُ نداء الفطرةِ بأذُنَيْن، قالوا: لا عقل أكمل من عقل صنَع الصاروخَ، وطوَى مسافات الفضاء، ودبَّرَ ميلادَ أطفال الأنبوب، وفَتَّش في خبايا الجينات الوراثية، وطوّرَ الزراعة، و... والإنجازات لا تنتهي قائمتها.

قالوا بالحجة الاختراعية الباهرة العجيبة ثم قالُوا بما تعلموهُ واقتنعوا به ودرَسوه في كراساتهم أمام المعَلِّم. وأبرَزوا التعريف الفلسفيَّ لكلمة «راسينالزم»، ليعتَمِدوا تعريفَها مرجِعاً نظرِيّاً وحيداً، وسكتوا عن «الراسينالتي».

فإذا بالجوهر المكنون «العقل» يُمَرَّغُ رغْمَ أنفه في الـمُبْتذَل المسنون. وتُعْجَنُ كرائمُ المعانِي في طين الرداءةِ وماء الدناءَة. وتعمل البيداغوجيا جادِعةُ الفطرةِ عاطبةُ العقل عملَها. وقَدْ احتَلَّ الهجينُ دارَ الأصيل، فلا سَمْعَ ولا طاعةَ لغَير نِداءِ عقلانية ملحدة. والحديث عن سعادةِ الدّارين هُراءٌ. والدليلُ في مَمْلكة الخفافيشِ شمُوس ما أنتجتْه العقلانية. والدليلُ ما أخبر بهِ مُنتِجو العقلانية.

العقلانية العاتية، الراسينالزم، يعَرِّفُها أصحابها في مصادرهم كما يلي :

- «هي مذهب فلسفي يقول: ليس هناك من شيء لا يدْركه العقل».

- «هي مذهبية فلسفية تقول: لا ثقة بمعرفة لا تنبثق عن مسبقات عقلية عالمية ضرورية».

- «هي مذهبية تعطي للعقْل الشُّفُوفَ على كل شيء».

- «هي مذهبية ترفض كل تفسير غيبي للكون».

مذهبية وفلسفة هي، لا منهجية علومية.

أتينا على بعض تعريفات العقلانية/ الراسينالزم لنعرِف مواطن التدليس في خطاب من يتهمنا بمعاداة العقلانية، ثم لا يسمحون ولا ينتظِرون أن يعرفَ الناس عن أي شيء نتَحدَّثُ ويتحدثون. ذلك أن اللُّغَة العربيَّة الصافية في الخطاب القرآني، الحيَّة بحياة القرآن ومفاهيم القرآن، سكنتها شياطينُ اللغة الأجنبية المبتورَةِ أصْلاً، الباتِرَة القاطعةِ وظيفةً.

العقلانية التي نرفضها هي التي تفصِح عن خبثِها وغبائها وتخلُّفِها عندما ترفض كل مصدر للمعرفة غيرِ العقل العالميِّ الضروريِّ الـمُزَوّدِ بمُسْبَقاته الفلسفية كما رسمها كانت والفلاسفة من قبله. الخبيثة الغبية هي المذهبية التي ترفض الوحي وتكفر بالغيب الذي لا يدركه العقل. لو لم تكن أميرَة الأغبياء لعلِمَتْ أن العقْلَ لا يدركُ إلا ما أوصلته إليه حواسُّهُ، وأن امتداد الحواس بالمكرسكوبات والتلسكوبات والراديوات ووسائل البَثِّ والاستقبال تكشف للحواس العضوية وتوَصِّلُ وتنقل اليومَ ما كان بالأمسِ غيباً في عوالِمِ الذرَّة، وعوالِمِ الفضاء، وعوالِمِ جسم الإنسان.

الغبية التي يرفضها كل عقل كاملٍ يؤمن بالله وباليوم الآخِرِ عن سَلاَمة فِطرة وصِحَّةِ نَظَر تتَسَرْبَل بسِرْبال العقلانية العلومية العملية المخترعة كما تتسربل اللاييكية اللادينية بثياب الديمقراطية.

كلمتا الديمقراطية والعقلانية حجتان دامغتان، بل سلاحان دامغان في نطْقِ المغرَّبين، وفي بيداغوجيتهم الطامسة الغامسة. هما لفظتان من الوزن الثقيل في مستودَعات البضائِع الفكرية المستوردة، سلاحان قاضيان في دار السلاحِ المتَرْجَم، إلى جانب أوزان أخرى ثقيلة مثلِ التنمية، وحقوق الإنسان، ودولة القانون. والمسْردُ طويل.

كلماتٌ يضفُون علَيْها هالَةَ الطُّهرِ والقداسة، إن كشفْتَ عن نيتهم في استعمالها وجدتَ تزويرا وتحويرا وتهويلا.

الثلاثة الأثافي

الأثافي أحجار ثلاثة توضع تحت البُرْمَةِ وتُوقَد النار لِتطْبَخ القِدْر. وفي المثَل العربيِّ «هذه ثالثةُ الأثافي»، يقال لِرَزِيَّةٍ طرَأتْ على رزايا.

هُنّ ثلاثُ فلسفاتٍ من القرن التاسع عَشرَ الأوربيِّ أسست العقلانيةَ وقعَّدَتْها ووظَّفتها. كان القرْن التاسعَ عشَرَ قَرْنَ إقلاع العلوم التجريبية، وقرْنَ ازدهار التصنيع. لكنّ قبضةَ العقلانيَّة الفلسفيَّة كانتْ لا تزالُ ممسكةً بالزِّمام. فإنْ التَمَسَ المؤرِّخُ أمثِلةً تطبيقية من التاريخ، وابتغى الاقتصاديُّ لإثْبات فرَضيَّتِه ديناميكية اجتماعية في عصره، واعتمدَ عالم الطبيعيات على نتائج بحثٍ ميداني، فإنما يفعلون انطلاقاً من مسلَّمات فلسفيَّة، وانتهاءً إلى تحليلٍ وتفسيرٍ العقلُ فيه كل شيء.

في القرن العشرين بتاريخ النصارى شَبَّتْ العلوم التطبيقيّة عن طوْق وصاية الفلسفة، فالإحصاءُ والأرقام والمختبرُ وما ترى وتسمع في عالَم الحِسِّ المنكَشف للحس العضوي أو للحاسة العلمية، وما يعطي النتائجَ العملية، وما يمْكن إعادةُ تفعيله، هي وحدَها المرجِعُ بقطعِ النظر عن أيّةِ مذهبية فلسفية. لَمْ نَعُدَّ من الأثافيِّ قصيرةَ العُمْرِ الماركسية رغْم صداها الـمُدَوِّي طيلَةَ قرن من الزمان، لأنّ الأَلْيَقَ أن يُذكرَ الـمَوْتَى بخَيْر.

أوكست كُنْتْ الفيلسوف الفرنسي، وماكْس فِيبِرْ الفيلسوف الألماني، وهِرْبِرْتْ سْبِنْسُر الفيلسوف الإنجليزي أَسَّسوا وحلّلُوا

وطبقوا وقعَّدوا. فمنْ طَعِمَ من قِدْر العقلانية الفلسفية، أو ذاق من مَرقِها، أوْ أدمَنَ على تناوُلها حتى امتزجَت بمخ دماغه ودماءِ عروقه، فمادَّةُ تفكيرِهِ ترجع مباشرةً أو بوسائط إلى وضعيَّة كُنت، وتحليل ماكس فيبر، وتقعيد هربرتْ سبنسر.

مبادئ كنت هي -بإيجاز- كما يلي :

1- لا يمكن فهم ظاهرة اجتماعية دون إعادة وَضْعها في سياقِها الاجتماعي العام. كما لا يمكن فهم وظيفة عضو في الجِسم دون اعتبار الجسم كله. ويُسمي مبدأه هذا: أسبقية الكل على الأجزاء. عند فلاسفة الاجتماعِ يُصَنَّفُ هذا المبدأُ، ويُتخذ قاعدة لعلم الاجتماع الكوني، مقابلا لعلم الاجتماع الدينَاميكيِّ المقارِن -مِثْلَ مذهب ماركس- الذي يفرض أن أي مجتمع لا يمكن فهمه إلا بفهم تاريخه.

2- الإنسان يفكر ويَتصرف اعتمادا على ما عنده من معلومات عن الطبيعة والمجتمع.

3- الإنسان هو نفس الإنسان في كل زمانٍ.

وعلى هذه المبادئ ركَّبَ كنت قانونَه «للحالات» الثلاث التي مرَّت بها الإنسانية. فالمغرَّبون الذين سُقُوا من الـمَرَقِ العقلاني واضِحةٌ في أذهانِهم مراحل تطوّر العقل البشري بما وضح المعلم كنت. فالدين والتدين مرحلة بِدائيةٌ ساذجةٌ تجاوزَها الإنسان المتطوِّر، يَسْخَر من سخافَتِه العقلُ الـمُعلِّمُ إن قرأ في كُرّاسةِ فكره وسِجِلِّ سلوكِهِ أثارةً من مُخَلفات «الحالة» الركيكة.

1- الحالة الأولى في تاريخ الإنسان، كما يعَلِّم كنت ويتلَقَّى التلامذة، هي الحالة اللاّهوتية. وهي التي يفسِّر فيها الإنسان الظواهر الكونية، ويفسر شعورَهُ وإرادتَه وعلاقته بالطبيعة بغيبيات، وينسُبُ

الفعلَ والتأثيرَ لِآلهة وقُوىً فوقَ الطبيعة. ويُسقِط على تلك القوى إرادتَه هو، وفضائله، ورذائلهُ.

2- الحالة الميتافزيقية، ينسُبُ فيها الإنسان إلى كائناتٍ مجرَّدةٍ ما كان ينسبه في المرحلة السابقة إلى الآلهة.

3- وتأتي المرحلَةُ التي تسطَع فيها شموسُ العقْلِ، وتتحرر فيها إرادة الإنسان. الحالة الثالثة يعتمد فيها الإنسان على الملاحظة، ويحكِّم العقل لفهم العلاقاتِ الضروريّة بين الأشياء والأحداث، ويُخْضِع الأشياء والأحداث والعلاقات لقوانينَ علمية لا مكان مَعَها لأي اعتبارٍ لما وراء الحِسِّ، وليس وراء الحِس إلا العَدَم. وهذا ما يمكنهُ من السيطرة على الكون.

عند ماكس فيبر الألماني نجد صدىً للفلسفة التطورية العقلانية، ونجد العقلانية الفيلسوفة ممتزجةً بالتجربة والملاحظة والاستقراء والاستنتاج. «العِلْم» في نظَر فبير دحضَ فكرةَ أسرار الكون، وطَلَّق التفسيرات «الشاعرية» للكون. وتمكن من القوة بالمعرفة الموضوعية، أي بالتجربة والمعرفة «العلمية».

أستعمل لفظة «علم» بصيغة المفرد مسايَرةً للمصْطَلح الدارج، لكيلا نغتربَ عن اللغة العامية الـمَعَاشية التِي تصِلنا بعالم الناس. وإلا فالعِلْمُ -بصيغة الإفراد- هو العلم بالله وبما أنزل الله. ويضع هذا التمييزُ مكتسباتِ العقلِ البشري من علوم الكون مكانها، كما يرجِع إلى نسبيتِهِ الكونُ المخلوق أمامَ ألوهية الخالق. وأفضل كلمة «علوم» بالجمع للتعبير عن العلوم الكونية المكتسبة.

عقلانية فيبرْ مقتنِعةٌ، مقتنِعٌ بها التلامذةُ المغرّبون، بأن الأشياءَ تجد تفسيرَها في ذاتها، لا خَارج ذاتها في الأساطير والتقاليد.

معناهُ أن كلام خالق/ مخلوق محضُ هُراء، ومحض أسطورة.

تعبير فيبر أن العقلانية، كما صوّرها وكما هي بالفِعْلِ الجوُّ الذي سادَ عصرَه ولا يزال يسودُ عصرنا، هي روحُ الرأسمالية، وأصل تقدم العلوم والتقنية، وأصل الثورة الصناعية.

روح الرأسمالية، كما يفكر فيلسوف الرأسمالية فيبر، أنْ ليس هناك من غايَةٍ يطمح إليها الإنسانُ العقلاني وراء فَرْديته وأهدافه المتجددة. ليس هناك مِنْ ثابتٍ، بل مُتَحَرِّكاتٌ متطورة يعادُ فيها النّظر.

متَى ثبتَ لَدى العقْل ثابتٌ –مثل وجود الله ومصير العباد إلى الله– فقد شُلَّتْ حركةُ العقل، وزهقتْ روحهُ.

وما كان للرأسمالية أن تعيش وتزدهر لو لم يتحرر العقل من أساطير الثوابت. روحُ الرأسمالية، أي العقلانيةُ المحَرِّرة، أكسبَتْ الإنسان الرأسمالي العبقرية التنظيمية التي لم تكن في مُتناوَلِه ولا تكون إلا مقترنَةً بإلغاء الغبَاءِ الإطلاقي.

ويُحَلِّلُ فيبر تاريخ الرأسمالية وكيف سكنتها الروح العقلانية. تلك العوامل الهيكلية المتمثّلةُ في تراكُم رأس المال، وحجم الديمغرافيا، واكتشاف قاراتٍ جديدة، ونهب خيرات المستعمرات، واستغلال طبقةِ العمّال وأطفالِ العمّال. ما كانتْ لتنشِئ نظاماً مُنَظّماً متطوِّرا حيا لولا عامل العقلانية. عوامل الإنتاج الهيكلية أجسامٌ ميّتَةٌ لو لم تسْكُنها وتوجِّهْهَا روح، ولو لَمْ تُنِرْ طريقها نظرة جديدة إلى الكون والإنسان.

العقلانية المتحررة من الأساطِيرِ شَرَعَتْ للإنسان في ظل الرأسمالية قِيَماً تُسْعِفُ على سلوكٍ عملي مُعَقْلَنٍ.

ويَسْتَخلِصُ الـمُعَقْلَنون من مدرسة التدجين التغريبي الدرسَ: العقلية الدينية تتناقض والأهداف الرأسمالية. روحان لا يمكن أن

يتعايشا في بَدَنٍ واحد. والاختيارُ محسوم فيه عند رَبائبِ القِلّةِ والذلَّةِ رُوَّاد المدرسَة العتيقةِ المبعوثةِ من جديد بَعْدَ أن شنَقَت غريمتها الشيوعية نفسها.

تُبعثُ الرأسمالية، وروحُها هي روح العصر. تيقَّنَ أيْتامُ الماركسية كما تيقن غيرُهم المتكففون لقمةَ العيشَ في موسكو أن أي نِظام سياسي اقتصادي اجتماعي لا ينتظم بنظام الرأسمالية، ولا يسلك السلوكَ العقلاني، إنما مآلُه الفشل.

ويتَحول الأيتامُ من عقيدة لعقيدةٍ، من عقلانية مُلْحِدَة إلى عقلانية ملحدة.

عقلانية مُلحدة اصطدمت سبعين سنة بعقلانية ملحدةٍ أختِها في احتقارِ الماضي، أختِها في التوجّهِ للمستقبَلِ، أختِها في عِبادةِ التكنولوجيا زهْرَةِ العقل وثمَرَته، أختِها وضَرَّتِها وعدوَّتِها في رُقعَة السياسة العالمية، تصارعتا زمنا ثم اصطلحتا. وبقيَتْ مخلَّفَاتُ الثوريّة الماركسية اللينينية في أدمغَةٍ ملغومةٍ عبارةً عن رواسِبَ متناثِرَةً كالهَباء في الهواء. والرأسمالية تنادي: الربحَ الربحَ! الاستثمارَ الاستثمارَ! الدولار الدولار!

وتَمُدُّ رجليها العقلانيةُ الملحدةُ عَرَضاً وتسامُحاً ولاييكيةً ديمقراطيّةً في عُقْرِ دار العقلانية الملْحِدَةِ مبدئيا، الثورية منهجاً، الـمُدْرجَة في الأكفان مصيراً.

إنه تطوُّرٌ تُقَعِّدُ لَهُ العقلانية التطوُّرية، وتستوعبهُ في مبادئها الدروينية اللاَّمَرْكية التي يحظى بمقتضاها الأصْلَحُ الأقْوَى بالبقاء. ويضمحِلُّ وينعدمُ من الوجود الأضعفُ الأقَلُّ لِياقَةً للبقاء. وهي نفس المبادئ التنافُسيَّة التي تحكُم عالَمَ الرأسماليَّةِ، تفترِسُ القروشُ الأسماكَ

الرخْوَةَ، وتستولِي أدمغةٌ على مكتسباتِ أدمغةٍ، الأحذَقُ الأصلحُ للبقَاء من يستولِي على العَمَلِيِّ كما تَستولِي اليابان في عصرنا على زِمام التكنولوجيا المتقدمة، تنازع عليها وتقاتِلُ القرْش الرأسمالِيَّ الأعظم: أمريكا. وتَقْضِمُ التّنّيناتُ الصناعية الناشئة من أطراف الغنيمة، بينما المغرَّبون الملحدون يمضغُون الفُتاتَ الفلسفِيَّ الإلحاديَّ.

مَأْدُبَةُ حَفلة الإلحادِ، وبيْتُ قصيدِه، ونشيدُ عُرْسِه كانَ النظرية الفلسفية الدروينيةَ التطوريّةَ. سقطت الفلسفة بيتُ القصيد الآنَ أمامَ النّقْدِ العلمي الذي أتى على قاعدتِها القائلةِ بالطفرة النوعية التي تنقلُ الكائنَ من جنس إلى جنسٍ، من إنسان إلى قِرد مثلا، بواسطة أفرادٍ من النوع لهم خصائص وراثية وحظوظ في توريثِ تلك الخصائص.

انتقد البيولوجيون المختبريون الحسابيون النظريةَ الفلسفية العتيقة القرديّة، وأخبروها أن فَرَضيَّةَ تَحوُّلِ الصَّبَغِيّاتِ الوراثيَّة من خصائصِ جنسٍ إلى خصائص جنْسٍ داخل نفس النوع من الكائنات كان يُمكن تصوُّرهَا في امتداد زمَنِيٍّ يُعدُّ بمِآتِ ملايير السنين. والحسابات الجيولوجيةُ لاَ تُقدر عُمْرَ الأرضِ بأكثر من خمسة ملاييرَ سنة. فسقطت الفرضيّة القرديةُ مرةً أولى. وسقطت مرَّةً ثانيةً حين سُئِلَتْ وأفْحِمَتْ: حتى لو سلَّمْنَا بتحَوُّلِ جنسٍ إلى جنسٍ داخلَ نوع ما من أنواع الكائنات، فمن أين جاء تنوُّعُ الأنواع؟

نترك الجُثَثَ لعُشَّاقِ القُبور. ونصل إلى ثالثةِ الأثافي: القاعدة السبنسِريّة. اعتمَد سبنسر على فَرَضيات لامارك ودرْوين في تطور الكائنات الحيّة، ونقل من البيولوجيا الوراثيَّة الدروينية منهجيتها،

وعمَّمَ، وقَعَّدَ، وقال: يمكن تحقيق وحدةِ العلومِ البشريّةِ ابتداءً من قاعدةٍ علميةٍ كبيرَةٍ عالمَيَّةِ التطبيق: وهي القاعدةُ العامة للتطَور.

نُشَرِّح الأجسامَ الميِّتة كما يفعل الأطباءُ القَضائيون لمعرفة الجاني وما جَنَى وكيف جَنَى، لا سيَما وأثَرُ الجنايةِ وفِعْلُها في العقُول الـمُتَقَمِّمَةِ عَلَفَها من الجِرابِ العقلاني الفلسفي الإلحادي لا يزالُ يَسْرِي من جيل كَليلٍ إلى جيلٍ عليلٍ في بيداغوجيا التلحيد.

زَعَمَ القرنُ التاسِعَ عشَرَ الأوربِّيُّ زُعومهُ الوضعيةَ التطورية الرأسماليةَ، وانطوَى، وانكسفَتْ شمُوعهُ الباهتةُ أمام «أنوار» القرن العشرين. لكنّ التكوين الأساسيّ للعقلانيَّة، وخصائصها الوراثية، ولبنَ أمها الذي غذاها، ترجع إلى إفرازاتٍ فلسفيةٍ قذفت بها أدمغة أمثالِ كنت وفيبر وسبنسر.

زعم سبنسر أن كل الأجسام تتطور، إبتداءً من مرحلة يكون الجسمُ فيها بسيطَ التركيب. ويتطور إلى تركيباتٍ تزدادُ تَعقّداً على مدارج التطور. ولكل مرحلة من التطور، ودرجة من التعقيد، ومُستوىً من تخصُّصِ الأعضاء، حظ أكبرُ في الفوز في معركة البقاء. تخضع لهذا القانونِ الأجسامُ الحيةُ، كما تخضع له المجتمعات البشرية.

لا تختلِطْ علينا الملاحظةُ العلوميّةُ العمليةُ بالتخرُّصاتِ الفلسفية. تِلْكَ واقعيةٌ عالمُها الحِسُّ، صوابُها يقتضي احترامها وإفساحَ المجال لملاحظاتٍ تصحّح، وتنتقد. فإن بنيتَ عليها من عالَمِ أوهامِك قواعِدَ، وألْحَقْتَ المفروضَ بالواقِع، فقد ظلمتَ وتعديت.

عقلانيةٌ تتَمطَّى

التّمطِّي في المشْي تهادٍ وتطاوُلٌ يُعبّر عن استكبارٍ في الأرض وتعالٍ. وكلَّما تقدمت العقلانية المخترعة الصانعة في شُغْلها، ازداد تبجح العقلانيةِ الملحدة وتمَطِّيها. وتطاولَ الإنسانُ الـمُدْبرُ عن ربِّه، المقْبِلُ على صراعِه مع الطبيعةِ، ينازِع الطبيعةَ -الصماءَ العمياءَ في نظره الكليلِ العليلِ- السيادَة في الحياة، ويُغالبها، ويصمِّمُ على قهرِها وإخضاعها لإرادته.

يلتفت العقلُ الكامل إلى الله خالِقِ الطبيعةِ مستغفِراً متضرعاً إن تزلزلَت بالناس أرضٌ، أو انحبسَ مطر، أو جاحَتْ جائحةٌ. ويعْمِد العقْل المستكبر في الأرض إلى حساباتِه وآلات قياسِه ليُعلِن للناسِ أن زِلزال كذا درجته كذا على سُلَّمِ كذا. وأنَّ دَوْرَةَ يُبُوسَةِ الـمُناخ وتِيرَتُها كذا. وأنَّ تكوُّن القارات وابتعادَ فَرْقَةِ الكتْلةِ الأصليَّة من فَرْقَةٍ تاريخُهُ كذا. وأن العصورَ الجيولوجية، كما تخبر الصخور والأحجارُ وهياكل الأشجار، كان أمَدُها كذا وكذا. تغضب الطبيعةُ، وتصطدمُ الكُتَل، وتتفاعَلُ العناصِرُ كيماويّاً، ويَبْردُ الجوُّ وتتثَلّجُ القارات أو تسخُن. وتلتَطِم في الجوِّ رياحٌ، وتدور أعاصير.

ما من فخَّارةٍ يَنْبِشُ عنها العقل الحَفّارُ في بطون الأودية إلاّ يُؤرخها بآلاف السنين، ويسلِّط عليها آلاتِ حسابه في مختبرات المتاحف الطبيعية، وينسُبها لصانِع في مجتمعٍ يصنع، لناسٍ يحتاجون لصَنعةٍ، ويتَّجرون في صنعة.

لكن هذه الفخّارة الـمُسمَّاةَ إنساناً لا صانعَ لها، ولا وظيفةَ غيرَ الصراع على البقاء. البقاء لماذا؟ سؤال لا معنى له!

الإنسان هو المعيار، الإنسان الحيوان، وهو المرجع الأخير، وهو القوة، وهو الوحيد، وإنجازاتُ حضارتِه دليلٌ. ولو عاشَ الفيلسوف المجنون الألماني نيتشه حتى يرى الإنسان على ظهر القمر، وفي فلَكٍ في السماء تدور به حول الأرض كواكبُه الصناعيّة، وغداً ما غدٌ؟ لكان تمطّيه الجنونيُّ أعْتَى وأضَلَّ سبيلا.

فيلسوف السوبِرمانية -السوبرمان: الإنسان الأعلى- وإن كان هو لم يخترِع اللفظةَ مَهَّد الطريقَ أمامَ الإلحادِ وأمام الجُرْأة على الله. هو القائلُ -لعنه الله- مقالاتٍ صادعةً بالتّفرعُنِ العقلاني، أين منه تألّهُ فِرْعَوْنِ موسى. على موسى سلام الله.

نيتشه أنموذجٌ متكامِلٌ لإنسان الزندقة والإلحاد والمرض. مرضٌ في جسمه ومرضٌ أشدّ قَذَارة في عقله. أصيبَ بمرض من أمراض الزُّناةِ لم يكن طِبُّ القرن الماضِي يعرف له علاجا. كان يسقط صريعا في الشارع من جرّاءِ جنونه.

كانت الميتافزيقية الأوربية قَبْلَهُ تتشخص الوجود الأعلى مُعْطىً ثابتاً. تتشخص كوناً وراءهُ قُوةٌ منهم من سماها طبيعة أوْ إلها، ومنهم من سمَّاها -مثل هيجل- فكرةً عُليا ومثالا.

أما المجنونُ المريض فيتصوَّرُ الوجودَ قُوىً تتطوّرُ، وتبني، وتهدم، وتتناسل من خلالها القِيمُ، وتتَقَنَّعُ فتُسَمَّى إلها. ليس عنده إله ولا حقيقة، وإنما صيرورةُ حياةٍ تتجدد، ويخلُق فيها الإنسان ويُبدِعُ، هارباً نحو «شيءٍ آخر» يتجاوز فيه ذاته.

أفْكارُه الكبرَى القُوَّة وإرادة القوة، والفنُّ المبدع ينطلق في البحث عن المطلق الذي لا وجودَ له بحثاً لا نهاية له.

وشيطنته العظمى قولتُه الشنيعةُ المجنونةُ المريضةُ الميتةُ: مات الله. أستغفر الله.

أستغفر الله، أستغفر الله، أستغفر الله من حكاية قولة لولا مكانُ العِبْرَة منها ما استقام بين الأصابع القلـمُ ليكتب حرفاً منها.

كَبُرَتْ كلمةٌ خرجت من فِيهِ، مات وتركها حيَّةً ناخرةً في عقول بناته وبنيه. وتِلْكَ كانت ولا تزال الجملةَ الخاتمةَ في كتاب الإلحاد.

الفصل الرابع

من أسس المقاومة؟

- واردون مندسُّون
- «مكتب المغرب العربي»
- المدرسة الخطابية
- من أسَّس المقاومة؟
- «القوة الثالثة»

واردون مندسُّون

سَرَيْنا مع الحركة الوطنية في المغرب منذ غبَشِ فجرها، واستعرضْنا بطولات المؤسسين رحمهم الله، وأوردنا من مقالاتهم ما يثبت أن وِرْدَهُم وصَدَرهم كان الإيمان بالله، وطلب الشهادة في سبيل الله. ثم أرْدفْنا تاريخَ الجهادِ الخطابيِّ بتاريخ التربية المضادَّةِ واقفين طويلا عندَ سُخرِيّة العقلانيةِ الملحدة التي ربّت على الكفر وعلى الجرأة على الدين أفواجا ساخَتْ أقدامها في أوحالِ الغَرْبنةِ والتعفن الفكري.

وكان لقاءٌ في تاريخ الحركة الوطنية المغربية بين رُوّادٍ مسلمين وطنيين وبين واردين من بقاع التعليم والتربية الأوربيَّيْن. كان من الواردينَ متعلِّمون ثَقِفوا في المعاهد العليا الأوربية النافع من العلوم، ونبذتْ فطرتُهم القويةُ الخبيثَ، كما فعل محمد بن الحسن الوزاني رحمه الله الذي قرأنا مقالته في الاعتزاز والافتخار والمفاخرةِ بقرآن ربه وسنة نبيه. على النبي الصلاة والسلام، وعلى الوزاني وأمثاله الرحمة والغفران.

ومن الواردين على الوطنية المسلمة من اندَسَّ واقترب من عجلات القيادة، وانتهى به الأمر إلى سَلْبِ زمامِ الحركَةِ وتحريفها وِجهةَ اقتناعاته الثورية، أو وِجهةَ مشارِبه اللبرالية الديمقراطية.

وكلٌّ في فَلَكٍ سَبَحوا. كان مِحورَ الفلَكِ الوَطنيّ المسلم: الله والوطن. وهو شِرْكٌ في النيَّة يغتفَرُ كما قرأنا في فقرة سابقة. وتباعدَ الواردون عن الشعارِ الأوّل في دوران حَلَزُونيٍّ هابطٍ انتهى في أسْفل تدهوره إلى ما نرَى ونسمَعُ والغضَبُ يحزُّ في نفوسِنا من تنَطُّعٍ في الدين، وجُرْأة على حُرَم الدينِ.

إنه لقاء بين عقليتين، واصطدام بين نفسيتين، نريد في الفقرات المقبلة إن شاء الله أن نُراقبَه في تفَاعُلِه التاريخي الميداني أمسِ لنفْهَم بالعِبرةِ تقلُّبَهُ في البلاد اليومَ، وآفاق الحِوار بيننَا وبين أطرافه غدا.

تحَكَّمَ الأمسُ في اليومِ، ويتحكَّمُ اليومُ في غد، والنهر التاريخي جارٍ بالماء الفُرات، وبالملح الأَجاجِ، وبالزبَد والغثاء. لا يقِف التيارُ، ولا تزدادُ مكوّناتُ ماهيّته إلا اصْطكاكا، ولا يقف سَدٌّ في المجرى ليصفّيَ المياه، ويميزَ الخبيثَ من الطيب.

فالكلُّ مواطنون، والكل مناضلون، والكلُّ أنصار للإسلام وللديمقراطية. لكن لا تسألْ أحدا عن حقيقة إسلامه، ولا تدْع أحدا للجلوسِ إلى حوارٍ على أرضية إسلامية، ولا تُجادل أحدا في كون الديمقراطية بقَضِّها وقضيضها هي الشورَى بعينِها، بل هي الشورى في أبْهَى حللها.

مع الواقع الحاضر والمستقبل الـمُتَوَقَّع تتفاعل عقليتان اثنتان لكلٍّ منهما حواشٍ وظلالٌ وهوامشُ. وتُهيِّئ كُلٌّ منهما لهذه الأمة وتقترح مستقبلاً تُمليه عقلانية مُعَقْلَنَةٌ في مدارس فلسفة القرن الفيلسوف، أو يُوحي به فهمٌ للإسلام وللشورَى وللعقلانية غيرُ فهْمِ الـمُوَاطنين الآخرينَ.

مشروعان لمجتمعين، وعقليّتَان متقابلتان. فلكيلا تكون التعدديَّة الواقعةُ فعلا، المطلوبَةُ حكمةً سياسية، سيراً معَ الظنون، وحِوَارَ صُمٍّ، وتمثيلا بهلوانيا أمام الجمهور الشعبي المتفرج على المشاهد لا يدري ما وراء الستار، ولا من كتبَ المسرحية ووزع الأدوار، نكشف في فقرات مقبلة إن شاء الله عن بعض مشاهد تاريخ الوطنية كما يخبرُ عن

فكر الوطنية ومطامح الوطنية ومبادئ الوطنية من عاشوا التاريخ، وهُرِيقَتْ منهم الدماء، وتبكي على خيانَةِ أمانتهم الأرض والسماء.

نكشِفُ ما سجله التاريخ ليتجَلَّى بعض ما في الذاكرةِ الشعبية من غموضٍ، ريثما تَتَقَشَّعُ سحاباتُ صَيْفِ الحُكم المكمِّمِ الأفواهَ ليشهَدَ المسلمون المجاهدون كيف اغتيلَ إسلامهم، وكيف انتُحِلَتْ صِفةُ المقاومة، وكيف عُقِرَتْ الوطنيةُ، وكيف كذب على المسلمين في هذا البلد كهَنَةُ الشِّرْكِ المثَلَّثِ -الله، الوطن، الملك-، وكهَنَةُ العقلانية الملحدةِ، وكهنةُ الشعْوَذةِ الانتهازيَّةِ المتَقَمِّمَةِ كالجِرْذان في كهوفِ العتَمَةِ والبهتان والاحتراف.

تنتعشُ بيداغوجيا التحديث والغربنَة والتلحيد في بلادنا في أجواء الغموض، وبَخُورِ الشعارات الـمُتمسلمة. فالكشف عن تاريخ العقلانية الملحدة اللايكية اللادينية، وتاريخ اصطدام عقليتين، وتاريخ صَرْعِ الواردين المغرَّبين آباءَهم في الوطنية، جزءٌ مهم وقاعدةُ انطلاق ضروريَّةٌ لتربية عقلِ المسلمين ونفسيةِ المسلمين وأجيال أبناء المسلمين وبنات المسلمين.

إن إلقاءَ الأضواء الكاشفة على المشاهد الحسَّاسةِ من تاريخ الفِكْر الوطني والفعل الوطني يَرْقَى في سُلَّمِ الأهميَّة مَرَاقِيَ إضاءَةِ دهاليزِ الفكر الفلسفيِّ والعقلانية الفلسفيةِ الواردةِ عَلَى البلاد مُمْتَطيةً أدمغةً غسلوها هناك، وعقّمُوها، وأخْلَوها مِن آثارِ التربية الفطرية، وأرضعوها، وكفلوها، وأرسلوها إلى الميدان قنابلَ متفجِّرَةً، وأخرى موقوتَةً.

ما كان الصِّدام بين جسمين غريبٍ أَحَدهما عن الآخر، بل الاسْمُ الاسمُ، والسِّحْنَةُ السِّحنَةُ، والمنبتُ الاجتماعيّ متقاربٌ، والكُتَّابُ القرآنيُّ غَرفَ منه من غَرفَ، ورشفَ بعضهم رَشْفة أو رَشفتيْن أَهَّلتَاهُ في شبابه المتعقلن وفي كهولته المرْتدة أن يستشهد بالآياتِ القرآنيةِ ليُكْرِهها في خِتام خُطبته على شهادة الزور.

كان الصدام بين عقلية حصنها القرآن، وحصنتها تربية القرويين، ومجَالسةُ علماء القرويين، وبين عقلية أخرَى أدخلوها إلى مستشفى المجانين هناك، ونكَسوا رأسها لتستَقيءَ ما قد تكون رشَفَتْهُ في الكتاب القرآني، أو سمعته ولَقِفَتْهُ من محْضِنِ أسرةٍ يُصلِّي أبوها وتذكرُ اللهَ أمُّها.

وفي أفُقِ المستقبل -كما هو في أوزارِ الحاضِر واختلاطِه- ضرورة تعددية وحِوارٍ، وضرورةُ إرساءِ قواعدِ التربية المسلمةِ المجدِّدة المنقِذَةِ على مَتينِ عقيدَة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وعلى قاعدة كتابِ الله وسنةِ رسول الله، وعلى قاعدة الوَلاية في الله في دين الله بين مؤمنين ومؤمنات بالله وبما أنزل الله.

وفي طريق المستقبَل الإسلامي سدودٌ وقواطعُ ومَباءَاتٌ. في الطريق ما يستفِزُّ الفطرةَ السليمةَ والعقْلَ الـمُذْعنَ السامعَ المستجيب، وما يفتِنُ ببَريق زائفٍ، وما يُنوِّمُ ويُخَذّل من رواسِبِ العقليةِ الخاملةِ الخامدةِ، وما يُهيِّجُ ويُغضِب من ظلم اجتماعي لا يحتمل.

إن مطْلَبَ المستقبَلِ في آخر المطافِ تَحوُّلٌ مِن سيادةٍ عقَديَّةٍ مستكبرة إلى سيادةِ التوحيد. وتحوُّلٌ من طغيان عقلانيةٍ مستكبرة على الله ورسوله إلى عقلانية فاعلة في الكون، قوية فيه. وتحوُّلٌ من طغيان طبقة

اجتماعية مستكبرةٍ في الأرض بغير الحق إلى كلمة سَواءٍ هي لا إله إلا الله محمد رسول الله.

«مكتب المغرب العربي»

في سنة 1947 بتاريخ النصارى نقلت سفينة حربية فرنسية محمد بْنَ عبد الكريم الخطابي من منفاه في جزيرة لارِيُنْيُونْ قاصدة به فرنسا. فلما مر بقناة السويس احتال وَطنيونَ، منهم علال الفاسي رحمه الله، فهربوه بمعرفة المصريين. وكان علال الفاسي قد قضى تسعَ سنوات في منفاهُ بالكابون بإفريقيا الاستوائية قبل ذاك.

وكان علال رحمه الله وممثلون عن الأحزاب الوطنية المغاربية، من حزب الشعب الجزائري وحزبَي الدستور القديم والجديد، قد أسسوا «مكتب المغرب العربي» الذي كان نشاطهُ إعلاميا احتفاليا دبلوماسيا أكثر شيء.

التقى في مكتب المغرب العربي رجلان مُثْقلان بالأمجاد النضالية، قريبان مِن حيثُ التكوينُ والهدف، متباينان من حيثُ المنبتُ الاجتماعي، هذا بدوي قَبَلي والآخر مدَني حضري. مُتَساميان من حيثُ الإيمانُ بالله وباليوم الآخر، ومن حيثُ الصدقُ والإخلاصُ للقضية التي شغَلَتْ شبابَهما وحياتهما.

حل الخطابي ضيفا مكرّما على الدولة المصرية، وكان علال يعيش عِيشَةَ الكفافِ والتقشف، يُنفِق من ثمن أمْلاك له باعها له أقرباؤه بالمغرب، ويحَوِّل إلى صندوق حِزْبِهِ ما ينفَحُهُ به بعضُ الرؤساء العرب من عطايا سخية.

كيف تفاهم الرجلان وكيف اختلفا على القرابة العقَدِيّة بينهما؟ شخصيتان قويتان هل كان الطبعُ والحِدّةُ في كليهما عامل سوءِ التفاهُم الذي انتهيا إليه؟ أم كان المستوى الثقافي العلمي الأعلَى عند خِرّيج القرويين النابغةِ الفاسي عتبَةً سامية ينظر من سمائها إلى الريفيِّ الذي لَم يغْشَ حلقاتِ العِلْم في القرويين إلا أربَعَ سنواتٍ؟

رغْم التقارُب الفكريِّ والإخلاص للقضية وصفاءِ العقيدة لَمْ يتفاهَم الثوريُّ العسكريُّ العبقريُّ مع السياسيِّ المجاهد. تغيَّرَ القِرانُ الدُّوَليُّ على مَدَى النَّيِّفِ والعشرين سنةً التي قضاها الخطابي في جزيرته، وقضى بعضها الفاسي في مجاهِل منفاه. وأحدثت الحرب العالمية الثانية مُناخاً غيرَ مُناخ سنة 1925، مُنَاخاً تشكَّل فيه تنظيمٌ سياسي في المغرب، وتشكلت عقلية، وارتبط الزعيم الفاسي بقواعِدِ حزبٍ يقاتِل الاستعمارَ بأسلحة سياسية دبلوماسيةٍ نضالية ليسَ لها مكان في التشكيلة النفسية الإراديَّة القوية عند أسَدِ الريفِ.

عوامِلُ لَيْسَت إلا هوامِشَ إذا قورنَتْ بالعامِلِ الحَاسِم في تركيبة «مكتب المغرب العربي»، وهو اصطدامُ عقلانية تؤمن بالله وباليومِ الآخر بعقلانية مُلْحِدَةٍ. اصطدامٌ نَتَصوَّرُهُ مكبوتاً في صدور المحَلقينَ حول مائدة مكتب المغرب العربي.

حول تلك المائدة جلس مؤمنون، منهم علال والخطابي، وجلس منافق كبير، ومُلحد مجرمٌ، هو بورقيبة زعيم حزب الدستور الجديد التونسي الذي أسَّسَهُ المنافق انشقاقا عن حزب الدستور الأصلي الذي يؤمن زعيمُه صالح ابن يوسفَ بالله وباليوم الآخر.

لو كان بورقيبة رقْماً عاديا من الأرقام حول المائدة لقلنا:

لا يضيرُ البحر أمْسَى زاخراً أن رَمَى فيه غُـلامٌ بحجـر

لكنه كان شيطانَ الإلحاد مجسَّما. وكان مجردُ حضوره كافياً لِقَلْبِ طبيعةِ المؤسسة المغاربية التي ضموا إليها بحفاوةٍ بالغةٍ بطل الريف.

بأي لُغة يتفاهَم مجاهدُ الإيمان، والإيمان وحده، وعالـمُ القرويِّين الذي كانت مجالسُ وعظه في القرويين تُشدُّ إليها الرحال، مع مُغَرَّبٍ مُشْبَع عَقْلُهُ وعروقُ دماغِه بالنياتِ الشيطانية التي برَزتْ على لسانِه وفي أفعاله الـمُدَمِّرَة بعدَ استقلال تونس؟

ما اعتَلَى المجرمُ كرسِيَّ الرئاسة بعد الاستقلال حتى شرَع يُخرِّبُ ويفرِضُ بقوانينِه الشيطانية تطوُّراً نحوَ ما فعله أستاذُه إمَامُ المجرمين مصطفى كمال التركي في تركيا.

كان مصطفى الناقص في السنوات الأولى من تسلُّطه يُظْهِر عطفا على الإسلام حتى تمكّنَ وعتا عُتوَّه الكبير. وكذلك فَعل بورقيبة، حين كان يزعُمُ أنه إنما يُريدُ أن تسْقُط «الخِرَقُ الشنيعَةُ» العالِقَةُ بالمجتمع المسلم. وبالتدريج توالَت صيْحتُهُ الكافرةُ، وانكشف بعض ما كان يُخفيه من زندقته. كانت وسائل الإعلامِ تحذفُ من خطبِه وتصريحاتِه ما لا تستسِيغ أو تطيق سماعه أذنٌ مسلمة. ومع ذلك تُفْلِتُ من الرقابة بَعضُ الطَّوَامِّ مثل قوله: «الرسول محمد (أقول: صلى الله عليه وسلم) كان إنسانا بسيطا، يسافر كثيرا عبرَ الصحراء العربية، ويستمع إلى الخرافات البسيطة السائدة في ذلك الوقت. وقد نقل تلك الخرافات إلى القرآن. مثال ذلك عَصَى مُوسى. وهذا شيء لا يقبله العقل بعد اكتشاف باستور. وقصة أهل الكهف... ». [1]

(1) «الصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية»، لأبي الحسن الندوي، ص: 147.

ماذا اخترع أستاذ القرآن والشريعة في جامعة القاهرة أبو زيد حين كتب: «إن ما جاء في القرآن الكريم عن الله وعن الملائكة والعرش والشياطين ومشاهِدِ يوم القيامة، هي من الأساطير التي يجب أن تتجاوزها أفهامنا في العصر الحديث، لأنها نزلت في عصر يحتاج إلى مثل هذا السياقِ اللغويِّ لكي يفهمَه الناس»؟

أحد المجرِمَيْنِ سخّر سلطان الدولة، والآخرُ سلطانَ الأستاذية. والتدمير واحِد، من مصْدَر ومَوْرِدٍ أطلنا في التنقيب عنهما لنعرف من أين أُتِيَ المسلمون، وبِمَ ابتُلُوا، ومَن هم جُرثومةُ البلاء.

كان حضور ضمير متعفِّن مثلَ حضور بورقيبة حول مائدة مكتب المغرب العربي كافيا ليخنُقَ الجوّ الذي يتنفسهُ علال العالـمُ الواعظ والخطابي الواعظ البطل. فإذا أُضِيف إلى ذلك الاختلاف في تقديرِ شخصيةٍ قوية وشخصية قوية، والاختلافُ بين أسلوب وأسلوب، والاختلاف بين تاريخ وتاريخ، فهمنا سِرَّ النّفور الذي شعر به الخطابيّ في نادي السياسيين، والذي سَجَّلَهُ تلميذٌ وصديقٌ للخطابي اسمُه يوسُفُ الرُّوَيسي في كتابه «الخطابي». [1]

قال: «لقد كان الخطابيُّ يُكِنُّ كُرْها شديدا، وشكّاً لا حُدودَ له للأحزاب السياسية. لأنه يرى فيها نموذجا تنظيميا منسوخا من الغرْب. وفي رأيه أن الشعب الذي يحصل على الاستقلال تحت بعض الظروف الدّوَلية من خلال حزبٍ سياسي مُعَيَّنٍ لن يَكسِبَ شيْئاً سِوى حلول الزعماءِ السياسيين في السلطة محل الحكام الأجانب».

ونشرت مجلة «آخر ساعة» بتاريخ 18/ 7/ 1952 تصريحا للخطابي قال فيه: «ومن سوء الحظ أنني عشت لأرى أفكاري هذه تشتَّتَتْ،

(1) «الصراع بين الفكرة الإسلامية و الفكرة الغربية»، لأبي الحسن الندوي، ص: 417.

ولأشْهدَ مَصارِعها واحدةً إثْرَ الأخرى. فقد دخلت الانتهازيّةُ، وحُمَّى المتاجَرةِ في قضيتنا الوطنية [...] ووُجد من بين أعضاءِ هذه اللجنة من يسعى لتفتيتِ وحدة قضيتنا وتجزِئتها. ففي الوقت الذي كنتُ أفكر فيه لإدماج بلدان المغرب العربي في مشكلة واحدة، نشأَ -ولا أدري كيف- اتجاه لتقسيم هذه البلدان إلى وحَداتٍ منفصِلَةٍ».

كان الخطّابي، بعدَ أن يَئِس من أي خير يأتي من مائدة مَكتب المغربي العربي وإعلامه ودبلوماسيته، قد أسس «لجنة تحرير المغرب العربي» المكوّنة من نفس الأشخاص. فنقْرأُ في النص الأوَّلِ الذي نقلناه عن الرويْسيِّ فراستَه في الزعماء السياسيين، تلك الفراسة التي تحققت -كما سنرى قريبا إن شاء الله- ونقرأ في تصريحه للمجلة خيبةَ أمله في زُعماءَ يفكرون بمنطق غيْر منطقه.

كان يريدها وَحدةً جامعةً، وكان الزعماءُ يريدونَها زعاماتٍ قطرية. كان يفكر تفكيرا واسعا، وكان كل منهم مرتبطاً بتنظيم. كان هو واعِيا بأن التنظيمَ المنسوخ عن الأجانب لن يؤدّي إلا لنظام مَثيلٍ يحتل فيه الوطنيون المطرْبَشونَ كراسِيَّ كانت بالأمس تحتلها قبَّعاتٌ. وتحت الطرابيش والقبعاتِ أدمغةٌ متناسخة متماثلةٌ.

كان الخطابي يكره عبارة «المغرب العربي»، ويعوضها بعبارة «الغَرْب الإسلامي».

المدرسة الخطابية

حصل المغرب على الاستقلال عن طريق المفاوضات الدبلوماسية، واعتلى كراسيَّ الحكم طبقةٌ تفرَّسَ فيها ابن عبد الكريم ما قرأناه منذ حين. وخابت آمالٌ. وسار على خط الخطابي صاحبُنا الذي اتخذناه

دليلا على سيرة الثورة الريفية: محمد سلام أمزيان رحمه الله. فقد فجر ثورتَه سنتين بعد الاستقلال، وقاد قبيلته الريفية «بني ورياغل» -وهي قبيلة ابن عبد الكريم أيضا- في انتفاضة أخمِدَت بالحديد والنار.

وامتدتْ ثورةُ الخطابي وخطُّ تفكيره قبل الاستقلال وبعدَه متمثلةً في أشخاصٍ ضربوا بالبندقية في جيش التحرير، وطافوا عقودا من الزمن يبشرون بالفكرة الوحدوية التي ظن الخطابي أنها صُرِعَت واندثرت.

يقول الفقيه محمد البصري القائدُ العامُّ للمقاومة وجيش التحرير: «فعناصر جيش التحرير الذين خاضوا المعارك هناك هم نفس الأشخاص الذين حملوا السلاح مع عبد الكريم الخطابي [...] نعم، نفس الجيل. كانت أعمار المقاتلين في حدود ستين سنة. وكانوا رُماة من الطراز الأول [...] إذَنْ يمكن القولُ بأن المدرسة النضالية لعبد الكريم الخطابي لم تُغلِق أبوابَها بصفةٍ نهائية كما تَصور الاستعمار وأذنابه، وأنّ ما بذَرَهُ فيها أَيْنَعَ حينما انتقل إليها جيش التحرير، وانتقل إليها حتى بنفس عُمْق المغرب العربي الذي كان لا يزال يؤمن به وهو في القاهرة».

الفقيهُ البصريُّ -شاهدُنا في هذه الفقرة- رجُل من الجيل الوطنيِّ الثاني. دخل الوطنية من بابها الواسع: من باب شرف المقاومة البطولية التي زعزعت أركان الاستعمار، رَجُل من طينةٍ نادِرةٍ، وبالأَخَصِّ الأبقى الأنقى: رجلٌ تكوّنتْ نفسيته في وسَط قرَوِي سليم الفطرة، وفي حِجْرِ أبٍ علَّمَهُ صغيراً الوفاء لدينه وأمته، وعلمهُ كراهية الكافر المستعمر.

ثم تكوَّن عقلُهُ في المعهد الديني بمراكش على مِثْلِ الحُصُرِ التي يُلقِّنُ عليها أمثالُ علماء القرويين ما تلقنه علال الفاسي.

فطرةٌ سلمتْ، وعقل لم تُلَوِّثْهُ التربية المضادة، ورصيد مجيدٌ في المقاومة قبل الاستقلال، وفي مقارعَةِ انحرافات ما بعد الاستقلال، وفي محاولات لإصلاح ما أفسدَه الجالسون على كراسيِّ الاستقلال ممن تفرسَ فيهم الخطابي أنهم لن يكونوا سِوَى نظراءَ للمحتل الأجنبي.

وقضى شاهِدُنا ثلاثة عقود من عُمْر نضجه يطوف في بلاد العرب وأقطار المغرب ببشرَى الوحدة التي لا تزال حُلْم حياته، كما كانت أملَ الخطابي، وكما هي أمل كل مسلم يسمع القرآن ويستجيبُ لدعوة الله عز وجل الأمّةَ وتبشيرَها بأنها أمة واحدة.

قضى ثلاثة عقود منفيّاً مشرداً نظيفا لم يَجْن من عوائد ماضي نضاله إلا السمعةَ الحميدَةَ إن كانَ غيرُه جنَى على الأمةِ بطَائِلةِ ماضٍ نفخت فيه الدعايةُ الكاذبة. وهل تنتظر الهِمم الكبيرةُ جزاءً على خِدمة الواجبِ وطاعة الله إلا من الله. حُكِمَ عليه بالإعدامِ أربَع مراتٍ على أربع «جرائم» ما من تهمة فيها إلا وهي وِسامٌ إضافيٌّ على صدره. ونرجو الله له في العقبى مصير السعداء، ولكل الصالحين المصلحين ممن غرَسوا بالنية المؤمنة فأكلْنَا من غرسهم الحلْوَ والـمُرَّ.

قال الفقيه البصري مستحضراً الروحَ الجهاديَّة التي بعثها الخطابي وحاوَلَ صَرْعَها والقضاء عليها الجُلَساءُ في مكتب المغرب العربي: «فإذا كانت حروبُ مواجهة القوات الاستعمارية في بداية القرن قد شهدت انخراط المناضلين الجزائريين في صفوف الثورة الريفية، وتجنُّدَ المناضلين الريفيين مع عبد القادر الجزائري، فإن حروب الاستقلال أعادت إحياء هذه الروح. وأكدت على المصير المشترك لشعوب الـمَنْطِقة. فصار الالتحام بين الثورتين المغربية

والجزائرية واقعا وحقيقة يُتَرْجِم التنسيقَ بين جيْشي التحرير في القطرين الشقيقين». [1]

كان التنسيقُ الذي يتحدث عنه صاحبُنا القائد العام المغربي مبادرةً مغربيةً جزائريةً توارثَ حَمْل شعلتِها الرجالُ منذ عهد عبد القادر الجزائري مفْخَرَةِ المجاهدينَ، إلى ثورة الخطابي، إلى أبطال المقاومة وجيش التحرير.

لكن الذي حدثَ من جرَّاءِ مبادرات الاستعمار، وتخاذلِ بعض السياسيين المغاربة، هو إجهاض مبادرة الوحدةِ ودَفْنها فِي مقبرة المفاوضاتِ بِإِكْسْ لِبان. أغرتْ فرَنْسَا بعضَ السياسيين المغاربةِ ممَّن لا ثقَة لهم بالله وعونه، أو مِمَّن لا وَعْيَ لهم بالخُطة الاستعمارية، أو مِمَّن لم يجِدُوا مُنْدُوحَةً مِن إعطاء تنازُلاتٍ في دبلوماسية «خُذْ واطلُبْ». أغرت المغاربةَ بالتفاوُض، وقد أخذ عود جيش التحرير يشتد، وبأسُهُ يَبْطِشُ، لتتفرَّغ فرنسا للثورة الجزائرية فتخنقَها في مهدها.

من السياسيين الوطنيين المغاربة مَن ظَنَّ أن استقلال جناحي المغرب العربي -تونس والمغرب- سيؤدي خدَماتٍ للثورة الجزائرية، تعودُ بالفائدة الاستراتيجية ما لا يعودُ بِه القتال على جبهة عريضة.

هنا تَرْتطِمُ الحسابات السياسية بصخرة الكيْد الاستعماري. وهنا تفْلِت فُرصةٌ تاريخية لا تعوض. وهنا كانت تظهر مَزِيّةُ المبادرةِ الذاتية لو أتيحتْ لها حياة. وهنا تصطدم عقليتان ونفسيتان: إحدى العقليتين كان لها بطريقة التفكير الأوربي قُرْبَى، وإحدَى النفسيتين كان لها من النشأَةِ الحضَرِيّة ما لا يثبطُ عزائمَ أمثال الفقيه القروي البدوي.

(1) مجلة السؤال، السلسلة الجديدة 2.

فقهاءُ وحفنة من المثقفين، وجمهور قرويٌّ من الرجال الأشِدّاء الذين قُهِروا زمانا، واحتُقِروا، واستُغلوا، وأحْنَوْا الرأسَ بعدَ جهاد طويلٍ في جبال المغرب وصحاريه.

أحنَوْا الرأسَ أمامَ الغطرسة الاستعمارية، لكن ما في الرأس مِن أفكار حرّةٍ، وما يسكن الذاتَ من روحِ الإباء، وما يتبَطَّن في القلوب من إيمان بالله، لم يَمتْ. واسترد الفقهاءُ الروحَ والإيمان والفكرة الأبية في صفوف جيش التحرير. واستردت الحفنةُ المثقفةُ، وطلَبَةُ البادية حمَلَةُ القرآن الكريم، وجمهورُ الفِتيانِ الـمُعْجَبين بأسود ابن عبد الكريم الشُّمْطِ الرُّمَاةِ الماهرين، الثقة بالنفس، الشجاعةَ والقوةَ والدينَ.

استردوا في جيش التحرير وفي المقاومة المسلحة شخصية حرَّة لَمْ تمت ولم تخمد جمْرتُها قط، وإنما بقيت كالكَمين المتوثِّب حانت له فرصةٌ يومَ نفَخَ نَفخَةَ النفيرِ أمثالُ الصنهاجي والزرقطوني والفقيه البصري وعلال بن عبد الله وعبد الكريم الخطيب. رحم الله من مات ومن بقي ورحم الله الجنود المجهولين المجاهدين ممن لم نُسمِّهِمْ، المعروفين عند الله تعالى.

من تغذّى من الجماعة المجاهدة في حروب التحرير وسِريَّات المقاومَةِ من وعظ علال، وأناشيد علال؟ من جلس منهم في تنظيمات حزب الشورى أو حزب الاستقلال؟ من تَأَثَّر بالتربية الوطنية في المدارس الحرة ذاتِ الشأن العظيم في إحياء الأمة؟ من هبَّ لنداءات أمثال الحاج أحمد معنينو وعبد العزيز بن إدريس؟ من أثارتْ مشاعِرَهُ في المحافل والمجالس العلمية قصائدُ البلبلِ الصداحِ فقيه الفلاَح والصلاح ذي الخصالِ الصِّحاحِ المِلاح محمد المختار السوسي؟ رحمهم الله جميعا وأسكنهم فسيحَ الجنان، من كان منهم يؤمن بالله واليومِ الآخر، اجتهد بنية صالحة فأصاب أو أخطأ، وجاهد بالكلمة والبندقية.

وإن العِبرةَ لنا الباقِيةَ من ذلك التاريخ لا تأتينا من التنقيب عن تفاصيلِ ما وراءَ ادعاءِ أُبُوَّةِ المقاومة وجيش التحرير من هذا الجانب الحزبي أَو ذاك. إنما تأتينا العبرةُ من مُجْمَل تأمل القوَى البشرية التي تحركت، وتأمُّل بواعثها، وتأمُّل تصادم العقليات، وتفاعُلِها مع مُفاجئاتِ الأحداثِ ومبَيّتاتِ المكائد. وتأتي أيضا من التَّأمل في بعض الوجوه التي تألّقتْ ثمّ خبَتْ وماتت. وأخرى لا تزداد ذكراها إلا تألُّقا. ولَيسَ إلا من بذرَ بحاله وقالِه في الأجيالِ اللاحقة كلمة التّقْوَى والإيمان قبلَ رحيله إلى دارٍ لا يُتعامَلُ فيها بِزَغَل البهتان.

من أَسَّس المقاومة؟

نجد شهادات أخرى تثبت ما لمح إليه الفقيه البصري من تصدي القواعد الشعبية لمقاومة الاستعمار بعد فراغ الساحة من الزعماء السياسيين.

نجد شهادة التحقيق في مذكرات عبد الرحمن الصنهاجي –رحمه الله– رفيق الشهيد الزرقطوني رحمه الله وشريكه في تأسيس أهم خلية مقاومة بالدار البيضاء في عهد مبكر. ينفي الصنهاجي نفيا باتا أن تكون الأحزاب السياسية هي أم المقاومة وأباها. ويفصل العمليات التي قام بها ورفاقَه من أبناء الشعب بالتوقيت والأشخاص والتطور والمعاناة.

نجد شهادات التحقيق في مذكرات الوطنيين الحقيقيين أمثال الفقيه معنينو والشريف القادري والأستاذ عبد الهادي بوطالب والرئيس عبد الله إبراهيم بعد كتابات الزعيمين الجليلين علال الفاسي ومحمد بن الحسن الوزاني، وبعد تدوينات الأستاذين الكبيرين محمد المختار السوسي ومحمد إبراهيم الكتاني في شأن العذاب الذي عانى

منه الوطنيون في معتقلات الاستعمار وسجونه، تلك المعاناة التي يحق على المتاجرين في تاريخ المقاومة والوطنية أن يطلعوا على تفاصيلها المؤلمة ليخرس القراصنة الأدعياء.

كاتبو المذكرات الصادقون إن سكتوا -بعضهم- عن الدور الأساسي للطبقات الشعبية، فهم لم ينفوا ذلك ولم يتدثروا بأسلاب الشهداء. كيف وهم كانوا الرجالَ، وكان لهم ولا يزال من فعالهم الحقيقية أمجاد تخلد ذكرهم في صحائف التاريخ. نرجو الله أن يتقبل منهم، وأن يُثيبهم على جهادهم.

ونجد شهادة تستحق الاحترام وتكتسي صدقية تاريخية فيما خطه رجل من أحرار فرنسا الذين شاركوا المقاومة الشعبية، وساندوا، ودافعوا، ووقفوا المواقف الشريفة التي يعرف قيمتها ذوو المروءات من كل جنس ودين.

ذلك هو المحامي الفرنسي جان شارل لوكران الذي انتصب في المحاكم الاستعمارية بشهامة وشجاعة ليدافع عن المظلومين من أبناء الشعب المتواضعين. إن لم تغتل الأيدي الاستعمارية الآثمة جان شارل لوكران كما اغتالت الصحفي الفرنسي الحر لوميكر دو بروي فقد كادت. وما أفْلَتَ من مؤتمرات الغوغاء الفرنسيين الحانقين الذين دبروا لاغتياله مرات إلا من قريب.

يصف جان شارل لوكران في كتابه «العدالة، وطنُ الإنسان» الذي نشر في الدار البيضاء بعيد الاستقلال نفسية الانتهازيين ونفسية قراصنة التاريخ فيقول [1]: «أعلام! فرح! صرخات!

(1) كتاب العدالة، وطن الإنسان، لجان شارل لوكران، ص: 7.

موسيقات! استعراضات! الحمد لله! رجع السلطان [محمد الخامس من المنفى]!

«منذ الآن هذه ساعة الالتحاقات المستعجلة والتَّبَرءَاتِ المتحمسةِ. خصمُ الأمس يَثني الرُّكب أمام العدو المنتصر ويَتَفَتَّح خضوعه في مرونة ظهره [المنحني]. أي موكب! أية فخفخة! كم من نبلاء [من أذناب عهد الاستعمار] يلقي بعضهم بعضا! أية عواصف جديدة! أي إخلاص طازج!... أي غثيان!

«كل هذا المشهد معهود كما هو الضَّعف البشري معهود».

ويدخل المحامي الكبير الشهم في الموضوع فيقول: «أرفع صوتي باسم الذين عرفتهم في هذه السنوات القاسية، من 1953 إلى 1955: لم يكونوا من الكبار ولا من الأقوياء.

«أتكلم باسم الصامتين.

«هؤلاء هم الذين حكمت عليهم المحاكم العسكرية بالإعدام، والذين رُموا بالرصاص في سجن الحنك والعاذر ممن رافقتهم إلى خشبة الإعدام في صباحات غائمة. هؤلاء هم المعذبون في مخافر الشرطة. هؤلاء هم المحشورون في السجون المركزية، الذين أدينوا بلا حساب، للتخويف وضرب المثل.

«أتكلم أيضا باسم المتواضعين المجهولين من سكان الدوار أو المدينة الذين كانوا يتوجهون إلى الله مصلين في انتظار كلمة «عدالة» (الهلالان حول كلمة عدالة من وضعي). وأتكلم باسم حشود الأمهات، هؤلاء النسوة اللاتي كن يتحلقن من حولي عندما أرجع من زيارة ذويهن، واللاَّتي كن يسألن الله أن يحفظني، وذلك جزائي الوحيد وما أعظمه من جزاء!».

ويمضي المحامي الكبير ليفتح الصفحة المجيدة التي سجلت فيها بطولات أمثال الصنهاجي والزرقطوني والفطواكي والحنصالي والفقيه البصري ومن لا يحصون من «الجنود المجهولين» شهداء الحق رحمهم الله جميعا. يَذكر محامي المستضعفين النبيل الساسة والزعماء الذين أفرغ الاستعمار الساحة منهم وأودعهم السجون والمعتقلات والمنافيَ عابراً ليبرز الدور الأساسي للضعفاء المتواضعين الأقوياء المستأسدين رحمهم الله.

يقول: «لم يكن السياسيون، ولا المفكرون، ولا الخبراء في فنون الألاعيب السياسية والزيارات هم الذين أرجعوا سيدي محمد بن يوسف إلى عرشه ليصبح لقبه «جلالة محمد الخامس». تلك القوى [السياسيون والمفكرون] كان وجودها ضروريا، لكنها كانت في مأمن. إنما اللذين جعلوا من السلطان محمد بن يوسف جلالة محمد الخامس هم العامل، والإسكافي، والخباز، وبائعو الثياب البالية، وبائعو النعناع. هؤلاء المتواضعون هم الذين غادروا ذات يوم عملهم وأسرهم ونذروا أنفسهم للقتال في سبيل وطنهم وملكهم.

«عانوا من الاعتقالات الوحشية ومن المقارع ومن التفتيش العنيف الخسيس، ومن المداهمات التي يبررها أدنى اعتراف مصنوع أو مقالة جواسيس عملاء. عانى هؤلاء المتواضعون من نهب «القوات المساعدة» لأمتعتهم وأموالهم، وتوبعوا كما يتابع الصيد، وكدسوا كالأنعام في المستودعات. عانوا في مخافر الشرطة من التعذيب بالكهرباء ومغاطس الماء القذر والتعليق من الأيدي والأرجل بينما الرأس في المياه المشبعة بالصابون.

عانوا من الخنق البطيء في بعض الزنزانات، ومن الجوع والعطش أياماً وشهوراً».

أقول: لا ينكَر العمل الجليل الذي قام به الزعماء السياسيون وأنصارهم الوطنيون: أيقظوا الهمم، وبصروا الناس بحقوقهم، ونظموا، وعلموا، وضربوا المثل بأنفسهم وتضحياتهم وريادتهم للرجولة والشجاعة والإقدام. لذلك فوجود الساسة والمفكرين ضروري كما قال المحامي الكبير، لولا دورهم الريادي لغط الشعب في سبات عميق.

«القوة الثالثة»

نَستعير عبارة العنوان من الفقيه البصري شاهِدِنا في هذه الفقرة أيضا.

كان الكفاحُ المسلَّحُ هو المدخل الوحيد الصحيح إلى تحرير المغرب العربي في نظر الخطابي. واختار السياسيون المرتبطون بقواعِدَ داخل المغرب، وبتنظيم، ونظريّة «خذ وطالب» قبل كل شيء مدخل المفاوضة والمناورة. هذا المدخل الذي فتح الأبواب «للقوى الثالثة»، قوَّةٍ طفيلية على الوطنية، دخيلةٍ فيها، أجاد الاستعمار اللعب بها على رقعة الشطرنج التفاوضية.

نستمع إلى الفقيه محمد البصري، الذي عاشَ الأحداثَ، يراجِعُ الموقف بعد أربعين سنة. قال: «عبد الكريم أسطورة، لم يكن حاضرا برأيه، ولم يكن يتوفر على وسائل للتعبير عن رأيه. وما يمكن تسجيله أن عبد الكريم الخطابي لم يتخل أبدا عن موقفه الثابت القائل بأوْلوِيّة

الكفاح إلى حينِ تحرير المغرب العربي، اعتماداً على الشرعية النضالية المدعومة من طرف الشعب.

قال: «غير أن هذا الموقف لم يكن يَحْظَى بقبول بعض القيادات الوطنية المغاربية التي فضلت الدخول في التفاوض من أجل حل سياسي رافقه شعار «خذ وطالب». وكان لهذا التعارض في الموقفين انعكاسات على مكتب المغرب العربي بالقاهرة. هذا المكتب الذي كان ينظر إليه على أنه يشكل وحدة منسجمَة».

ويمضي الفقيه في تحليله ومراجعته لينسب الخطأ الكبير في تلك المرحلة إلى قلةِ خبرة القوى الوطنية بالموقف العالمي، وبالقوى الاجتماعية التي كان يمكن أن تعبأَ، وقلة الاطلاع على «التناقضات الأساسية التي كانت تحول دون تطور المجتمع، وتحديدِ عدُو الثورة بشكل واضح، والقوى المحركة للثورة».

مراجعة وتحليل متأخران يستعمل فيهما الفقيه مُكتسبَه من لغة التحليل الماركسي الثوري. كان هُوَ والعاملون في الحقل السياسي يعرفون من هُوَ عدوّ «الثورة»، يتوهمونه منحصرا في الاستعمار وفي «القوة الثالثة». فلما أحرز المغرب على الاستقلال التفاوضي ووقعت الوطنية في «الفخ التاريخي» عرف البصريُّ بالمخالطة والمعايشة والمراقبة عن كثَبٍ ومشاركة لا عَنْ كتُبٍ ومصطلحات إديولوجية، مثل المكتَسَب من مصطلحات إديولوجية تقدمية ماركسية، من هو عدو التطور والتقدم. النظامُ الملكيُّ الوِراثِيُّ، والمغَرَّبُ مائة في المائة على سُدّة العرش بالذات. وثار الفقيه بفطرته الأبية وحِسِّهِ الوطنِيِّ الإسلامي، وحُكم عليه بالإعدام أربع مرات.

بعد أربعين سنةً من التجوال في المنافي، ومن الاطلاع على دخائل الحكَّام العربِ بالمخالطة عن كثَب، يراجع الفقيه ماضيَ الحركة

الوطنية ويكتَشِف الثغرة التي منها أُتِيَ على مشروعِ المقاومة وجيش التحرير، وهو مشروعُ الكفاحِ المسلح الـمُوَحَّدِ حتَّى التحرير. هذه الثغرة هي «غياب الرؤية الفكرية الواضحة للثورة أثناء الثورة». كان ذلك الغيابُ «سببا في تأخير انبثاق قيادةٍ حزبيةٍ من العمال والفلاحين منبنيةٍ على مفهومٍ علمي صحيح».

في الأربعين سنةً التي تلت الأحداث التي يُحللها بطل المقاومة البصريّ مرَّت الحركةُ الوطنية بهزات وانشقاقاتٍ مردُّها إلى انجذابِ الجيلِ الثاني من الوطنيين، منهم المغرَّبون ومنهم الأصلاءُ كصاحبنا، إلى «علم» الثورة الماركسي. نقرأ في شهادة هذه الفقرة آثار ذلك الانجذاب، ونقرأ وراء سطورِ الشعارِ البصْريِّ الجديدِ «الكتلة التاريخية» رجوعا خجولا إلى الأصولِ الفطرية. ونرجو أن تكون «الكتلة التاريخية» كلمةً حُبْلَى بوَليدٍ يحتضنه الإيمان، والإيمان وحدهُ، كما احتضن جهادَ الخطابي الذي عَلَّم الثُّوَّارَ الماركسيين أنفُسَهم كيف تكون الثورة.

ما كان الأمر في ماضي المسلمين ولا يَكون في مستقبلهم قضية بندقية فحسبُ. «والرأي قبل شجاعة الشجعان» كلمةُ حكمة. لكن هل كُتب علينا أن يستفيدَ العالَمُ من رجالنا ثم نعود نحن لنلتقِط من «علمهم» المتساقطات؟ هل عَقُم العقلُ المسلم عن التعلُّم المزدوج من الوحْي المنزّلِ ومن صفحات كتاب العالَمَ دونَ أن يَستَسلِمَ لإديولوجيات بادتْ وانقرضتْ؟

تفاوضَ الوطنيون المغاربَةُ مع فرنسا في إِكْسْ لِبانْ جنبا إلى جنب مع رجال اختارتهم فرنسا من «المعتدلين» الحزبيين، ومن شخصياتٍ وقُدماءِ عساكِرَ كانوا مذبذبين بين الرفض والقَبولِ لِما فعَلته فرنسا حين نفَتْ السلطان الوطنِيَّ محمد بْنَ يوسُف رحمه الله ونصبت ابن

عرفَة الدُّميَةَ المسكينةَ رحمه الله. شخصياتٌ وعساكرُ قالوا كلمةً ورفضوا تعاوُنا مع الاستعمار لحظةً من لحظات التاريخ، فزُجَّ بهم جنبا إلى جَنب على مائدة المفاوضات مع من صنعوا التاريخ.

أستغفر الله، وأعوذ بالله من انزلاق الكلامِ. فما يصنعُ إلا الله، والخَلْقُ فَعَلَةٌ مصيبون تارةً خطاؤونَ أخرى. أستغفر الله، وأعوذ بالله، وأرجع للسياق.

«المعتدلون» والشخصيات وقدماء العساكر هم «القوة الثالثة» التي خفّفَت لهجة التفاوُض، ونطقتْ على المائدة المستديرة ما أُوحِي إليها به من تنازُلات في الدوائِر الفرنسية.

رفض الفقيه علال الفاسي مبدأ التفاوض، مؤيِّداً مواقِف جيش التحرير. فلما وَقَعت المفاوضات ووُقع الاتفاق أذعن، وما كان له إلا أن يُذعِن وقدْ تمكَّنَ النّشَطاءُ من شباب الحزب ومغَرَّبيه من المقادة أثناء غيابه الطويل في منفى الكابون.

نرى إن شاء الله كيف نُحِّيَ العلماء الفقهاء المؤسسون في فقرة لاحقة. ونقرأ هنا كيف دخلت «القوة الثالثة» في المعادلة لتسحب البساط شيئا فشيئا من تحت أقدام المقاومين ومجاهدي جيش التحرير.

قال الفقيه محمد البصري: «وأيَّدَ علال هذه الاتفاقية، وتغيرت استراتيجية التحالُفات التي كانت قائمةً من تحالُف الـمَلك والشعب وحزب الاستقلال إلى تحالف بين الاستعمار والقوة الثالثة التي سُلِّمَتْ إليها السلطة. وأصبح الباب مفتوحا في وجه من أراد الالتحاق بهذا المخطط. [...] وتم ترتيبُ الوضع بشكل جديد».

قال مراجعا الماضي بوعي جديد، وخبرة مكتسبة: «وقد وعينا نظريا في مرحلة لاحقة أن البورجوازية الوطنيةَ كانت في نضالها ضد الاستعمار تسعى إلى أن تستلم المصالح السياسية والاقتصادية. ويمكن القولُ بأن موقفها من إكْسْ لِبانْ وقَبُولَها بقيادة الـمُوالين لفرنسا «حكومةِ البَكّايْ والمجموعة»، وبتعيين ضباط (مغاربة) من الجيش الفرنسي مُعادين للحزب عُمالاً على رأس كل الأقاليم، ينسجم وهدَفَها نحو الاستقلال السياسي المحدود الذي يضمنُ مصلحتها كطبقة، دون النظر إلى ما إذا كانَ هذا الاستقلال سيحقق مصالح الشعب كَكُلٍّ. فمصالحها هي التي كانت تحدد آفاقها وتحدد حركتها».[1]

لا شكّ أن النظرية الماركسية، وتسمية الأشياء بأسماءٍ مُحدّدة، والتجربةَ السياسية الواسعة على مدَى أربعين سنةً، ساهمت في توضيح الرؤية وتجليةِ ما وراءَ الستار التفاوُضي من تفاعلاتٍ مصلحيةٍ طبقيةٍ.

هل كان علال الفاسي والعلماء المؤسسون والفقهاء المقاومون ومعهم الشعب العامل الفلاح القروي ضالعين عن جهل بالنظرية الثورية في مخطط الإجهاض الاستعماري، أم كان علال والآخرون ضحية انجِراف التربة من تحت أقْدامهم؟

(1) كتاب العدالة، وطن الإنسان، لجان شارل لوكران، ص: 7.

الفصل الخامس

اليَسار والتقدمية

- يسار وتقدمية
- مرجعية «علم الثورة التقدمية»
- المنهجية والموضوع
- نقد الرأسمالية

يسار وتقدمية

تقسيم الأحزاب السياسية إلى يمين ويسار يرجع تاريخُه، كما يرجع تاريخ اللادينية، إلى الثورة الفرنسية. في مجلس الثورة اصطف المعتدلون المحافظون عن يمين رئيس المجلس، واصطفَّ المتحمسون للتغيير عن يساره.

وتبلورتْ سِمات اليسار والتقدمية، وفشا المصطلحان، في الممارسة الثورية الشيوعية. ولم يكن لأيٍّ من الكلمتين ذكر أو رواج في الحركة الوطنية قبل الاستقلال وفي مرحلة الانتقال. وإنما أخذتْ الفوارق بين محافظين ويساريين تقدميين تتضح شيئا فشيئا في أعين شبابِ الحركة الوطنية من الجيل الثاني لما أخذ المغاربة بمقاليد الدولة والإدارة، وتعين أخذ قرارات تمس بالمصالح الاقتصادية الاجتماعية لطبَقة المتمولين الذين التفوا بعد الاستقلال بكثافة، كما يفعل في كل عصر ومصر أصحابُ المصالحِ الخائفون من تغيير يُديلُ من امتيازاتهم، الراجون مزيداً من العائدَاتِ بتسللهم إلى مواطن أخذ القرار.

أخبرنا الفقيه البصري، كما قرأنا في الفقرة السابقة، أنّ وَعْيَه بلُعبة الطبقة المتسللة إنما اكتمل عنده بعد تأمُّله وتجربته خارجَ الغَمَراتِ والمعارك طيلةَ ما يناهز أربعة عقود. وأخبرنا أن شباب المقاومة وجيش التحرير لم يكن لديه مفتاح نظري يسدد رمْي البندقية برأي «علم الثورة».

ما هو «علم الثورة» ومفتاح الفهم الذي كشف الغطاء عن أعين طائفة من الجيل الثاني في الحركة الوطنية حتى نشأ يسارٌ تقدمي ما لبث، بعد الاستقلال، أن استقوى كيانُه داخلَ حزب الاستقلال،

ثم اضطربَ، ثم انشق وانفصل، ثم توالد وتكاثر حتَّى حصَلَ لدينا بعد أربعين سنة من الاستقلال طَيْفُ أَلْوان تقدمية يسارية يموجُ موْجُها من شيوعية متطرفةٍ ثورية، إلى اشتراكية اشتراكية، إلى اشتراكية ديمقراطية؟

وهل لا يزال المغرب بحاجة إلى مفتاح و«علم الثورة» بعد أربعين سنةً من الاستقلال يستعيرهُ الوطنيون القُدامى والـمُحدثون، وتستعيره الأجيال التي تقطف أشواك الاستقلال وعَوْسَجَهُ، من نظريَّة عَفَّى الزمان على مشروعها؟

كان ابن عبد الكريم الخطابي رحمه الله أُعْجِبَ بالبطل التركي مصطفى كمال في سنواتِ البطولَة والصمود أمام الغزو الأوربي. سنوات قليلةٍ كان فيها الجنرال الزنديق يُخفي كفره ويعلن أنه نصير الإسلام. اغترَّ الخطابي كما اغترَّ العرب والمسلمون مدَّةً، ثم اكتشفوا ما وراءَ شعاراتِ ما قبْلَ التمكن في السلطة، فرجعوا، ولعنوا المجرمَ الذي كان الشاعِر أحمد شوقي ينشِد فيه مغترّاً مع المغترين: يا خالد الترك جدِّدْ خالِدَ العَرب.

وحين أطلق التُّرك على جِنرالِهِم لقب «غازي»، وكان اللقب رمْزاً للغزوة الأصيلة مثلَ غزوات المسلمين وغزوات خالد بن الوليد رضي الله عنه، أطلق العرب على الخطابي نفس اللقب أيام مجده وانتصاراته الباهرة، فهو غازي العَربِ إن كان للترك غازٍ.

فترة اغترار ثمَّ اكتشف المسلمون واستنكفوا.

أمَّا الفكرُ الثوري التقدمِّي الماركسي فيستوطن العقول، وتستعمر مصطلحاتُه اللسان، ويخالط الأدمغة، ويعجِنُها، ويَبقَى جُزءاً من ماهيتها.

إنه لا بُدَّ لكل عَمَلٍ جادٍّ من عِلْمٍ يَؤُمُّ تقدمه، وضوءٍ كاشف ينير طريقه، وحصيلة تجربَةٍ بشريّةٍ تُتَّخذ منها العبرة. وللمؤمنين قبل هذا وبعده من نور إيمانهم بالله، واستجابتهم لداعي الله، وطاعتهم لله ورسوله، عُرْوةٌ وثيقة تعصمهم من الانزلاق، وتشدهم إلى الجادَّة.

كان زادُ العلماء المؤسسينَ، مثلَ علال الفاسي، من معرفة العمل السياسي الحرَكي ما يتغذَّوْن به من فِكر الثورة العربية في سوريا، وما يكتبُه شكيب أرسلان القومي قبل القومية، وما يتناولُه السلفيّ محمد رشيد رضى رحمه الله من موضوعات. كانَ نقْدُ الوقتِ في كلمة واحدةٍ: الاستقلال وطرد الاستعمار.

فلما آن أوان المفاوضَة مع الاستعمار حضَر المفاوَضة عن الوطنيين شبابٌ له دراية بلغة الخطاب الدبلوماسي، واستعدادٌ لتلقِّي الفِكْرِ الغربيّ. ذلك الاستعداد الذي تحدّثنا عن طوله وعَرْضه وسمّيْنَا ناشئتَهُ «التربية المضادة».

بعد الاستقلال، وبعد تصدِّي الجيل الثاني لتسلم السلطة والاستقلال بها لبناء الدولة الحديثة ألَحَتْ الحاجةُ على أمثال عبد الرحيم بوعبيد وابن بركة، مُمَثِّلي الطبقةِ المتواضعة وممثلي الشباب النابغ، إلى مفتاح فهم وعمل يحلُّون به المعضلة الاجتماعية، ويفهمون به انقسامَ الرأي في حزب الاستقلال بين «محافظين» تكتلوا في أحضان الحزب لانتهاز فرصة واكتساب مَغنَم، وبين عامة الشعبِ من عمال وفلاحين.

وعثروا على الأنموذج الأكثر تألُّقا في سنوات ما بعد الاستقلال في مثال الثورة الماوية التي أضافتْ إلى الماركسية اللينينية «عِلما»، وشَرّفت سُمْعةِ المذهب بإخراجِ الصين من البؤسِ والانحلال والهزيمة إلى

الكرامة والنصر والقوة. كانت الماويةُ يومَها هي كلمةَ الساعة. كانت هي الدرسَ العمليَّ.

واجتمع للفِكر المنفتح على الغرب وثقافته، الملاحظِ لما يجري في العالَم، عاملان حافزان مُلِحَّان: الحافز الأول الواقِعُ المحلِّيُّ الذي يستدعي تعامُلاً صارما مع الاستعمار، وذيولِ المفاوضات، وأذناب «القوة الثالثة». ثم العاملُ الثاني، وهُوَ النبض الثوريُّ الذي كانَ يَهُزُّ بحماسِه وغَليان قِدرِه مَحرومي العالَم.

كانت الغيرة الوطنية، والغيرة على الدين، والسخْط على العدوِّ الأجنبي المحْتَلِّ شواغِلَ جمعت في الأحزاب الوطنية أصنافا اجتماعية ما كان يعُدُّ المرء فيها نفسه إلا وطنيا مسلما، أو مسلما وطنيا، وكفى.

فلما انسحبَ الأجنبي المحتل نظر الناس بعضهم إلى بعض والتفت أكثر الناس وَعْياً إلى أن الوطنيين أصناف وطبقات. إن جمعهم جامعُ الهبة الوطنية في الكفاح الوطني وفي مُدن المقاومة وجبال جيش التحرير، فما هم طبقاتٌ تفرق بينها فوارق اجتماعية. لا جَرَم أن يكون أمثال ابن بَرْكَةَ وعبد الرحيم بوعبيد أكثرَ الناس وَعْياً لثقافتهم أولا، وربما لانتمائهم قبل كل شيء إلى شريحة اجتماعية بينها وبين المتمولين الفاسيين قواطِعُ ومسافات.

واجتمع حوْلَ الفكر الثوري مؤمِنونَ اشمأَزَّ إيمانهم من أوضاع ما بعد الاستقلال، ومحرومون من الخيرات المبذَّرة بيَد المترفين، ومن خاب أملُهم في وعود أُخْلفَت، ومثقفون في باطِنِهم حُشاشةُ إيمان همَّشهم النظام، ومظلومون حانقون على الإدارة الفاسدة، وفلاحون صغار، وعمال، وشباب متَعلم.

في التجمُّع اليساري الثوري تفاعلَت العناصر البشرية بالعناصر الفكرية وتكوّن مزيج من العقليات والممارسات والمواقف، لن نفهمها حق الفهم لنتعامل معها سدِيد التعامل إن لم نفحَصْ أرضيتها الفكرية ومرجعيتها.

مرجعية «علم الثورة التقدمية»

في التجمعات اليسارية قَيْدُومُونَ مثقفون تشربوا الإديولوجية الماركسية والاستراتيجية اللينينيَّة ودرسوا تفاصيلها وتاريخها، يعرفون المتن والشروح والحواشِيَّ، ويُبْدِعون تأويلات مناسِبَة لحالهم وواقع بلدهم. هؤلاء دُبِغَتْ عقولُهم على مشربهم، منهم الـمَرِنُونَ والمتشَدِّدون في الحزب الشيوعي الرسمي، ومنهم المتطرفون في التشكيلات اليسارية، المناضلون بجُرأةٍ من منطلقهم الإديولوجي، لا يُنَهْنِهُهُمْ انهزام المشروع الشيوعي في العالم، ولا يفل مِن عزيمتهم، ولا يشككُهم في عقيدتهم.

وفي التجمعات اليسارية والنقابية فِتْية اشتراكيون بالتبعية، أُلقِمُوا العقيدة الماركسية على خواءٍ، فهي كُلُّ معرفتِهم، وهي مرجعيتهم الوحيدة، وهي المعرفة. جُل هؤلاء إنما بُسِّطَتْ لهم المذهبية اليسارية تبسيطا كما يُلْعَق الرضيعُ طعاماً مائعا سائغا. هؤلاء معرفتهم بالإديولوجية «علم الثورة التقدمية» سطحية مقتضَبةٌ، وهي بذلك أشدُّ رسوخا كما ترسَخُ في الأنفس والأذهان الحقائقُ القطعيَّة الـمُلَخَّصَةُ في جملة إيجابية لاَ تقبل السلب والمراجعة.

جملتان أو ثلاثٌ وقد قيل كل شيءٍ في بيداغوجيا تفريخ فتية اليسار. جملتان أو ثلاث، شعاران أو ثلاثة، تكفي لتأثيث العقول الفارغة بما يلزمُ تلميذ الماركسية الدارجة. كان الأستاذ عبد الله إبراهيم منذ

ثلاثين سنة في مُحاضراتِه يعير الفتية الدارجين قائلا: أفطرتم بالماركسية على الريق! وهو تمثيلٌ لمأساة شبابٍ لُقِّنوا في الوقت المناسِب «حقائق» البيداغوجيا المدَرِّجة.

لُقِّنُوا في وقت مناسِبٍ لخوائهم من عقيدةٍ تتعَرَّضُ للبيداغوجيا الإلحادية وتعارضها. وقتٍ مناسب لفراغِ العقول من الاطلاع الواسع الذي يضع الماركسية في مكان نِسبِيَّتها بين الفلسفات، ومكانِها، المرموقِ فِعلا لكن ليسَ مكانَ الحقيقةِ النهائيةِ المطلقَةِ، بَيْنَ علوم التاريخ والاجتماع، ومكان جدارتِها وسبقِها وعمقِها بين مدارس النقدِ الذي وجهته الاشتراكيات الأوربية للبرالية الرأسمالية.

وقت مناسِبٌ من حيثُ نفسيَّةُ المراهِقِ الفكري وطاقاتُه العقلية. ووقت مناسبٌ من حيثُ وجودُ «وسائل الإيضاحِ» القريبة المأخذِ الجاهزةِ للشهادَةِ على أن ما تقوله الإديولوجية المبسطة الدارجة، وما تقوله أمُّها الفلسفية المعَمقَة، هو الحق والصواب.

إذا قالت الإديولوجية إن المجتمعاتِ طبقات، وأنَّ بين طبقتي العمال المستغَلين والبورجوازيين المستغِلين علاقةُ استغلال من نعتها وصفتها ومسالكها كذا وكذا، لم يحتَج للسفر البعيد في المكان والزمان للاستدلال والتوضيح. فقد كانت الرأسمالية الاستعمارية أنموذجاً لاستغلال العمال، وكانت التنظيمات النقابية الشيوعية، التّابعة للنقابات الشيوعية الفرنسية والحزب الشيوعي الفرنسي، رَائدة في توعية العمال بحقوقهم المهضومة.

وإذا قالت الإديولوجية إن طبقة التجَّارِ «الكمبرادور»، الذين يستوردون المصنوعات الأجنبية ولا يصَنّعُون البلد، إنما هي طبقةٌ طفيلية انتهازية، جاء المعلِّم بوسائل الإيضاحِ الحية المعيشةِ الطَّرِيَّة من

واقع ما قبل الاستقلال وما بُعَيْدهُ وما بعده. جاء بالأمثلةِ الصارخةِ من حالة فلان وفلان استغنيا بعد فقر، واستعليا بعد ضَعَةٍ.

إذا قالت الإديولوجية إن الإقطاعيةَ والبورجوازية والنظام الملكيَّ وهو حُلفاءُ متزامنون في بلَدِنا، فالواقع بعيد الاستقلال وبعده يشهد على سَدادِ هذا الاجتهاد داخِل المذهب، اجتهاد لا يَقيسُ على تاريخ أوربا حيثُ تدرَّج الأمر من ملكية إقطاعية أرستقراطية إلى بورجوازية ثارتْ وأبادت عدُوَّتَها الطبقية.

وتقول الإديولوجية كلمتَها المفتاحَ، كلِمَتَها اللُّبَّ ، كلمتَها الحاسمةَ، كلـمَتَها المنقذةَ، كلمتَها المحرِّرةَ، كلمتَها الرسالَةَ للفتيان المراهقين: الدين أفيون الشعوب. ويأتي المعلم بوسيلة الإيضاح قريبة جاهزةً ساطعة من تاريخ طقوسيَّة الحسن الثاني، وحاضِر تلَبُّس الحسن الثاني، ومهزَلة بيعة الحسن الثاني، وتَهتُّك الحسن الثاني، وحاشية الحسن الثاني.

وهكذا تلقَّنُ الماركسية المبسطة، وتدْعَم بيداغوجيتها بالأمثلة الواقعية. وهكذا ربَّى الجيل الثاني المتمركِس على درجة ما من التمركس في الحركة الوطنية الجيل الثالث، وربى الثالث الرابع ويُربّي. وهكذا ابتعدَتْ أجيال حزبية عن الأصل الإسلامي، وألحَدَ بعضٌ ورفَس عقيدة آبائه تحت الأقدام، وشاب عقولَ بعض شوائبُ إديولوجية، وترَسَّب في عقول بعضٍ رواسبُ ما لها من زوال.

إنها التطوريّة التي رصَدنا في فقرات سابقة ميلادها في فلسفة أوكست كنت الفرنسي، وتحليلات ماكس فيبر الألماني، وتقعيدات الإنجليزي هربرت سبنسر. تطوريّةٌ رشقها كنت رشقا خفيفا في أذهان معاصريه، وخاض بها فيبر في أحشاء الرأسمالية الناشئة، ووطّدَ ركائزَها النظريةَ سبنسر، ووظفها ماركس وإنجلز توظيفا تطبيقيا

نظريا في نقد الرأسمالية، وأعملها لينين في كشف الرأسمالية وهي تتعاظَم وتنتشر أذْرعُ أُخطبُوطِها الأمبريالي، وأنزلها ستالين ثقيلَةً كثيفةً قتَّالةً، ووَطَّنها ماو موطِناً فسيحاً صارعَ بها الفلاحون الفقَراء طبقياتٍ من جنس آخرَ غيرِ طبقياتِ أوربا.

هكذا جاءت ودخلت الإديولوجية «العلمية» في التجمعات اليسارية في بلاد المسلمين. إن اختلفت الظروف التاريخية وسبقَ قُطر قطراً، وإن التحم الفكر التقدمي الاشتراكي بقومية ناصرية أو بعثية أو عراقية جنونية، فالمرجعية واحدة.

وإن ركَّبَ الماركسيون شعارات مُلَوَّنةً، واقتبَس الاشتراكيُّون بقبضة يَدٍ أو برُؤوسِ الأصابع، فالمشكاة واحدة.

وإن قدموا وأخروا بين ألفاظ الشِّعار: حرية، اشتراكية، وحدة، أو وحدة حرية اشتراكية أو اشتراكية حرية وحدة، فالمقصد واحد، والمرْتكز الفكري واحد. إن زاحمت التطوريةُ اللبرالية الوضعية التطوريةَ الماركسيةَ التاريخية، فالإسلام وشريعة العدلِ هي دائما الـمُقْصَاة. أستعمل الكلمةَ المناسبة: هي كانت المكفورَ بها.

المنهجية والموضوع

على أي شيء تدلُّنا الماركسية في حُلَلِها المتلونَةِ كما تتَلَوَّن في أثوابها الغُولُ؟ أيَّ بابٍ تفتح؟ أي علم تُعلم؟ ما منهجيّتها وموضوعها؟

تُعلم الكفْرَ أولا، المادية أولا. كنْ ماديا ديالكتيكيا تؤمن بمَبدإ الصراعِ التطوُّريِّ في التاريخ كما تؤمن بالصراع الحيَويِّ الدرويني في الطبيعةَ لتكونَ ماركسيا حقيقيا.

هيجل، الفيلسوف الألماني، كان يؤمن بمثالٍ فوق المادة منه ينبثق كل شيء. كانتْ منهجيته في التفكير منهجيةَ الجدلية (الدياليكتيك) التي عَرَفها فلاسفة من قبله، وحورها هُوَ لتناسِبَ مَساره الفلسفِيَّ. منهجية هيجل تنْزِلُ من الفكرة المثالِ إلى الواقِعِ الكوني التاريخي العيْنيِّ متقدمةً تعترض فيها المتناقضاتُ بعضُها بعضا. أطروحةٌ تقابلها وتنكرها أطروحةٌ مُضادّة. ثم تتقدم الفكرة نازلة يتجاوز النقيض نقيضهُ مرورا بنقطة لِقاء تركيبية، لتُنْتِج أطروحةً جديدة. وهكذا دَوَالَيْكَ.

أخذ ماركس المنهجية الهيجلية التي كانت تمشي على رأسها حسب قَوْله ليقيمها على قدميها. المنهجية الماركسية حركة ديالكتيكية يتحرك بمقتضاها واقِعٌ متطور يتَجاوز تناقضات الواقع. فالكل عنده مادة في مادة، مطابِقا أوْ قريبا أو بعيدا أو مغايراً لمادية الفيلسوف المادي الألماني فويْرباخ، حسب ما يقول نقَّاد الماركسية وفقهاء كنيستها وجهابذة علمائها. المنهجية الماركسية جدلية في التاريخ، ماديةٌ جدلية في الواقع. وهي أيضا نقاشٌ وجدال بين مدارسَ وشرّاحٍ ومُحشِّين ومُعَلّقين ومُلقِّنين.

الماركسية فلسفة مادية تاريخية موضوعا، ديالكتيكية منهجيا، عملية نضالية وظيفةً. فالفيلسوف في اعتقاد ماركس لا ينحصر عمله في تفسير العالم، بل مهمته أن يغير العالم.

تغيير العالم ثورة على الواقع، والواقِعُ مرحلة من التطور التاريخي، فلا بد من ممارسة ثورية تنبني على دراسة التطور التاريخي ودراسة القوانين الاجتماعية التي تصطدم بمقتضاها المتناقضات، وتتجاوز فيها القوى الاجتماعية السياسية الشابة قُوىً تآكلَت وهَرِمَتْ. ويعود

الثوريُّ من دارسة التطور التاريخي للفِعْل والنضال حتى تتكامل عنده بالتجربة الميدانية نقائص النظرية. وتلك هي الممارسة (براكسيس).

وهكذا يتأثّر الشعورُ وتكتمل المعرفة بواقع الحياة، عكْسَ ما زعمهُ هيجل من أن الحياة تتأثر بالشعور والمعرفة. وعكسَ ما كانَ يَحلُمُ به الاشتراكيون اليوتوبِيُّون مثل برودون وسان سِمُونْ من فرض التغيير على الواقع بقوة الإرادةِ الفوقانية والمعرفة النظرية.

وبهذه الاختلافات في المنهجية والأسلوب العملي تتميز الماركسية وتكتسِي الصِّبْغَة العلمية. فهي اشتراكية علمية سائرةٌ مع تسلسل تَطوُّرِيٍّ حَتْمِيٍّ.

ولكثافة مُحَصَّلِ ماركس من المعطيات الفلسفية والتاريخية، ولِوَجَاهة نقده للرأسمالية في عصره، ثم لمواقفه النضالية، ولبساطة الاستدلال الميكانيكي في التأويل الدارج للإديولوجية الماركسية، أصبحت الماركسية دليل عمل، وعلم ثورة، لا يستغنى عنهما.

المنطق الديالكتيكي ينبثق من الأرض، لا ينزل من سماء الفكر. طبقة العمال في أوربا، وفي إنجلترا خاصة، كانت تعانى من استغلال رأسمالي قبيح. فبأدْنَى جُهْدٍ يعِي العُمَّالُ ما تدعو إليه الماركسية من إنصاف العمال. يكفي شعارُ: يا عمال العالَمَ اتحِدوا! وها هي القوة العضلية الثورية قد تكونت. وللمثقفين في صالونات النقاش حول مكتوبات الثورة فسحة للبرهنة على كيفيات تفَاعُل قوة الإنتاج ووسائل الإنتاج وأشكال الإنتاج، وعلى الغَبْن الواقِعِ على العامِلِ المظلومِ المحرومِ من فائض قيمةِ الـمُنتَجِ الذي هو قيمة عمله.

كان لينين من المثقفين الـمُدْمنين على دراسة «علم الثورة» حتى أصبح من فقهائه وجهابذته، كما كان الثوْريّ الـمُحْتَرِفَ المتفَرِّغَ لشُغْلتِهِ. وثار ثورتَهُ، ونجحت الثورة في هدْم المرحلة التاريخية الملكية الإرستقراطية، ونجحت في هزيمة برجوازية كِرِنْسْكِي، وتربّعَ البلشُفِيّ ستالين على كرسيِّ الدولة الاشتراكية بعد أن هَلك المؤسس المثقف.

وما هي منذُئذٍ إلا دكتاتوريةُ البرولتاريا شعارا، دكتاتورية الحزب الوحيد شكلا، دكتاتوريةُ الوحيد الحديدِ ستالين، كما يدل لقبه الثوري «ستالين» الذي عُرِفَ به، فهو حديدي، هُوَ قوة المخابرات، وقَهر الشُّرَط، وجحيمُ الكولاك. هو الدولة، والدولةُ آلةٌ صماءَ عند الأمر والنهي.

لَمْ تتبَخَّرْ النظرية الماركسية والبراكسيس اللينيني بالكلية. إنما عالجها ستالين باليد والرِّجل، وأخضعها، وأوّلها، وبسَّطها، ونَحا بها نَحو الإراديَّة الصِّرفَة. ولما هجمت الجيوش النازية على الاتحاد السوفيتي شعَر «أب الشعب» أن التنظيم الحديدي للحزب كما ورِثه عن سَلفه، وأن الجيش الأحمرَ كما صاغهُ عدُوُّهُ الحميمُ تروتسكي، لا يكفيان كما لا تكفِي الإديولوجية الثورية لصدِّ قوَّةٍ يدفعُها شعارٌ قوميٌّ في درجة الغليان.

فلَم يتَردَّد الزعيم الشيوعي الأُمَميُّ العالَمِيُّ الرسالةِ مبدئيا في ضرب وجه الإديولوجية بِعُرْض الحائط، واتخذ شِعاراً لحربٍ ضَرُوسٍ «الدفاعَ عن أمنا روسيا». تنتكسُ الإديولوجية وتنعكس، وينتصر الزخْم القومي الرجعي.

وهكذا انتصر التأويلُ الستاليني للماركسية اللينينية بانتصار الجيوش السوفيتية في الحرب العالمية الثانية، وبدخولها برلين فاتِحةً، وبجلوس ستالينَ الصعلوكِ الثوريِّ البُلْشُفِيِّ على مائدة المفاوضات في يالْطا معَ زعيميْ الغرب الأرِستُقراطيين: تشُرشِلْ الإنجليزي ورُزْفِلْت الأمريكي. واقتسمَ الحُلَفاءُ الغربيون مناطق النفوذ في أوربا مع ثورة طالما عاكسوا وجودها وبروزها.

وما لبثَ أنْ نشِبت الحربُ الباردَة بين الكتلتين الشيوعية السوفيتيةِ والرأسمالية الغربية. وذهبت في خبر كانَ بقايا الإديولوجية الثورية، وعادت مُكوِّناتُ عقْل ماركس وفكر لينين إلى مواطنها الأصيلة. عادت فلسفةُ الأنوار وديالكتيك هيجل إلى مقاعد الدراسة، واشتغل الاقتصاد الإنجليزي -وقد رحَلَتْ روحهُ إلى جسدٍ شابٍّ في أمريكا- لتطوير القوة التي خرَّبتْ الثورة البلشفية، وخربت معها إديولوجية الثورة.

استدرجت أمريكا غريمتها السوفيتية إلى التسابق إلى السلاح: الرأسمالية العجوز المحنّكَةُ المتشببةُ تنفِق بعقلانية علومية أصيلة، وباقتصاد له روحٌ بشريّةٌ هي اللبرالية، وبنظام حُكْم عادِلٍ هو الديمقراطية، وبنَفَسٍ طَويلٍ باردِ الدَّمِ. وأنفق السوفييتُ بعقلانية تكنولوجية هِي جسْمُ العقيدة اللينينية، وباقتصاد مجنونٍ روحُه البيرقراطيةُ السخيفةُ الثقيلةُ، ونظام حكم مركزيٍّ استبدادي، وبلَهَثٍ محموم قضَى على البيئةِ الطبيعية، وقتل الناسَ، وقتل روح المبادرة وهي الحياةُ نفسُها، وانتهى بقتل الثورة وفكرة الثورة وإديولوجية الثورة.

استنزفت الحرب الباردة، وسباق التسلّحِ، مُخَّ عظامِ الاتحاد السوفياتي وخرَّ صَريعا لليديْن ولِلْفَمِ.

كانت فلسفةُ ماركس واسعةَ المصادر والموارد، في كُتْلَةِ إنتاجه يجد المتعمقون الطرْحَ ونقيضَهُ. التاريخ عنده مفتوحٌ على كل الاحتمالات، والتاريخ عنده حتمية وتسلسل ضروري. الصراع الطبقي عندَه حقيقة الحقائق في التاريخ لكنه لم يُعين الطبقاتِ العدُوّةَ المتناقِضةَ في عصره بالاسم، وعينها فعلا بالعمل. الاقتصاد عندَه مبني على علم الفيزياء، والاقتصادُ عندَه بحث وتجربة. وهكذا.

ومِن تدَنٍّ لِتَدَنٍّ، ومن تفسير وتأويل لتفسير وتأويل، انتهت الماركسية اللينينية، والثورة العالمية، إلى مجرد عقيدةٍ في طبقة اجتماعية أو طبقتين هما –وعلى ذُؤابة رأسِهما الـمُثقفون الثوريون– عضَلُ الثورة وَوَقودُها ومسَعِّروها. بل اختفَت الإديولوجية الثوريَّةُ إلاَّ شعاراتٍ حماسيّةً لتُعطَى الكلمةُ للدعْمِ المادي من الدولَة الأم. الكلاشنِكوف هو صاحبُ الفصاحة والبلاغة. فإن لَمْ تُتَح الفرصةُ لاستعمال السلاح فالثورةُ على أسُسِ الواقعِ الرجْعي، وركْلُ الدين بالأقدام مقدمةٌ لهدمِ العوائق الـمُخَلِّفَة عن الركب التقدمي.

استهلك المثقفون اليساريون أفيونَهم الماركسيةَ اللينينيةَ بمقاديرَ وعلى مُستويات. فالـمُكبُّون بالأمْسِ على أناجيل المذهبية ما يُغني عنهم ما كتبَه المؤسسون وقد انهار المشروع بأكمله، وارتَدَّت الدّوْلةُ الشيوعية على أرض الواقِع إلى العقيدة المناقضة: الرأسمالية اللبرالية الديمقراطية؟

والعضليون الثوريون تلَقَّوْا الدعْم الماديَّ بالأمْسِ، فهَلْ يتنظرونَ انبِعاثَ يساريَّة تقدمية من رماد السوفيات؟ أو من بَحْر الصين وقد وجهت الصين سفينتَها نحو شواطئ القارة الرأسمالية بهدوء وذكاء وعبقرية؟

نقد الرأسمالية

ينهار المشروعُ الماركسي بانهيار الدولة الشيوعية، ويبقى المثقفون الذين أدمنوا زمانا على أفيون المثقفين، فهم يتشبثون بمنهجية بائدةٍ مَضَتْ وانقضَتْ لا محلَّ لها في إِعْراب المستقبل وفهم المستقبل والعملِ في المستقبل.

الدرسُ الأهم الباقي للأجيال المقبلة هو سقوط الدولة الشيوعية. سَرَدنا بعضَ ذنوبها التي أخذها الله بها فخر عليها السقْفُ من فوقها وأتاها العذاب بما كانتْ تكسب. أرذَلُ كسوبها الإلحاد. بادت مدرسة الإلحاد العالمية، وبقي بين الأنقاضِ صِبْيَةٌ يتامى يتضاغَوْن جوعاً فكريّاً لَـمَّا لم يستنبتوا في أرض عقولِهِم غَلّة من بَذْرِ كيانهم.

سقط استكبارٌ وبقي استكبار. صَرعَ الفكر الغربي الأوربي الأمريكي الفكر الأوربي الشرقي. وتشَفَّتْ مذهبية لبرالية من مذهبية شمولية، وفي يدنا فقطُّ الحِصادُ المبْتَسَرُ المحدودُ زمانا ومكانا، المفيد على كل حال، ألا وهو النقد الماركسي اللينينيُّ للرأسمالية الأمبريالية.

لم تَعد الوسائل الاقتصادية متوفرةً لدعم الثوراتِ المحلية وتسليحها والدفاع عنها في المحافل الدولية. لم يعد بالإمكان نقد الرأسمالية ونقضها بالكلاشِنكوف وتجييشِ الأمم المتخلفةِ الفقيرةِ ليقاتِل بعضُها بعضا كما كان الحال أثناء الحرب الباردة.

وبقي النقد النظري صالحا وجيها، وإن كان قاصرا ومتجاوَزاً. وجيها في مُجْمَلِه وعموميته، قاصراً، بل أعمى، في جَهله بقيمة الإنسان ورسالته ومهمته في الحياة الدنيا ونفسيته وبواعثه ومثبِّطاتِهِ. متجاوزا لِمَا جَدَّ في العالَمِ مِن أحداثٍ ومعارفَ وتكنولوجيا وديناميكيةٍ تَسارَعَ

بها الزمن واختُصر المكان. جَدَّ جديدٌ ما دخل في حِساب ماركس وفلاسفة مدرسته، ولا جال بحُسْبانِ الممارسين الثوريين.

دع المقتنعين بعصمة المذهب المادي يُشاقُّون فيه بعد سقوط البَنَّاء والـمَبْنِيِّ والمبنيِّ عليه. وقل لي ما موضِع المنهجية الجدلية المادية «علم الثورة» في المستقبل؟

أما الأمريكي الياباني فوكوياما فقد أشْعَلَ عودَ ثِقابٍ في أغصان المذهبية الذابلة اليابسة حين كتبَ أن انتصار الرأسمالية -الأمريكيةَ مِيراثاً وجدارة- يمثل نهاية التاريخ. تُوِّجَ التاريخُ وانتهى الخصامُ والصراع الطبَقي واستغنى الفكر البشري عن منهجية علمت الناس ترَصُّدَ نقيض لكل أطروحة، وضِدٍّ لكل واقع، وحركة تجاوز لكل صراع.

وهو قَولُ مأْفُونٍ أحمَقَ. قولٌ ميِّتٌ وشُعْلَة عُوَيدٍ. فما كانت التناقضات في العالم أشدَّ ضراوة مما هي عليه تحت وَطأَة نادي السبعة الكبار، بقيادة الولايات المتحدة الأمريكية، السبْعَةِ الـمُتْرفينَ المتنعِّمين المرضَى بالكِظَّةِ بينما بعض العالم يتضور جوعا، الشاكينَ من التَّخَمِ بينما مساكينُ العالم مستَضعفون يشكون الفاقة، المتَرَغِّدُون في السَّلام بينما أمَمُ العالم تلتهمها حروبٌ فتاكة، الأصِحاءُ بينما مستضعفُو العالَمَ تُقْلَع من محاجر أطفالهم العيون، ومن أجواف أبنائهم الكُلَى والقلوب والأكبادُ، ليبصر عميان المستكبرين في الأرض ويعيشَ جرحاهم.

قل لي: ما موضِع المنهجية الديالكتيكية في إعراب المستقبل، وما قيمة النقد الجذريِّ الذي وجهته الاشتراكية «العلمية» لغريمتها أمْسِ قَرِينَتِها الجافيةِ منذ اليومَ؟

انتقد ماركس رأسمالية القرن التاسعَ عشر، ولينين أمبريالية العقدين الأوّلين من القرن العشرين بتاريخ النصارى. كانت الإيجابيةُ الكُبْرَى ولا تزال في هذا النقدِ كشفَ الآليات المالية الاقتصادية السياسية الاجتماعية التي تجعل من الرأسمالية اللبرالية غولا يأكل الأخضر واليابس من حقوق الكادحين، ويُجَمِّعُ الثروة في أيْدٍ قليلة ليَفتقرَ كافة الناس.

انتفاء العدل الاجتماعي بين الناس وامتناعُهُ في النظام الرأسمالي اللبرالي كان ولا يزال نقطة القوة، وعقدَة الحُجَّةِ في النقْد الماركسي اللينيني. إن تجاوزت مُعْطيات العالَم. بعد هلاك مؤسِّسَيْ النظام الشيوعي وخراب ما بنَيَا، فالمنطق الجهنّمِيّ للدولاب الرأسمالي لا يزال دؤوبا في طَحْنِ حقوق مستضعفي العالم. ثمانون في المائة من خيرات العالم يستأثِر بها السبعة المستكبرون في العالم وهم يقْصُرُون السنةَ بعد السنةِ عن بلوغ العشرين في المائة عَدّاً من سكان العالم. وداخِلَ كلِّ دَولَة مُترفَةٍ يتجمَّعُ بالمنطق الرأسماليِّ اللبراليِّ تسعون في المائة من الثروة في أيدي عشرة في المائة من الناس.

أصابت الماركسية اللينينية في إدانة غريمتها. وفشِلَتْ فشَلا مُدَوِّيّاً في إقامة النظام الأمثلِ. أمم لينين الاقتصاد السوفيتي فنشأتْ رأسماليةُ دَوْلة على أنقاض رأسمالية مُلاَّكٍ أفراد. دولَةٌ تَمْلِكُ، جُملَةٌ تُساوي في المعادلَة الاقتصاديَّةِ مِلكيَّةً سائبةً لمالِكٍ غائب لا وجْه له ولا حضور. لذلك نهبتْ الخيراتِ طبقَةُ الصعاليك الذين كانوا في النظرية الثورية والأملِ الثوري التقدُّمي المنقِذين المنتظَرين. واستغْنَتْ «النُّمِنْكلَتُورا»، وسكنَتْ قصورَ المدينة والـمُسْتَراحاتِ الأنيقةَ في الأرياف، وتقاضت الأجورَ الرفيعةَ، وتبضَّعَتْ من أسواق خاصَّةٍ بأثمان تفضيلية. وفعلت

وفعلت. والشعبُ -معبودُ الثوريين الإديولوجيين- عاش كابوسَ العذابِ والحرمان.

اقتصاد الرأسمالية اللبرالية، والنظام السياسي المرافق له، آلَة صماء، لكنها آلة تشتغل، تُنتِج بفاعلية كبيرة، وتجُورُ في قسمة الأرزاق. أما رأسمالية الدولة -وهو الاسم الحقيقي الواقعي الـمُسَمّى اشتراكيةً علمية- فهي آلة لا تنتج وتسيء القسمة. ويفْضُل في الحساب الأخير ما تفعله الدولة المركزية البلشفية، ونظامُها البوليسي الجاسوسي الكولاكي، بأرواح الناس ونفوس الناس وعقول الناس وأبدان الناس.

تِلك إيجابيةُ النقْدِ الماركسي اللينيني النظري للرأسمالية اللبرالية، فلَما جاء دوْرُ النقدِ العملي -وهو إقامة بديل ناجح- انتقدت الشيوعية نفسَها بنفسِها انتقادا قاتِلا.

وللمقتنِعين المتمذهبين عزاءٌ في استثناءِ «عبقريِّ الشيوعية» كاسترو الذي أصبحَ بَلَدُهُ وشوارعُ بلَده سوقا واحدةً لبيع ما يُمكن بيْعُهُ. وقد كان يوماً ما شعارُ ثورته: الاشتراكية أو الموت!

وتجاوزَ العالَمُ المتحركُ بسرعة ما كانَ أدرجَهُ في نقدهما الزعيمان المنظّران الهالكان. طرأ على العالم طَوارئُ من تقدم تكنولوجي مذهل، ومن علوم تتناسل، وتتكاثر فروعها، وتهجُمُ اكتشافاتها على تخُوم الخيَال ومَرَابِضِ الـمُحال.

الواقعُ العالمي يتجدد فتظهر رثَاثَة النَّقْد الشيوعي للرأسمالية اللبرالية، وتظهر ركاكتُه. فالقيمةُ الغالية الوحيدة الآن وفي المستقبل هي الأدمغة الكَشّافةُ النباشة لا الموادُّ الخام. والقوة العالمية صليبية صهيونية لَهَا مطامِح أعمق من مطامح الأمبريالية. جَدَّت في العالم

الحرب العظمى الثانية، وجدَّت القنبلة الذرية، وجدَّ غزوُ الفضاء وتساقُطاتُه التكنولوجية، وجدت الثورةُ المعلوماتية الإعلامية التي قلبَت كل المقاييس، وتؤذِنُ بقلْبٍ أوسَعَ وأعمق في المستقبل. جدَّتْ معاهدات دُوَلية.

جدَّتْ حياة اليابان وألمانيا بعد هزيمتها. جدت الحرب الباردة وما بعد الحرب الباردة من قسمةٍ متجددةٍ لمناطق النفوذ في العالم. جد توحُّد أوربا وبروز آسيا معتزة بقيمها وفرادةِ ثقافتها.

جدَّ تأثيرُ كلِّ هذه المعطيات، التي ما حضرها ماركس ولينين وما كانت لهما في حُسبان، على الاستراتيجية العالمية، ومِنْ ثَمَّ على الاقتصاد العالمي، والتكتلاتِ العالميةِ، والامتدادِ الفاحش للشركات عابِرَة القارّات.

فالمتناقضات الرئيسية في العالم: شمال متخم يواجه جنوباً هو اليومَ أشد بُؤساً من أي وقت مضى.

الفصل السادس

ما يجمعنا؟ ما يفرقنا؟

- التوبة والرُّجْعى
- ما يجمعنا؟ ما يفرقنا؟
- نقد الناقد والمنقود

التوبة والرُّجْعى

لولا اعتباران لكل منهما حظه من الأهمية لكان التفاتُ المرء إلى الوراء وتشييع رُفات الأموات ضرباً من العَبث. الاعتبار الأولُ هو أننا بصدد البحث عن البواعثِ النفسية الاجتماعية الفكرية السياسية التي دفَعَتْ بطليعَة من الجيل الثاني الوطني إلى أحضان الفكر الثوري، وتلك نظرتنا إلى الماضي. لا يستبين لك مستقبل إن لم تعرف ماضيك.

الاعتبار الثاني هو أنَّ في قَعْر شعور بقايا الجيل الثاني والجيل الثالث في الأحزاب الوطنية بَقايا ورواسبُ، وفي لُغَةِ خطابهم مُصْطَلَحٌ، مِن إديولوجية ماتت في العالم وبقيَ جمْرٌ مُحْتَضَرٌ يجَادل عن نفسه فيما نقرأ ونسمع من كلام وطنيين لا نشك في إخلاصهم، ونودُّ معرفةَ ماضِي الفكر وتاريخِه لينْجليَ الغموض عن مستقبلٍ نقترحه نحن إسلاميا محضا ويقترحونه هم كتلة تاريخية.

هل تَسخُو نفوسٌ سلَّح نضالَها زمَناً فكرٌ أجنبي، وهل تنعتق عقول وجَّهَتْ تفكيرَها زمناً منهجية أجنبية، بالعِوَض الإسلامي؟ هذا مَدارُ همِّنا وبُؤْبُؤُ تهَمُّمِنَا. استفحل التناقض في الموضوع، وهو تاريخ المغرب، وادلهَمَّتْ آفاقُ التناقضات في مستقبل المغرب. ما كان المغرب مغربَيْن متقاطبيْن متباعِديْن متدابِرَيْنِ كما هو الآن، وكما يُهَدِّدُ كَيْنونَتَهُ مستقبلٌ غامضٌ غموضَ العقول التي تدحرجُه على حافة الكارثة ومشارف الطوفان.

مغرب الأغنياء المترفين على مرأىً ومسمَع من بؤس المحرومين. مغربُ الانحلالِ الخلُقيِّ في عُقْر دارِ «إمارة المؤمنين» المزيّفة. مغرب الظلم والرشوة واحتقار الإنسان في مجتمع يرفع المنصِب الحكومي

والثروة والقرابات الظالِمَ ويجعله في مأمن مِن الـمُساءلَة والمعاقبة. مغربٌ يحلُم به بعضهم لاييكيا ملحدا أو على الأقل محايِدا في الدين، وإنما عِصمته ومنعته وقوته، كانت ولا تزالُ ولن تزالَ، الدين. مغرب على عتبة مستقبل عالميٍّ مُخيفٍ تضَخَّمتْ فيه الرأسمالية اللبرالية المتوحشة وقد تسلّحَتْ بالسلاح ذي الطلَقات السريعة البرقية. أعني تكنولوجيا المعلوماتية، واتخذتْ في الفضاءِ كواكِبَ للترصد والـمُراقبة.

هل ترجع نفوسٌ وعقولٌ من الاكتئاب العاجز عن فهم ما يجري في المغرب وفي العالَم، ومِنَ الإنصاتِ الأَسيفِ الغبيِّ لفتوى صندوق النقد الدُّوَلي يخبرنا تارة أن المغرب تلميذٌ من تلامذته الأذكياء، وتارة أن المغربَ في فُوَّهة الكارثة.

الـمُبْتَغَى -كان- من تبنّي الإيديولوجية الجدلية المادية محْوَ الفوارق بين الطبقات، والفوارق لا تزداد إلاّ شَساعةً. المبتغى -كان- تحريرَ المغرب من التبعية السياسية الاقتصادية، والتبعية لا تزالُ القَيْدَ في أيدينا. الـمُؤمَّلُ-كان- تَحريرَ المغرب من الملَكيّة الوراثية، والمغرب لا يزالُ غُلّ الوراثية في عُنُقه، و«الثورةُ» التي غنَّى نشيدَها طلائِعُ التقدمية الاشتراكية المناضلة تحَولَّت مطلبِيّة إصلاحية ديمقراطية بعدَ أن تلاشت رِمَمُ مناضلين عذِّبُوا وأقْبروا، وبَعد أن شاخ في سجون الملك، تحت سِياط جلاوِزةِ الملك، شبابٌ، وضاعت أحلام.

بسَطْنَا الحجّةَ السياسيَّةَ، وفكَّرْنا التفكيرَ السياسيَّ بين يدي دعوةٍ إلى توبةٍ جذْرِيّةٍ انقلابية. من الآذان ما لا يسمَع إلا لغة الـمُبتغى الاقتصادي الاجتماعي، والـمُؤَمّلَ السياسي التغييري. وها هو الفشَلُ ضارِباً أطنابه، والخيبةُ ناشرَةً ذيولَها في الربوع. التنمية والكفاية والحرية والكرامة ممتَنعاتٌ. والملَكِيَّةُ دكتاتوريّة ما استطاع الفكرُ الجدليُّ أن

يعبئَ لإسقاطها جُمهورا. و«النخبة» التقدميةُ تَنْسَلُّ خيوط نَسيجِها، وينخَرِقُ ثَوْبُ نظامها خِرَقاً باليةً يُرقِّع بها النظامُ الملكيُّ -عدُّو الأمسِ قريبُ اليوم- رداءَهُ البهْلَوانيَّ.

هلْ نرجعُ توبَةً إلى الله وتحَوُّلاً من التفكير السياسي المادي الجدلي الأرضي إلى التفكير في مصيري أنا بعد الموت، ورسالتي أنا وأمتي في الحياة، ومصيري أنا وأمتي بين مصائر الأممِ. «في سبيل الله والمستضعفين».

لا تُطابقُ الجدليةُ الماديةُ آمالَ قلبي المؤمن بالله وبلقاء الله، ولا يُخْبِرُني تقَدُّم التقدُّميةِ ما معنى التقدم، وإلى أين التقدم، ومِمَّ التقدّم. كذبت عليّ التقدمية وافتَرَتْ، وعطِبَ مِن وقْع بيداغوجيتها عَقْلي وسفِهتْ نفسي، لما حاولَتْ طمْسَ عقيدتي ومسخ شخصيتي. منّتْنِي التقدُّميّةُ بثورةٍ منقذة وسَوَّلَتْ لِي السكوتَ عَن هُوَيَّةِ انتمائي وحقيقة ذاتي. ثُمَّ لا هي ثَوَّرَتْ، ولا إيماني بالله وباليوم الآخر أصبحتُ قادرا على التعبير عنه بلغة قَلبي.

إن التوبةَ إلى الله والرُّجْعَى إليه هدايَةٌ من ضلال. ليس الإسلامُ فكراً ومذهباً وحقوقيةَ شريعةٍ نَعتنقُه لننتقِد بمبادئِه مبادئ الشيوعية والرأسمالية. الإسلامُ وتوبتُه عَمَلٌ، مشروع عَمَلٍ، يتَحَوَّلُ به الإنسان والمجتمع مِن مَهْيَع الضلالات الجاهلية إلى الصراط المستقيم، صراطِ الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض. ألا إلى الله تصير الأمور.

الإسلام خُطوةٌ مصيرية من مَساقٍ متذبْذِبٍ إلى يقين فاعِلٍ في الحياة الدنيا ما يُسعِد الأمةَ وينتشلها من الوهدة، وما يُسْعِد المسلم يوم لقاءِ ربه. الإسلام وتوبتُه الانقلابية خطوةٌ في حياتي نحو تربيةٍ تَغرِسُ في سُوَيْداء قَلبي غَرْسةَ الإيمان، وتفْتح عينيْ نفسي وعقلي على آفاقٍ أُخْرَى حَيَّةٍ نيِّرَةٍ منفتحةٍ على الدنيا بما هي دارُ عمَلٍ، وعلى الآخرة

بما هي المآل الحتمي. إيماني بالله وبلقاء الله وعملي الصالحُ هما جوازُ سفري الوحيدُ من مدافِنِ الشقاء إلى منازل أهل الصفاء. في جَناتٍ ونعيم خالدين فيها. وذلك جزاء المحسنين.

تقذُف بي التقدّمية، إن أسلست لها القِيادَ، على حافَة قَبْرٍ لا خبرَ عندها بما وراء ظلمته ووَحشتهِ. فإن أنا بِعتُها ديني، أو بعضَ ديني، أو سنوات أو أياما من حياتي لا يُحسبُ لي حساب عمَلِها وكدحها ونضالها في ميزان آخرتي، فأنا المغبونُ البليدُ حقا.

فإذا خَسِرْتُ آخرتي، أو بعض آخرتي، أو يوما من آخرتي في رُفقة التقدمية مزْموماً بزمامها مَقودا، ثمَّ أفلَسَ مشروعُ التنمية الذي بشرت به الاشتراكية، وتأَبَّدَ الحُكْمُ الفَرْديُّ الذي وعدتْ الجدلية بحتْمية زواله، فأنا البليدُ المغبون ضِعْفَيْنِ.

وإذا عدْتُ إلى دين آبائي ومعتَقَدِ طفولتي ونور تربية شبابي متسلِّلاً من النافذة بعد أن أغْلقتْ أبوابُ التقدمية في وجهي، واصْطفَقَتْ رياحُ الخَواء في بَلاقِع آمالي، فلَستُ أَنَا أنا. من أنَا غيرُ إمَّعَةٍ جبانٍ إن لَمْ أواجِهْ نفسي بصَرامةٍ طالمَا واجهتُ بها غيري.

إنما يستَنْكِف عن سماع العتاب المستكبرون. وإنَّ مصارحةَ النفْسِ لا تقبلُ التجزئة أرباعاً وأنصافاً لدى ذوي الهِمَمِ العالية الذين نخاطبهم بتوبة تجمعنا وإياهم على كلمة سواء.

ما لأحَدٍ على أحَدٍ وصايةٌ في الدين، وما لأحَدٍ أن يدَّعي احتكارَ الإسلام، فإن فعَل فقد استكْبَر ورشَّحَ نفسَه لهَبَالِ العالينَ من الشياطين.

الرحلةُ طويلةٌ شاقّةٌ مِن مألوفٍ تفكيريٍّ وانقيادٍ لدليلٍ اقتنعتُ زماناً بصوابِ نظَرِهِ ومتانةِ منطقه وشِدّة ساعِدِه، إلى تفكير آخرَ، وانقيادٍ آخر، ونظرة أخرى، وقوة أخرى، وتوَكُّلٍ آخر.

والامتحان العملي لتماسك شخصيتي، وأصالَةِ العنصر الإنساني الذي صُنِعْتُ منه، ونفاسةِ المعدن الذي صيغَ منه كياني، يتمثل في استجابتي لله رغْم أنفِ كلِّ متكبر جبار بدون استثناءِ نفسي الحريصةِ على سُمعتِها وماضيها وتاريخ نضالها.

الامتحانُ يقول قانون نظامه: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[1]. الله سبحانه الحسيب وحده لا شريك له، والمؤمنون المسلمون يروْن العمل، لا يُنَقِّبُون عن القلوب.

ما يجمعنا؟ ما يفرقنا؟

إن الاستعمار الذي سلبنا مقوِّماتِ ذاتِنا طَعَن في خاصِرة إيماننا الذي كانَ إمكانيةَ إجماعٍ وإمكانيةَ قوة. أَوْهَنَ باحتلاله الأرضَ روابطَ الإيمان، وأوهن بتربيته المضادة معاقد الإيمان. وهبَّ الوطنيون المسلمون فاستعادوا استقلالا صوريا، لم يستعيدوا العقولَ الناشئة مِن هُيامِها وإعْجابها بالعدو الراحِل جسما وعسكرا، المقيمِ المحبوب أنموذجا ومعلما.

بعد الاستقلال أجهزت الفلسفة التقدمية الثورية على ما بقي لم يفسِده الاستحمار. فوجدت الأفكار الإلحادِيَّةُ أعشاشا لها بين ضَفَّتَيْ النهر المغربي. وجدَت أعشاشاً في أرضٍ سبْخةٍ عقيمة هي نفوس الثورة العاجزة، وعقولُ التقدمية التي لا تدري إلى أين تتقدم.

(1) سورة التوبة، الآية: 105.

وها هو مغرب الحسن الثاني يكابِد من مساومَات سُوقٍ بضاعتُها الشك والتشكيك، وعُملتُها الديمقراطية المزيَّفة، وزبَناؤها طبقة سياسية تركب عربَةً تائهة تُهَمْلجُ بها براذينُ هجينةٌ هزيلة إلى المجهول.

أزمة سياسية هي؟ أفق مغلَقٌ في مجال الاقتصاد؟ تفتتُ أخلاقيّ يُفيد فيه الزجر والعقاب؟ سوق مغلقة على الطبقة السياسية، سَحبَ منها الشعب ثقته لمَّا لعبت مع الحسن الثاني لُعبَتَه؟

إن كل ذلك مظاهر منذرة بطوفانٍ شامِلٍ سيكشِفُ عن الهوة السحيقة وأسبابِها، وسيَضْطر الطبقة السياسيةَ والمسلمين الضحايا إلى تقييم جديد للماضي، وتاريخ من تحرك ومن سكن، ومن ناضل فأصابَ نضالَه العطَبُ والعطل. وسيضطرُّ الكشف الطوفاني المسلمين لمراجعة النفس ومصارحة الذاتِ بعاهاتها المزمنة والطارئة، الماضية والحاضرة، ليَكشف المسلمون في هذا البلد عن ساق الجد، وليلتفوا حول إسلامهم تائبين إلى الله، سائلينَهُ إجْماعَ رحمةٍ حول الإسلام، وتحت شريعة الإسلام، وعلى ضوء القرآن ومصباح السنة.

المسلوبُ العزيز منا دينُنا. وهذا البيت المغربي من بيوت الإسلام جامعتُه الإسلام، وإجماعه المفقود المنشودُ الإسلام. وإلا فأنا أمازيغي ما يجمعني بالعربي، أنا إفريقي ما شأني بقومي يَنظر إلى الشرق، تقدمي عدوِّي مدموغٌ بطابع الطبقية، شعبي لا لقاء لي مع البرجوازي إلاَّ لتصفية ثورية للحساب، ديمقراطيٌّ لا أدري من أين جاءني وطرأ علي دخلاء يتكلمون لغة الشورى.

بدون إجماع على أرضية إسلامية يتخندق المتناقضُون الأضدادُ ويَحفر كلٌّ عن جذوره ليُبعِد الشقَّةَ ويعمق الهوة وما الإسلام إلا رَحمةٌ ووِئام. وما حُكم الشورى الإسلامية سيف قاطع يشطرُ الجِسْمَ

شطرين، أو ينثُرُ الغثاءَ الموروث ذات اليمين وذات الشّمالِ. الإسلام جعلنا أمة، أهاب بنا لنكون خيرَ أمة.

الإسلام وحدة. وحدةٌ في إطار عدلٍ اجتماعي. وفي نقطة اندماج اجتماعي سَلمي على أساسِ عدل اجتماعي سَلميٍّ يقف لنا التحدي الأكبر. فلا الرأسمالية اللبرالية ومذهبيتُها استطاعتْ حَلَّ القُفْلِ الاجتماعي، ولا الشيوعية ناقدتُها فَعلَتْ. عاثتْ فسادا في اقتصاد المغرب، وأوصلت إلى حافة الكارثة في المغرب، لبرالية الملكية المغربية، وانتهازية أغنياء المغرب، واحتقارُ المترفين المحظِيّين في المغرب الظالمين في المغرب الـمُستضعفين في المغرب. عاثتْ وتعيث في أفق مستقبل مفتوح على الطوفان.

كما عاثت وتعيث في العقُول إديولوجية العدل الاجتماعي الجدليةُ الصراعيةُ المتراجعةُ في المغرب، المتصالحةُ فيه مع عُمَداء الظلم في المغرب، فتراكم إفساد على إفساد. والإسلام ليسَ طِلَّسْماً يجمع بين مُتناقضاتِ أمْسِ الخابطاتِ في أوحال اليومِ بلَمسات صباح غدٍ المشرقة.

الإسلام شريعة وواجب وحق ومسؤولية وعدلٌ وسلطان يحكم ويفرض القسمة العادلة على الكافة. الإسلام انقيادٌ لأمر الله، واستجابةٌ لنداء رسول الله، وتربية النفوس والعقول والسلوك على طاعة الله.

الإسلام دعوة تربي ودولةٌ تمشي بالناس على صراط مستقيم. الإسلام قرآن وسلطان. لا يقبل الله دين جماعة فقراءَ مسلمين وطبقة محرومين من المسلمين تَجْمع كلمتَها وتعبِّئ قوتها لقتال جماعة من المسلمين، كما لا يقبل دينَ متمولين من المسلمين يقَع إجماعها على ظُلم حقوق جماعة من المسلمين. فمن لم

يَرفَعْـه إيمانـه وقرآنـه إلى مقـام المسـؤولية الإيمانية حطهُ سـلطانه إلى خضوع وخنـوع.

ضع التربية الإيمانية ودولة الشورى على مِحَكِّ واقع ما بعد الصدمة التكنولوجية المعلوماتية الطائرةِ بالإنسان إلى أجواءٍ لَمَّا نتَصَوَّرْها. ضعهما أمام التحديات التي تواجهُ الأمة المسلمة، الشعب المغربي، التي فاتَها قطارُ التصنيع، وأربَكَ نظامها التعليميَّ وسائرَ أنظمتِها صدماتٌ رضَّتْ اللَّحْم وكسرت العظم. ضع التربية الإيمانية والشورى الإسلامية في القِران الحاضري المستقبلي وقدْ اكتملَت لديك معالم التحدي الأكبر الذي ينتظرنا، والضرورة الملحة للوحدة الإسلامية التي بدونها تذرونا الرياح السافيات.

تذرو الرياحُ من شاءت، لا أبَالِي من سَلَكَ ومَنْ هَلَكَ، إن كنت مُتَقَمّطاً في أنانيتي، ورَغَدِ عيشي، وزينةِ دنيايَ. لكنني مؤمن بالله وبلقاء الله. فالوحدة ديني والعدل ديني، بهما ألقَى الله سعيدا، وبدونهما ألقى الله بدينٍ مثلومٍ منقوصٍ. لا يغني عني من الله شيئا يومَ ألْقاه أن فوَّضتُ أمْري إلى غَيْري ثقةً واغتراراً، أو اختلس مني غيري فطرةَ نفسي وسداد عقلي.

نقد الناقد والمنقود

فمن منطلق الإيمان بالله وباليوم الآخر، ومن معقِل اليقين بلقاء الله بعد الموت، ومن حِرصِ المؤمنين والمؤمنات على سلامة آخرتهم، وسعادة آخرتهم يبدأ نقد المذهبيات الماديَّة كلها، لبرالية رأسمالية غابوية واشتراكية صراعية. إنه نقد جذْريٌّ كليٌّ وُجودي، ليس نقْدَ مذهَبِ معاشٍ لمذهبِ مَعاشٍ، ونقد فلسفةِ مَعاشٍ لفلسفة مَعاش.

بل هو نقْدُ عقل مؤمن لعقل كافر، نقد نفس مطمئنة بالإيمان لنفس يضطرب في أحشائها الشك وتغْلِي فيها قُدورُ الريبةِ والهلع والجزع.

إنه نقدُ إنسانٍ، بَعْدُ، لإنسان. إنسانٌ قال عنه الله عز وجل خالقُه وقال لَه: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ**﴾[1]. ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ**﴾[2].

إنه نقْد إنسان سَمع من الله ما أوحى به الله وبلغه رسول الله وصدق وأطاع وصلى وزكّى لإنسان لَمْ تسمَعْ أذُنُ عقله وقلبه فهو في هلَع دائم وفزع. قال الله تعالى القولَ الفصلَ في الصفتين: ﴿**إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ**﴾[3].

إنه نقدُ إنسان علاقتُه بالدنيا تحصيلُ زاده منها للآخرة لإنسان منحصِر الهمِّ في الدنْيَا مغترّ بنعيمها الزائل، كادحٍ منوعٍ هلوعٍ. ولكليهما عقْلٌ صالحٌ لتدبير المعاش الدنيوي، يفضُلُ في ذلكَ الـمُجِدُّ المتَعلِّم الجاهلَ بنواميسِ الكون التي وضعها اللهُ للجميع تَسْخِيرَ بلاءٍ وامتحان عُبور.

ذلك. ومتى سَرَقتْنا مُياوَمةُ النقيضِ ومُجادلتُه فسكتنا عن الجوهَرِ والمصير الأخروي فقدْ بَرْهَنَّا على أن دينَنَا إنْ هو إلاَّ حروفٌ طافيةٌ على وجه اللَّغْوِ الكادح في الدنيا.

(1) سورة الانشقاق، الآية: 6.
(2) سورة الانفطار، الآيات: 6 – 9.
(3) سورة المعارج، الآيات: 19 – 28.

إنه إسلام تقابله جاهلية. إنها نفوسٌ وعقولٌ إن جمعتْها الحاجات المعاشية في الدنيا، والانْتِماء المشترك للعنصر البشري، وجَرَتْ عليها جميعا نَفْسُ النواميس الكونية التي لا تستثني مؤمناً من كافر، فقد فرقت بينَها الاستجابةُ لداعي الله. هذا لَبّى وأقبل، وذاك أعرض ونأى بجانبه.

النفوسُ المؤمنة والعقول المسلمة تتهذبُ بالقرآن، وتقرأ في سورة المعارج وأخواتها ما هي الخصال المنجية في الآخرة المسعدةُ فيها. تنجي وتُسْعِد الصلاة، والزكاة، والكفُّ عن المحارم، وإعطاء كل ذي حق حقَّه، ونُصرةُ المظلوم، إلى سائر خصال الإيمان.

في الكِفَّة الأخْرى مِن مِيزانِ المعاشِ والـمَعاد إنسانية جاهلية لا تتهذَّب بكتاب منَزَّلٍ، ولا ينحبس جشعُها ولَهَفُها على الكسب بحابِس خُلُقٍ. فالتكاثر والتفاخُر -أي طلب الثرْوة والجاه- هما الحاديان المنشدان في أذُن الأنانية نشيدَ الفرْديَّة الذي تغنيه الرأسماليةُ اللبرالية مبدأً مُعْلَنا، وتهمسهُ -كانت- قصيرة العُمْر الشيوعيةُ.

ومع الثروةِ والرئاسة، الـمُرْضِيَيْنِ للأنانية الاستكبارية التكاثريةِ التفاخُرِيَّة، زَهرَةُ الحياة الدنيا: اللذةُ والمتاعُ.

انتكست الشيوعيةُ الفيلسوفةُ وخسِرَتْ في السباقِ لَمَّا جهلت وتجاهلَتْ الحقائق الغريزيةَ التي تحرك الإنسان للكسْب. وأفسحت اللبرالية الرأسمالية المجال لهذه الغرائز بلا حدود فأجادت الإنتاج. وأساء القسمةَ المذهبان المادِّيان.

أقول: أجادت الإنتاج، وأعني أنها دبَّرَتْه تدبيراً عقلانيا عجرت عنه غريمتُها. وإلا فالإساءةُ المتفاقمة لبيئة الأرض والسماء، وهتْكُ حجابِ الأُزونِ في أعالي الجو، وتلويثُ الإنسان التلويثَ الخلُقِيَّ

الـمُواكِبَ الـمُلاَزم للتلويثِ العامِّ، وتبذيرُ الموادِّ الخامِّ التي زوّد الله بها البشر في هذه الأرض، وتكديسُ القُمامات المسمومةَ في ديار المستضعفين، وتهديدُ أمْن الإنسانية بالهوْل المكدس في الترسانات النووية، ليس من الإجادة في شيء. بل هو الشر بعينهِ.

أنتجتْ اللبرالية الرأسمالية ووَسَّختْ بإنتاجها الإنسان والبيئة. وأطلقت الرأسمالية المتوَحشةُ العنان للغريزة الكسبية في غابة السباع الكاسرةِ. والمذهبية المناقضةُ -كانتْ- لاَ أنتجَتْ ولاَ أطلقَتْ ولا حبَست.

بلى! أنتجت المخزون الجهنميَّ من الصواريخ ذات الرؤوس النووية. أنتجت رُكام الموت النووي في تشرنوبيل وفي أصقاع روسيا كلها.

ويلتقي، مُعارضاً مسائلا الإسلام وشريعتَه وتهذيبَه الغرائِزَ، تحدٍّ كبيرٌ تحتَه تحَدِّيان: تحدِّي إقامةِ العدلِ بين بَني الإنسان، تحته تحدي إجادةِ الإنتاج وإجادةِ القسمة.

الزهدُ في الدنيا ومتاعها فضيلة إحسانية عالية، والقناعةُ بالقليل الكافي من مقومات المعاش حِكمةٌ إيمانية، وضرورة إنسانيةٌ تفْرض نفسها على ساكني المعمور يومَ ترتطم الرأسمالية الجامحة بجِدار محدوديةِ مواردِ البَرّ والبَحْر. تعلِّق الرأسمالية آمالها على مدَدِ البحار في القرن المقبلِ، وهي مجتهدة في تلويثه بصناعاتها الكيماوية وسمومها النووية لا تني. وما يفعل الله بعباده من قبضٍ وبَسْطٍ بلاءٌ لن تستطيعَ النجاح في امتحاناته الإنسانيةُ في القرون المقبلة بفلسفة جدلية كانت اقتصادياتها وتكنولوجياتها أشَدَّ على البَرّ والبحر من غريمتها. لا، ولن تستطيع الجاهلية الأخرى أن تجيب عن أسئلته.

تستحيل فضيلتا الزهدِ والقناعةِ علَّةً تشدُّ حركَةَ جوْدةِ الإنتاجِ وتُبْطِلُ دواعي حسن القسمة، وتُسْقط كلَّ معاني العدل الاجتماعي إن هما تجاوزتَا الخلُقَ الفرديَّ وبات كل الناس زُهّادا قانعين. ينكمش الاقتصاد في دروشة شلاَّء ضعيفةٍ هزيلَة عَزْلاءَ إن انقَلَبَ الإعراضُ، الإيمانيُّ الإحسانيُّ الفرديُّ المحمودُ، عن زُخْرُف الدنيا وزينتها إلى سلوكٍ اجتماعي.

تربية الجشع الغريزي والهلَع الإنساني المتأصِّل في البِنية النفسية والتطلعِ العقليِّ تنقلب تردِيَةً إنْ لم يعمل المسلمون على إعداد القوة التي أمر الله بإعدادها. والقوةُ مادَّتُها وعضَلها وقِوامها اقتصادٌ قويٌّ في دنيا المنافسة العالمية المحمومة، دنيا السباق التكنولوجي، دنيا المسلمون خلّفهم في حواشيها وهوامشها ركْبُ التصنيع، وركب توطين العلوم، ورَكب تقويم نظام الحكم أوَّلَ شَيءٍ.

تربية الجشعِ والهلَع مطلَبٌ محورِيٌّ في الموضوع. وهي هي التربيةُ الإيمانية الإحسانيةُ الكفيلةُ وحْدَها -دون المذهبيات المستورَدَةِ، بل الزاحفَةِ المغيرَةِ- بلَمِّ شَعَثِ الأمة، ورَأْبِ صَدْعِ الطبقية المفرِّقةِ شَمْلَ المجتمعات المسلـمَةِ.

هي هي التربية التي تنقُدُ المذهبيات الجاهلية، وتضعها على محَكِّ المعيار الإسلامي الإيماني الإحساني الشرعي. نقْدُ كلٍّ بكلٍّ. نقدُ جاهلية بإسلام. نقد لاييكيَّة بدين. نقد استبدادٍ طاغٍ وديمقراطيةٍ لادينية بشورى تستجيب لله والرسولِ وتطيع.

وقد فصل الله عز وجل لنا الجاهلية ومذَامَّها أربعة أرباع:

1- ظنَّ الجاهلية: وهو الشك في الله، واعتماد الفَرَضيات المادية، والمسلّمات الدوابية. ظن الجاهلية يَنقُدُه الإيمان بالله وبلقاء الله، والثقة

بالله وبصواب ما جاء من عند الله، وبصدق من بلَّغَ عن الله، وأمانةِ من دَلّ على الله.

2- حكمَ الجاهلية: وهو الحكمُ بغير ما أنزل الله، سواءً في ذلكَ ملكيَّةٌ جبريةٌ، وتسلُّطٌ باغٍ، وديمقراطيةٌ مُزَيفةٌ، ولادينيةٌ ديمقراطيةٌ. ينقُدُ حكمَ الجاهلية الشورى وشروطها وسِياقها وأخلاقها.

3- تبَرُّجَ الجاهلية: تَبَرجُ النساءِ هو المظهَرُ الأَتَمُّ لزينة الدنْيا ومتاعها ولذتها. انهاكها في الرجل وانهاك الرجل فيها ذهابٌ في غياهب الغفلة عن الله. يَنقُدُ تبرج الجاهلية ما أحل الله للنساء والرجال في نطاق العِفة والطهارة والأسرةِ السليمة المتماسكة مُرَبِّيَةِ النشء وحافظةِ الفطرة.

4- حمِيَّةَ الجاهلية: هي اتباعُ الهوَى في مظهره الغضَبيِّ، كما هو ظن الجاهية اتباعٌ للهوى في مسالكه النفسية العقلية، وكما هو حكم الجاهلية اتباعٌ للهوَى في تكاثُريته الاقتصادية وتفاخريته السياسية، وكما هو تبرج الجاهلية اتباعٌ للهوى في غرائزه اللذاتية. ينقُدُ حَمِيَّةَ الجاهلية وصورتَها الحاضِرةَ في الدولة القومية القطرية القفَصيَّة وحدةُ الأمة، ورسالةُ الأمة، واندماجُ المجتمع المسلم في وَلايَةٍ عادلَة جامعة.

أربع سِماتٍ للجاهلية تركتْ بصَمَاتِها على المجتمع الغثائي الموروث، وهي آخذة في بَصْم المجتمع المختلط الممزَّق بين يمين ويسار، وحداثة وأصالة، وتخلفٍ مستَضْعف في قاعدة المجتَمع من فوقه مجتمع مُتْرَف. وسمٌ موروثٌ على وَسْمٍ جديد. خدُوش جاهلية على خدوش. لا ينقُدُ كل ذلك إلا توبةٌ وحكم شورى وعدلُ شريعة وإحسان أُخوّة. فينا من الجاهلية بمقدار ما فينا من سماتها الأربع.

الفصل السابع

من أخذ المبادرة من يد المؤسسين؟

- «فقدنا المبادرة!»
- العالم الفقيه والثوريُّ التقنوقراطي
- الذات المبعثرة

«فقدنا المبادرة!»

نعود من جولتنا في المبادئ والأفكار إلى سياق حديثنا عن الحركة الوطنية التي اختلفت بها السبل وانشق يَسارٌ تقدميٌّ بحثنَا ملِيّاً عن أصولِ فكره عن وطنية مسلِمة. وطنية مسلمة نقرأ هنا وفي الفقرات المقبلة إن شاء الله خيبَةَ أملها وانفلاتَ الزمام من يدها. نبدأ بشهادة علال الفاسي رحمه الله وبفجيعته في حزب الاستقلال المنشطِر يمينا ويسارا، ونقرأ فجيعة العلماء المؤمنين مِن حزب الشورى والاستقلال في فقرة لاحقة إن شاء الله.

كلمةٌ سمعها الدكتور إدريس الكتاني من زعيم حزب الاستقلال، قال: «في يوم 16/ 2/ 1973، كنتُ على موعد مع المرحوم الأستاذ علال الفاسي بمركز حزبه، وعلى انفراد. وخلال هذا اللقاء الوُدي حلّلْتُ له الوضْعَ الذي آلَ إليه حزبُه الإسلامي، واقترحت عليه القيام بـ«انتفاضة» يتخلص فيها من الجناح اليساري، وينفتح فيها على الإسلام انفتاحا كاملا يستعيد به ثقة وتأييد الشعب المغربي المسلم. وكان جوابُه بنفس لغة الصدق والصراحة التي كانت سائدة بيننا: «كل ما قلته صحيح. ويؤسفني أن أعترف لك بأننا فقدنا المبادرة».[1]

وفي نفس الجريدة كتب الأستاذ الدكتور الغيورُ على دينه: «لقيتُ أستاذي المرحوم بوشْتَى الجامعي أحَدِ أعمدةِ حزب الاستقلال من العلماء، فقال لي بالحرف: «جميع ما قلت عن حزب الشورى (في كتابٍ نشره سنة 1958، نرجع إليه قريبا إن شاء الله) يجب أن يُقالَ عن

(1) جريدة «الراية»، 19 ربيع الأول 1414هـ.

حزب الاستقلال». فأجبْته: هذه مسؤوليتكم أنتم، وعليكم القيامُ بها. أما أنا فقد قمت بواجبي تُجاه الحزب الذي أعلنت استقالتي منه بعد نضال طويل».

قبل وفاة علال رحمه الله بعامين يعترف علال بأن المبادرة أفلتت من يده، وأمسك الزمام جناحٌ في الحزب يساريٌّ. هذا يَسارٌ آخرُ غيرُ اليسارِ الماركسي اللينيني الذي كنا في الحفر عن جذوره منذ حين. كان اليسارُ الثوريُّ قد انشق عن الحزب وأسَّس «الاتحاد الوطني للقوات الشعبية» سنة 1959. لا يعنينا هنا أن نَنْبش عن طبيعة الجناح اليساري الذي أفقد الحزب الكبير ثقة الشعب، وأراد الكتاني أن يستعيدها يومَ ناشد الزعيم الكبير بصدق وصراحة.

يكفينا أن مُناشِدَ الزعيم يحلل «الوضع الذي آل إليه الحزب الإسلامي». كان حزب الاستقلال إسلاميا نشأةً، وانتهى أواخرَ حياة العلماء المؤسسين من طبقة علال وبوشتى رحمهم الله يمينا ويساراً لا يجمعهُما الإسلام، وإنما تَجمعهما هياكل الحزب، فريق «منفتح» على الإسلام، وفريق لا يُدْرى إلى اليوم بعد بضع وعشرين سنة من كلمة علال ما مقدار انغلاقه أو انفتاحه على الإسلام.

كيف اختُلِسَ الحزب الكبيرُ وحُوِّلَ مجراه؟

أعتمد في هذه الفقرة على كتاب الصحفي الاشتراكي عبد اللطيف جَبْرُو (المهدي بن بَرْكَة 2). قال: «بوصول الزعيم علال الفاسي إلى الرباط في غشت سنة 1956 ستبدأ مرحلة جديدة من حياته جنبا إلى جنب مع المهدي بن بركة في إطار نضال مشتَرَكٍ استمر عامين. ومن أهم نتائجه أزمة حزب الاستقلال سنة 1958. إنها ستؤدي إلى انتفاضة 25 يناير سنة 1959 التي أبعدت المهدي عن علال».[1]

(1) المهدي بن بركة 2، ص: 56.

عاد الزعيم العالم من منفى تسع سنوات في الكابون، وتقاسم المسؤولية مع المهدي بن بركة «جنبا إلى جنب، وتأزّمت العلاقات. فلما زار بعض كبار الحزب الزعيمَ الأكبر والمنظم اليساري يسألون عن أسباب الأزمة، قال علال: «لما عدت إلى المغرب اكتشفت أن المهدي ابن بركة هو كل الحزب. ولا أتخيل حزب الاستقلال بدون المهدي بن بركة». [2]

ويجيب ابن بركة الزائرين بهذه العبارات التي تقول كلَّ شيء عن سيْطرة المهدي وجيلِ المهدي، وعقلانية المهدي، على الحزب: «أنتم تتحدثون عن انشقاق في الحزب، وأنا من جهتي لا أرى أن ثَمَّتَ انشقاقاً لِحَدِّ الآن. ولكن الموقف سيختلف إذا ما اتخذ سِّي علال موقفا مختلفاً معنا. لأن موقف سِّي علال وحده نضعه في الاعتبار. أما الآخرون فأنا أعتبرهم هامشيين». [3]

والحقيقة أن المهدي بن بركة بذكائه الاستثنائي ونشاطه الخُذْروفِيِّ، كأنه دَوّامةٌ لا تَسكن، كان قد همَّش بالفعل علالاً، وفكرَ علاَّلٍ، وطبقة العلماء المؤسسين مع علال. وما كان تظاهُرُ علالٍ بالحفاظ على وحدة الحزبِ قبلَ انشقاق المهدي وأصحابه سنة 1959 وبعدها إلا تجَمُّلاً وتَصَبُّراً.

تشبع اليساريون مع ابن بركة بفكرة الثورة. ويخطبُ ابن بركة يقول: «بالثورة أيها الإخوان، ثورةٍ في الاقتصاد، ثورةٍ في التفكير، ثَوْرةٍ في العمَل وفي كل ميادين الحياة. ولن يقود هذه الثورة إلا الثوريون الحقيقيون، قلباً وقالَباً، روحاً ومعنىً، فعلا وقَولا، لا تزويراً وتضليلا وتغريرا. هذه الثورة تعترضها وتحول دونها الآنَ عوائقُ مختلفةٌ.

(2) المهدي بن بركة 2، ص: 56.

(3) نفس المصدر السابق ونفس الصفحة.

ولا سبيلَ لنا للسيْر إلى الأمام دون التغلب على هذه العوائق وإزاحتها عن الطريق».[1]

وكانت العائقة الكبرى في طريق التعبئةِ الجماهيرية كما يريدها الثوريُّ الباقِعةُ تتشخص في علالٍ وطبقة علال. فمن الشعارات التي حملتها انتفاضة الانشقاق اليساري شِعارُ القضاء على الزعامات البورجوازية التي كان مُستوى معاشِ رجالِها لا يشبِهُ تقشُّفَ هوشي منه الفتنامي وماوتسي تونغ الصيني الذي لم يكن للهائمين فيه حُبا واقتناعا أن يطلعوا على حياته الخاصة التي كانت البذَخَ الفاحش والفحشَ الباذخ خلف جدران القصور وستائر البذلةِ الماوية الثورية.

كان «الثوريون الحقيقيون» النابعون من الطبقة الشعبية يرون انْهيال الأغنياء على الحزب بعد الاستقلال، يفتح لهم علال وطبقة علال الأذرُعَ لاكتساب قوة، وينفِر منهم «الثوريون الحقيقيون» لا يرون فيهم إلا الانتهازية، والتطلّعَ الطفيليَّ إلى المكاسِبِ، والوُصولِيةَ تسلقا على أكْتافِ حزب له ماضٍ حافِلٌ بالنضال الوطني. واتُّهِم علال بأنه أصبح حليفا للبرجوازية.

لَمْ يكن الصدام وما تلاه من انشقاق ولِيديْ تناقُضٍ طَبَقِيٍّ فقط، بل كان أيضاً، وربما قبل كل شيءٍ وَليدي تناقض بين عقليتين وعقلانيتين: علال ربيبُ القرويين العالِمُ الواسِعُ الاطلاعِ الذكي الألْمِعِيُّ، وابن بركة الألمعيُّ الذكيّ السجينُ في إديولوجية الثورة والجماهيرية. وكِلا الرجُلَيْنِ يمثلُ مدرسة واتجاهاً وأسلوبَ فهم لما يحدث ولما يجب أن يُفْعَلَ.

(1) المهدي بن بركة 2، ص: 65.

كانت مدرسة ابن بركة تتهم المدرسة الأخرى بالجمود الفكري وبالعجز عن فهم العصر. بل اعتبروا العقلية التي أسست الحزب وقادتْه إلى الاستقْلالِ طوعاً وكَرها إحدى مخلفات الاستعمار. لعلّ في الخطاب البركاوي مَخْفيَّاتٍ ثوريّةً لا تظهر في الكلام، لا سيما مَخْفيَّةَ المخزَن والملكيَّة الوراثية والسيطرةَ الحسَنيّةَ. لكن خطاب ابن بركة يقول أيضاً عن عقلية علال وطبقة علال أسباب الانشقاق وبوادِرَ الانشقاق. صرَّحَ ابن بركة سنة 1958، قال: «ولقد حان الوقت لكي تستمر بلادنا على ساق الجدّ، وتدخُلَ في قطيعةٍ مع الماضي الاستعماري. حيث أن آخر المخلَّفَات يتعيّن أن تزولَ لفسح المجال لمفهوم عصري وعقلاني للمسؤوليات الحكومية».

كان التصريح مُوَجّها لحكومة البكاي، هذا العسكري المعتدل الذي رفض نفي ملك المغرب محمد الخامس رحمه الله. تصريح موجّهٌ ضِدَّ ما سماهُ الثوري الفقيه البصري «القوة الثالثة» الانتهازية. لكن سياق الثورة البركاوية يَحمِل أيضاً نقْداً «للمهمشين» الذين سمعناه منذ حين يهدد علالاً أن يدحرجَه معهم إن خالف.

كان أمام العَقْليتين المتناقضتين مهماتٌ ثقيلة متشابكة. كان على عقلية العلاليين والبركاويين أن تتخلصا من «الخونة الذين لا يزالون مُندَسّين في صفوف الإدارة أو الشرطة أو القضاء». ومن «الانتهازيين الذين يُصيبُهم الغرور بالمناصب التي يصلون إليها من غير مقدُرة ولا استحقاق».

عقليةُ البركاويين تستعمل لغةً «تقدمية» جِرِّيئَةً فيما عدا الإعلانِ عن هُوَيّتها ومصدر وحيها، وتنظر إلى العقلية الأخرى على أنها عقلية رَجعية. ماذا بقي مكبوتا في الخطاب البركاوي من كراهية مكتومة

لتلميذه الحسَن وما يمثله الحسنُ من رَجْعيةٍ تَكشفُ عنها الإديولوجية الجماهيرية الشعبية؟

َهذه الكراهية الثورية عبَّرَ عنها الفقيه البصري -رجل الميدان- تعبيرا عمليا أدّى به إلى التقاط أربعة أحكام بالإعدام. وكان مُجَرَّد تَحرُّك الدوامةِ ابن بركة وتحليقه في أجواء الثورية الأممية العالمية كافياً لوَسْمِه بمَيْسَم الخطر الأكبر على النظام الملكي. وكان ذلك كافيا لإعدامه بالفعل. وبقي اختياره «الثوريُّ» وصيَّة يتنازعها الثوريون المغاربة أيُّهُمْ أكثرُ وفاءً وألصَقُ يَسارية بالثوري النموذجي.

كان ابن بركة ثوريا حقيقيا، لكنه إذا ذكر الأنبياءَ قال «عليهم أزكى السلام». كان إيمانُه بالوَطَنِ والشعب والجماهير مُعلنا، لكنَّهُ لم ينتَم يوماً إلى نادي الإلحاد، ولا أُثِرَ عنه كلمة إلحاد.

كان مرحلةً في الطريق الهاوي من مقام أهل الإيمان، والإيمان وحده. وكان أيضا واسطةً وجِسْراً بشريا بيْن العقلانية الثورية، الإلحادية تعريفاً، وبين أجيال فتحت عيونها على أن الثورة والإلحاد هما خلاصُ الشعب من كل ما يعانيه الشعب من تخلف وظلم.

العالم الفقيه والثوريُّ التقنوقراطي

تركض بالمغرب أزمات متلاحقة بعضها أعمق من بعض. والنهاية الطوفانية لنظام فسدَ وأفسدَ لائحة في الأفق. إذا تهرَّأَتْ ثمرَة فأي ريح تحركت تسقطها. فماذا بعد الطوفان؟ وما هي العبرة التي يُرشدنا إليها ماضٍ اصطدمت فيه عقليتان وارتطمتْ وانشقت؟ وما هو المستقبلُ الذي يكفُل لنا أن لاَ نجْترَّ إلى الأبد مرائرَ تجرَّعها أشِدّاءُ ذوو عزائمَ، اعترف أحدهم آخرَ عُمُرِه أن المبادرةَ خرجت من يده، والآخر تركَ

مدرسةً ثورية لا تزال تتفاعل في أحشائها عقلانيةٌ نبذت العقيدة، أو نسيت العقيدة وعاشت لاييكيتَها في اطمئنان؟

قرأنا كيف يفكر وكيف يعمل وإلى ماذا يطمح أستاذ الرياضيات ابن بركة. عقل رياضي تشربَ المنطق الجدليَّ الضيق، فالشكل عنده إفناء الطبقة العدوة، وطرد الانتهازيين، والركوب على الحماس الجماهيري لإنجازات عينية. وكذلك فعل. نرى في فقرة مقبلة إن شاء الله العنف الثوري اللينيني والصراعية الماركسية في الميدان وما أفنت واعتقلت وقتلت وعذبت. ونقرأ حماس الشباب الذين جيشهم ابن بركة لإنجاز مشروعه في بناء «طريق الوحدة». وقد قرأنا في الفقرة الماضية تهديدَهُ غيْرَ المكتوم ولاَ الخَجول لعلال حين أخبر الزائرين بأنه لا يقيم وزنا إلا لِعلال... إن لم يخالف علال.

لم يمتثل علال للانضباط الثوري ولِإملاء صاحب الأمر والنهي في الحزب ابن بركة. وبقي مهمَّشاً مع المهمشين في علياءِ بُرْجه الرمزيِّ زعيما يخطب ويكتبُ وليس له من الأمر شيء قبل الانشقاق، وليس له من الأمر كثير شيْءٍ بعده، كما أخبر بذلك عن نفسه ثلاث سنوات قبل وفاته رحمه الله.

علال العالم الفقيه النابغةُ كانَ ذا عقليةٍ واسعة الأفق، وذا اطلاع موسوعي. كتب كتابه «النقد الذاتي» بعد أن قرأ لكل فصل من فصولِه، المناهزة للستين، عشراتِ المؤلفات بالعربية، وبالفرنسية التي تفرغ لها فأتقنها. جال في كتابه جولات في مسائل الفكر والتفكير، وَوضع لتفكيره منهجية حاول بها أن يُمِرَّ الفكرَ العالمي من مصفاة الفقيه.

وكان له في كتابه هذا، الذي لا يزال حزب الاستقلال يعتبره مَرْجِعاً، اجتهادات في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والآداب الاجتماعية والصحة وحقوق المرأة والتعليم وسائرِ شؤون الحياة.

عقلانية موسوعية ارتطمت بفكرٍ مقتضَبٍ جدليٍّ عملي تقنوقراطي له حل جاهز لكل مشكل. وارتطمت عقليةٌ علال -رحم الله علالاً- الإبقائية الـمَرِنَةُ التي ورثها عن أجيال العلماءِ المصلحين الذين طاولوا الفتنة وحاولوا، بعقلية المناجزَةِ والمقاطعة والإفناء الثوري.

كان تفَاؤُلُ علال في تفكيره بين دَفَّتَيْ «النقد الذاتي» يُريه إمكانية تعبئة إيمانية حول الشريعة الإسلامية، تعبئةً مستفيدةً من العصر. وكانت تعبئةُ التقنوقراطي الثوري وثوباً مع حماس شعبي شبابي كان الوطنيون يشتركون فيه مع عامة الشعب الثَّمِلِ بوعود الاستقلال. ما لبثَ أن خان الوُعودَ من خان، وسقطت الآمالَ في رَماد الخيبة.

كان العالِمُ الفقيهُ يداري الملكَ الـمُغَرَّبَ، وهو الذكي الألمعي، شاعراً «بالفخ» التاريخي الذي وقع فيه الوطنيون، ألا وهو ارتباط مطالبهم بعرش هو الشرعية التاريخيةُ المقبولةُ سياسيّاً، وارتباطُ الاستقلال بشخصِ الحسنِ. وداري علال والوطنيون ومارَوْا.

أما ابن بركة، وقد كان أستاذاً علَّم الحسن الرياضيات في المعهد الملكي، فلَإنْ كان الفكرُ الغربيُّ جامعا بينه وبين الملك، فإن ثوريةَ الأستاذِ ومنصبَ التلميذ ضدان لا يجتمعان. وكشَّرَت المخزنية في وجه الثورية، ثم بطش العنف المخزني بالعنف الثوري.

ومضت سنواتٌ بعد الاستقلال، استحالَ فيها تسيير حكومة منسَجِمةٍ يقودها حزب منسجم. وكانت حكومة الفقيه الثوري الأستاذ عبد الله إبراهيم سنة 1958 آخِرَ مُحاوَلَةٍ حزبية لنزع مقاليد السلطةِ من اليد الملكية الباطشة. وكانت ثورةُ محمد سلام أمزيان في الريف تلكَ السنةَ رَفضاً قوياً لتشنُّجاتِ الساسَةِ وبطْش الثوري وغطرسة الملك. ثورة أخمدتْ في الدماء بشراسة مخزنية شهدتْها قُرونٌ، ويشهدها في زمانِنا بطش الحسن وأقباءُ التعذيب في زنازين الحسن.

مضت سنواتٌ بعد الاستقلال، وتَوَطَّأَت الانتهازية في حجرِ الملكية الحسنية، وظهر الفساد في بَر الدولة وبحرها.

ويرجع علال رحمه الله إلى متين أصله، ويعلنها جهاداً أكبرَ في مواجَهةِ الغربنةِ في الحزب والدولة. أدرك، وهو اللبيب المجربُ الحاضِرُ المعاني الـمُكْتوي بلهب النار وجَمْر الفتنة، أنه خندَقٌ واحِدٌ، يستوي الثوري فيه والمخزني من حيثُ معاداةُ الشريعة والانحرافُ عن الدين. كان علالٌ رحمه الله وُعِد ووُعِدَت اللجنة الفقهية التي ترَأسها لتضَع قوانينَ بديلَةً عن قوانين الاستعمار، بأن القانون الفقهي الإسلامي سيشمَلُ كل مجالات الحياة. فلما فرغت لجنة علاَّل من تدوين الفقه الخاص بالأحوال الشخصية، طِويت الصفحةُ لتصبح كلمة الملكِ وخطبته هي القانون. وليتربَّع الفكر الغربي على سُدَّة كل مجالات الحياة.

وأطلقها علال صرخةً أصيلَةً شجاعةً مُبينة في وَجه أعداء الدين. أنقل صَدَى صرختِه من كتابه الأول في سلسلة «الجهاد الأكبر»، وعنوانُه «دفاع عن الشريعة». فرغ منه في فاتح جمادى الثانية سنة 1386 هـ.

قال رحمهُ الله في مقدمة الكتاب: «لم يحدُث أن فُصِل المسلمون عن أنفسهم في عصر من العصور كما فصلوا اليوم بسبب الاستعمار الأجنبي الذي هاجم ديارهم وأصابهم في ثرواتهم الماديّةِ. ولم يكتَفِ بذلك حتى هاجمهم في لُغاتِهم وثقافتهم. وصاغ منهم كائناتٍ على صورته، تردد ما يقول وتعْمَلُ بما يوحي به دون أن تُدرك أنها إنما تعمل ضدّ نفسها وتحارب كيانها.

قال رحمه الله يكشف عن التواطُؤِ الـمُغَرَّبِ الثوري وغير الثوري: «وهكذا أصبحنا أمام جبهة داخلية ترفُض علينا أن نتكلَّم لغتنا

أو نتعلم بها، كما ترفض علينا أن نتخلَّى عن ما أسسه المستعمر من قوانينَ في بلادنا، وإحلال الشريعة الإسلامية محلَّها.

قال: «وقد أصبح النضال في هذه الجبهة أقوَى وأشَدَّ خطورة من النضال في الجبَهات الأخرى التي يواجه فيها المسلمون خصومهم جهارا، ودون أن يجدوا من إخوانهم من يعارضهم في النضال أو يفُتُّ في عضُدِهم ويقف بجانب العدو».

شعورٌ حادٌّ بخطر العدوِّ المندَسّ بين المسلمين من بني جلدة المسلمين، من الحُكام على المسلمين، ومن الطبقة المعادية لإسلام المسلمين. شعور لا تجد له أثراً في كتابات العالم الزعيم قبلَ دخولِ الوطنيين والمخزنيين في مِحَكِّ الاختبار.

قال رحمه الله: «لقد أصبح قسم من المسلمين -وجلهم من المسؤولين في الحكومات الإسلامية- يقومون مقام المستعمر في الذَّبِّ عن الفكر الأجنبي المتمثِّلِ في القوانينِ الـمُحْدَثةِ. وَكِيلَ الطعنُ الـمُتوالى على الفقه الإسلامي ورجاله ودُعاةِ العودة إليه. بينما يقف أنصار الشريعة وعلماؤها موقِفَ المشدوهِ ضعيفِ السلاح، لأنه لا سلطة لهم ولا حول ولا قوة يواجهون بها هذا الزحف الاستعماري المتَستِّرِ باسم قادة المسلمين المستَغْربين الذين وصلوا للحكم باسم شعوبهم المسلمة ونضالها في سبيل الحرية».(1)

قلت: في الجملة الأخيرةِ لا تكادُ تختفي وراء التعميمِ خيبةُ علال في الحاكم المغربي الحسن المستغربِ الـمُغَرَّبِ مِائة في المائة الذي وصل إلى الحكم بنضال الشعب المغربي وقيادة الوطنيين العلماء.

(1) دفاع عن الشريعة، ص: 3-4.

وتَقرأ في الفقرة من صفحتي 63 و64 صورةَ الحسن الذي ربتْه مربيات أوربيات من المهد، ولقنهُ مبادئ الفكر والعقلانية أوربيون صبيا ويافعا وشابا. وكهلا أيضا.

قال رحمه الله: «إن قضية المسلمين اليومَ في أنّ المتَوَلّينَ على الحكم في مختلِفِ أنحاء العالم الإسلامي جلُّهم ممن تربّى في أحضان الأجنبيِّ وتلَقَّى من معينه. ومع أن مُعظمَهم من المخلصين لإوطانهم، والذّابّين عن حُرمتِهم، فإنهم امتلأوا بعُقدة نقص أمام الأجنبي، وأصبحوا لا يستطيعون المجاهرة بدينهم والاعتداد بحضارتهم الخاصة. إن أنانيتهم أصبحت لا تجد مجالَ تَرَعْرُعِها إلا إذا أَعْجَبُوا في أقوالهم وأفعالهم الأجانب». (2)

من يَشكُّ في إخلاصِ ابن بركة لوطنه؟ ومن يشك في إخلاص الحسن وأمثال الحسن لعرشه، يعبُدُ عرشَه ورئاستَه ويعبُد عبَادة «وثنيَّة» -كما يُحب أن يعبر في خطبه- قاعدةَ ملكه، وهي الشعبُ الخانِع المخَدَّرُ المنقَاد للدعاية الرسمية، ومظاهر البهلوانية المخزنية، والركوع في الأعياد «لأمير المؤمنين»؟

إخلاص وَطنيٌّ رئاسيٌّ كإخلاص الأم اللَّقْلاقَة التي جاءت إلى العش بحية لتأكلها الفِراخُ، فالتهمت الحية الفِراخ. ما لاَ تلتهمهُ من رأسِه القوانين الأجنبية والتربية المضادة والبيداغوجيا اليسارية، يلتهمه من الذّنَب سياط المخزَن والعنف اللينيني.

ويصف العالم الفقيهُ الداءَ وأسبابه ومواطنهُ وأعراضهُ وجراثيمه فيقول: «اتصلنَا بالغرب ونحن في دركات الانحطاط وهو في الرُّقيّ الأسمى. فجاءنا فاتحا مستعمرا، وحاكما مستعبداً. ومشيْنا إليه مِشيَة المستجدي المتتلمِذ. فلم نستفِد من علومه ومعارفه القدر

(2) دفاع عن الشريعة، ص: 63-64.

الذي استفدناه من قبل (أيامَ اتصل المسلمون وهم في أوْج قوتهم بالعلوم اليونانية وغيرها). وكان حظُّنا أنْ أخذنا نكفُر بوجودنا وبماضينا وحاضرنا، ونرغب في أن نمسخَ أنفسَنا وأفكارنا مسخا، عسى أن نتحول إلى شكله. ننطق بقوله، ونناضل عن رأيه، ونفتخر بحُسْباننا عليه».

قال: «وقد نسينا أن المسخ يقلب الشيءَ الممسوخ من صورته إلى صورة أخرى. ولكن الممسوخ لا يتحول تماما إلى ما مُسخ إليه، ولا يبْقَى على ما كان عليه. وإنما يبقَى هو نفسُه، ولكنه غيرُه. أي يتحولُ إلى صورةٍ لا هي بالأصل ولا هي بالصورة الجديدة».

قال: «فنحن لو مُسخنا غربيين لا تكون النتيجةُ أن نصبح غربيين، لأننا لسنا منهم، ولا يمكن أن نحتفظ بأصلنا لأننا قد مُسِخْنَا. فالنتيجة أننا سنصبح مخلوقاً غريبا، لا يَمُتُّ إلى جنسِنا بشكْل، ولا يمُتُّ إلى الغرب بشكل».[1]

ويفصل الأستاذ العالم مظاهر المسخ الثقافي في ميادين اللغة والقانون. ويبين الأخطار المحدقةَ بالكائناتِ المسْخِ.

ويصور رحمه الله صبيانية المقلدين المغرّبين الذين ينحصر همُّهم في أن تُعجِبَ أقوالُهم وأفعالُهم آباءهم الروحيين، فيقول: «ولكن المسلمين عموما، والمغاربةَ على الخصوص، حينما يسمع مثقفوهم اليومَ دعوةً إلى الرجوع للشريعة، تهتز أعصابُهم أيضاً مخافَةَ أن يقول المستعمرون عنهم: إنهم رجعيونَ، أو أن ذهنيتَهم لم تتحول عن حالها على الرغم مما تعلموه من علم الغرب وتقنينه».

(1) دفاع عن الشريعة، ص: 65-66.

ويسخرُ الزعيم العالم من الصبية فيقول: «وهي هزة يجب أن لا نفْزَعَ منها، بل يجب أن نعتَبِرها بمثابة خفقَة القلب التي تحصُل لمن يخرُج وحدهُ في الظلام أحيانا». [2]

كانت صرخةُ علال رجوعاً من آمال خابت، وصِراع تفرَّدَ بالنفُوذِ إثْرَهُ الملِك المغَرَّبُ والجيلُ الممسوخُ يمينا لاييكيا ويساراً ثوريا.

بعد ثلاثين سنةً من نشرِ الكتاب الصرختِهِ، هل تغيّر ميزان القُوَى في الساحة السياسية في المغرب؟ أم زاد الأمر ارتباكا، واللاعبون بقيم الأمة مسخا؟

بَلَغ السيْلُ الزُّبَى، وانتهى المنطق الانحطاطي إلى أسفل الدركات. فما كان المغاربة بحاجة أمَسَّ للرجوع لدينهم من حاجتهم اليومَ. وغداً غَدَ المستقبل الإسلامي بإذن الله.

الذات المبعثرة

انتشر حزب الاستقلال بُعيْد معاهدة إكس لبان، وتكثفت صفوفه بالواردين من كل حَدَب ينْسِلُون. وغطَّى حزب الاستقلال الساحة السياسية بطيف واسع من المنظمات، منها الأصيل والطارئ. وهكذا انتشرت الجبهة الوطنية الاستقلالية في الميدان النقابي، والطلابي، متعزِّزاً بفلول المقاومة وجيش التحرير، بعد أن فَكَّ النظامُ المخزنيُّ جيش التحرير وألحق عناصرهُ بالجيش الملكي الوليد.

كانت فكرة الحزب الوحيد العتيد الوريث تُقصي كل فكر مزاحم. وهكذا اضطُهِدَ حزبُ الشورى والاستقلال، واغتيل بطلُ جيش التحرير الملقبُ بعباس.

(2) دفاع عن الشريعة، ص: 230.

كانت القيادة بيد الثوري ورفاقه. ورأى مؤسِّسُو الحزب ما لم يكونوا يحتسبون من أمثلة العنف الثوري. فلما وقع انشقاق الحزب العتيد الوحيد سنة 1959 تعلق كل شِقٍّ منه بحجة وحدانيته: الأصَلاء حُجتهم السابقة الوطنية، والثوريون من الجيل الثاني حجتُهم الإديولوجية الثورية التي لا تقبل إلا سيادة حزب واحد له الحق وحده في تمثيل الطبقة المنقذة.

بعد خمسَ عشرة سنةً من الانشقاق الأول، سنة 1975، انشق حزب ابن بركة ومعه صاحبه عبد الرحيم بوعبيد عن حزب الفقيهين اليساريين عبد الله إبراهيم ومحمد البصري. وطرأت بعد الاستقلال أحزابٌ شعبية ناوأتْ حزب الاستقلال، وانشقت مع السنين والأعوام مثل حزب الدكتور عبد الكريم الخطيب وزملائه في حزب التحرير. وانشق الشِّق عن الشِّق، ما من نزاع شخصي إلا تلاه انشقاق يختمِرُ ما يختمر ثم ينفجر. وما من قرار صعب أمام مُعضِلة إلا وكان اختلاف الآراءِ يعالَجُ باعتزال رأي عن رأي اعتزالا تنظيميا.

ثم نشأت أحزابٌ وأحزاب، ماتَ بعضُها وليداً، وهَرِمَ بعضها واندثَرَ بعدَ سنوات من تأسيسه، وبعضها لا يزالُ يمارسُ اللعبة السياسية في حبائِل الملكية وأحضان رعايتها.

نحن الآن بعد أربعين سنة من الاستقلال نسمع الجميع ينادي بالتعددية الديمقراطية. هذه الحكمَةُ التي نَضِجَتْ في أوربا من خلال صراعاتٍ دامَت قرنين في فرنسا وقرونا في أم الديمقراطيات بريطانيا العظمى.

حكمةٌ هي التعددية لا ريب. حكمة هو التآلفُ في الاختلاف، والاختلاف في التآلف، والتوافُقُ الوطني، والأغلبية ترعى حق

الأقلية، والتداوُل على السلطة يكون بديلا للصراع الأصَمِّ الفتاك على السلطة.

بعد أربعين سنة من الاستقلال، ومن الانشقاقات المتتالية، والجبَهات المنشقة، ومخاتَلَة القصر وساكني القصر، ظن الوطنيون أنهم عثروا على العلاج الوحيد الفريد. التعددية الديمقراطية.

حللنا في غير هذا المكان داء البعثرة الغثائية وأعراض المرض الغثائي، والعلاج الإسلاميَّ لداء الغثائية، وأركان الوَلاية الإيمانية والعمران الأخوي. فما قصدُنا هنا أن نرجع إلى وصف المِثالِ الصحيِّ، بل قصدُنا أن نرصُد البعثرة في فترة من تاريخها لنستعرض وجوها تاريخية صنعت الأحداثَ وشاركت في صياغة الفكر الذي انعرَج منعرجاتٍ أليمَةً، ثم أرسَى سفينتهُ على شاطئ جزيرة الأمان واللقاء الديمقراطي بالأهل والخلان.

قصدُنا أيضا أن نتبيّنَ موقعنا نحن المسلمين الإسلاميين، وسَط المسلمين الوطنيين، والمسلمين الثوريين، والمسلمين الحزبيين من كل طبقة ولَون ووِفاق وشقاق. هل تسعنا وإياهم التعددية الديمقراطية وشرطها شَرْطُها: المجتمع المدنيُّ قاعدةً، واللاييكيةُ لازمةً، وحقوق الإنسان ولو صدمت الشريعةَ ديناً، وقانُون برلَمَانٍ لا يتقَيَّد بقيْد شريعةً؟

أم تَسعنا وإياهم أرضيةٌ جمعت هذه الأمةَ منذ قرون -على عِلاَّتِ فساد الحكم والحكام، ورغم فساد الحكم والحكام- وهي أرضية الإسلام شريعةً ومذهبا وقانوناً وحقا وحريةً وقيدا؟

أعضاءُ الحركة الوطنية منهم من قَضى نحبه ومنهم من ينتظر. رحم الله من مات وأصلح من بقي. مات العالم المؤسس محمد المختار السوسي وفي حلقه مرارَة الشعورِ بالإحباط. قال في كتابه «المعسول»:

«الحضارة الغربية العجيبة التي تغير على جميع نواحي الحياة، فتُحدث من التغيير ما يجْرف التقاليد والأفكار [...] فإذا المغرب يتحول في عهد قصير إلى مغرب آخَرَ يغايِر كل ما كان معروفا منه بالأمس. فإذا بأمثالنا نحن الذين كنا نعيش في شرخ الشباب في المغرب قد كدنا نكون غرباء في طور شيخوختنا في المغرب المستقل».

نقلتُ هذا النص من مقال للشريف أبي بكر القادري، وهو مِمّن بقي غريبا بديانته وطيبوبَته وسط الإعصار، بعد شباب جهاد وكهولَةٍ امتشق فيها حُسام اليراع ليدافع عن الإسلام. ومثلُه الفقيه المجاهد المقاوم الأستاذ أحمد معنينو الـمُلْتاعُ -لا يزال- من فَعْلات العُنف الثوري البركاوي. بقي الدكتور عبد الكريم الخطيب مُسَعِّر جيش التحرير وصاحبه الفقيه محمد بن عبد الله الوكوتي غريبين تلاطمت بهما أمواج ما بعد الاستقلال دون أن تَفُتَّ في عَضُد دينهما. بقي المناضِل النقابي الثوري المحجوب بن الصديق، وهو بعد خوض غَمَراتٍ وغمَراتٍ لاَ يتركُ أن يحضر جَلْسةَ حِوارٍ مع الطارئين الإسلاميين، لم يسألهم -وهو صاحب الرصيد النضالي الهائل- كما سأل المثقف اليساري: لا ندري من أين جئتم؟

هؤلاء الباقون من كهول الجيل الثاني للحركة الوطنية لا يخلو أحدهم من رُسوباتٍ إسلامية إيمانية قرآنية مما يخلِّفُه الجلوس على حصير الكتاب القرآني. هؤلاء إن تبعثَرتْ بعض ذاتِهم أثناءَ الغَمراتِ السياسية والنقابية، فبعض ذاتهم الإسلامية رَاقِدٌ هل يصْحُو؟ مُخَدَّرٌ هل يَنْشَط؟

منهم على الساحةِ الفقيه الذي اكتسب الحدة الثوريَّةَ والوعيَ الطبقيَّ دون أن ينال المكسَبُ الجديدُ من متانة التركيب القرآني الأصلي. ومن

يقرأ كتابات الأستاذ الحبيب الفُرقانِي عن الإسلام وشريعة الإسلام وتاريخ الإسلام وعدل الإسلام يكاد يشك أنها جريدة يسارية في يده.

الأستاذ الفقيه الحبيب الفرقاني نموذج للوطني الغيور السباق في ساحات النضال قبل الاستقلال وبعده. هو خِرِّيجُ دار الـمَقْري مَقَرِّ التعذيب، وسراديبِ إهانة الأحرار، وسلخانة الشرفاء من أبناء هذا الشعب. الحبيب الفرقاني فقيه شاعر أديب كاتب ما زال منذ الاستقلال يكتب بحماس دفاعا عن الإسلام والشريعة. ثم هو سجين أي شيء في القيادة الاشتراكية؟

ومنهم على الساحة من استنزف ثقافتَه القرآنية بعض الاستنزاف معاشرة فكر تشي كِفارا ومثال تشي كِفارا وهو صامد في عاصفةِ الغمراتِ صمودَ الأستاذ نبير الأموي. الرباط الحزبي الثوري وَثاقُ شخصيته، أم ما حصله على حصير كلية ابن يوسُف؟

بقي من الجيل الثاني الكاتبُ الصحفي الاستقلالي الأستاذ عبد الكريم غلاب، الـمُنَظِّرُ المناضل، يحاول الجواب على السؤال المرتجف على شفاه أجيال الشباب المهمش: سؤالِ العدل. أورث علال رحمه الله الجيل الثاني من حزب الاستقلال ميراثا ثقيلا بشعار التعادلية.

فها هم أولاء أشلاءُ الذاتِ الفردية متشاكسٌ فيها القرآن والديمقراطية. وها هم أولاء أشلاء الذات الوطنية المبعثرة أشخاصاً منهم من احتواه النظام المخزني لكفاءته، ومنهم من لاذ بالنظام المخزني وأخْدَمَ نفسَهُ النظامَ المخزنيَّ على فضله وإخلاصه، هروبا من معضلةٍ لا تنحلُّ: معضلَةِ العدل الممتنِع، والاندماج الاجتماعي الذي فَشِلَتْ في تحقيقه الممارسات الثورية السفاكة، والشعارات المتوازنة الديمقراطية.

على واجهة الأحداث السياسية اليومَ أرْبعةٌ من الكهول الشبابِ من الجيل الثاني للحركة الوطنية، يتزعمون الحركة الوطنية. ثلاثة منهم فقهاء علماء لست أدري هل يشعرون بالغربة كما شعر بها محمد المختار السوسي، وهل يشعرون أن المبادرة انتُزِعتْ من علال، وهل انتُزِعت منهم أو لم تُنتَزع. والرابع محامٍ تلقى تعليمه في المدارس والكليات العصرية، لست أدري قوة استمساكه بأفكار مسلمة دافع عنها منذ رُبع قرن.

الفصل الثامن

البحث عن الذات المبعثرة

- البحث عن الذات
- «فقيه الجرومية»
- السلفية والصوفية
- «سلفية ثرثرة» و«حزب إلحاد ومروق»

البحث عن الذات

يَمر العهد الحسني بمناوراته وتلفيقاته وغموضه وخوفه وإرهابه وإغرائه ولعبه بالدين. غموضٌ خاض في وَحَلِه من خاض، واغترب من اغترب وانحاز من انحاز واغتر من اغتر. بعد الطوفان لا يلتقي المسلمون إلا على وُضوحٍ وصراحة واستقامة في الدين. لفهم هذا المستقبل المرجوِّ عرضًنا تاريخ وطنية اجتمعت بحماس ديني وإخلاص، وافترقَتْ لنزاعات حزبية، وانشقت لعُسْر معضلات اجتماعية، وتبعثرتْ وتناثرت. فنحن وهي نبحث عن نقطة تلاق. ومن بقايا الجيل الثاني من يبحث عن الذات المفقودة مُوَليا وجهَه شطْرَ الإسلامِ، متسائلا عن هذا الفهم الجديد للإسلام، الوارد على الساحة السياسية.

مع هؤلاء الزعماء حديثُنا، يجمعنا وإيَّاهم ما نُعلنه ويعلنونه: الإيمان بالله وباليوم الآخر. ويزرع أشواكَ الوَحشة بيننا وبينهم قولُنا بالإسلام، والإسلام وحدهُ، وقولُهم بالإسلام والتاريخ، أو بالتاريخ وكتلته، أو بالإسلام الاشتراكي الثوري، يُضيفون صفة إلى دينٍ نعتبره غنيا عن كل إضافة. وربما لا يحبس الحوارَ بيننا وبينهم تحفُّظٌ في العقيدة، لكن تحفظ وحِفاظٌ في السياسة. منا ومنهم حبيس ماضيه ومنصبه وتاريخ انتمائه.

أيكسر عُنف الطوفان الحواجز، أم يُشْدَهُ مِنا ومِنهم أمامَ مفاجآتِ ما بعد الطوفان من لا يبصِرُ الموجة العارمة قبل انقضاضها؟

كان حزبُ الاستقلالِ بقيادة الأستاذ بوستة ولا يزال أقْربَ الفرقاء السياسيينَ لتفَهُّم الحركة الإسلامية بالمغرب فاتحا صدرهُ وحيزاً من صدر صحيفته «العلم» لأخبار معاناة الحركة الإسلامية في المغرب.

بل يعتبر حزب الاستقلال نفسَه أوَّل حزب إسلامي في المغرب. وهذا شيء نبتهج به نحنُ الطارئين على الساحة السياسية. نبتهج ونقَدِّرُ، لا ابتغاءً لنفْحَةٍ وطنية ورصيد نضالي نتمسح به. ونذكر بخيْر ومحبة العلماء المؤسسين رحمهم الله اعترافا لذوي الفضل بفضلهم، لا مزاحمةً على أبُوَّةٍ نحتاج إليها. ولعن الله من انتسب إلى غير أبيه.

نقدّر ونحب المؤمنين أينما كانوا. وننتَسِبُ إلى كتاب الله كما انتسب إليه من سَبقونا بإيمان. لا يدخلنا من الاعتبار بتاريخ الحركة الوطنية وتقلباتها ومعاناتها وانشقاقاتها إلا الأسفُ على ما تسرّب من بين الأصابع، واعتَلّ في النفوس والعقول، من واضحات الإسلام ومُنيرات شريعته.

أنتم الحزب الإسلامي الأول؟ مَرْحَى ثم مَرْحَى! ولنبدأ بالسؤال عما فعَل وأيَّان سَار ميراثُ علال فيكم. بل نبدأ بالسؤال عما يقتضيه إسلامكم وحرصكم على دينكم. اتركونا، نحن الطارئين، على الساحة السياسية في الصف المائة ترتيباً، ودعوا الأحزاب السياسية، وطنية وطارئة مثلنا، تتقدم الصفوف، وتجهر بإسلامها، وتدافع عن دينها.

دَعوا كُلَّ ذي فضل طارفٍ وتليد يُدلي بحجته لا بلهجته. فما ينتظرنا جميعا، منذ الآن وبعد الطوفان، لن تغني فيه عن الأمة ولا عن وطني ومواطنٍ وزعيم ومزعوم الشعارات والإشارات. نبتهج أن تنحاز القُوَى الحية في البلاد إلى الإسلام الآن وغداً. نبتهج من صميم القلب لأن الإيمان بالله ورسوله يستبشر في قلوبنا وعقُولنا بتعزيز أنصار الله صفَّ المتحزبين لله، لا كما يظن من يتهمنا باحتكار الإسلام، ظنّاً قاسَ فيه الناس بمقياس غيرته الحزبية، وانزعاجه من منافس سياسي يسبقه إلى أصوات الناخبين، ويَبُزّه شعبية، ويُهَدِّدُ مستَقْبلَ الطموحات والسُّنُوحات.

كلٌّ في هذه الدنيا يبحث عن سعادته واكتمال ذاته. إن عرضنا وِجهة نظرنا في نشوء الوطنية ونشورها، وعن تبعثر الذات الأصلية، فإنما نفعل رجاءَ أن يسمَع سامع ويستجيب مستجيب لنداء القرآن. لا دَلالة على زيد وعمرو من الزعماء. من لقي الله منهم وانتقل من هذه الدار فلن يجد ثمَّت مِن زاد ورفيق وسعادة إلا ما قدمت يداه من صالح الأعمال وخالص النيات. ومن بقي يبحث عن ذاته المفقودةِ بين أطلال ماضيه ومبعثراتِ حاضره، فكلمتنا إليه أن يربط حبلَهُ بحبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يستأنف عملا ثقيلا جليلا: أن يجرَّ السفينَ الحزبي الذي وجد نفسه من رُكابه من حيث رمت به الأمواج والعواصف القواصف إلى جادة البحر الرَّهْوِ، جادةِ لا إله إلا الله محمد رسول الله، وما تطلبه شهادة التوحيد من الموحدين.

لا يشك الأستاذ بوستة في إسلامه ولا نشك، ولا يشك حزب الاستقلال في هُوَيته وذاته. ولا نشك نحن ولا يُساوِرنا شك في أن أصعب ما يطلبه الإسلام من حزب الإسلام العريق هو تحقيق التعادلية وتعديلها لتتطابق مع العدل الذي أمر به الله في عمل مستأنف بعد الطوفان. ويعلَم الحزب العريق بالممارسة والتجارب الفاشلة استحالة أي عمل جدِّيٍّ في ظل المخزنية الملكية.

ويعترض عارضٌ لا ندري ما هو الزعماءَ الأربعة المتصدِّرين في دنيا اليسار المغربي: العالم الفقيه محمد بنسعيد آيت إدّرْ، والفقيه العالم الرئيس عبد الله إبراهيم، والفقيه القائد البطل محمد البصري، والأستاذ المحامي المخلص عبد الرحمن اليوسفي. يعترضهم عارض يمنعهم من الصَّدْعِ العمليّ بإسلامهم. شخصيات قوية قيادية متى يصبح صدعُها بالحق مطابقا لإسلام لا نشك فيه؟

لا ندري ما يعترض العالم الفقيه بنسعيد، تلميذ محمد المختار السوسي النجيب، خرِّيجَ كلية ابن يوسف، القائد البطل في جيش التحرير، المتمرد على الظلم، وما يمنعه من جَرِّ القِطار اليساري المنظَّمتِي من بَرٍّ إلى بَرٍّ. أم أن في القطار عَرَباتٍ تَحْرُنُ لِمجَرَّدِ سماع كلمة «إسلام»؟ كيف وَجد العالم الفقيه القائد ذاتَه في استمرار تاريخٍ يُنكر آخرُه أوّلَه، ويتململ أولُه لو سمع ما فعل آخره؟

كان بنسعيد ولا يزال من المدافعين عن حق الحركة الإسلامية في الوجود. نرجوها إنصافاً أخويّاً لا مجرَّد مذهبية تعددية.

أما العالم الرئيس عبد الله إبراهيم فالحوار معه فُتِحَ منذ سنين، والنظر فيما يكتُبه ويلقيه في محاضراته يشْهَدُ بأنه بريءٌ من تَبعات البيداغوجيا التي جرعت بعض الشباب الاشتراكي الشيوعي إديولوجية الإلحاد على «الريق» كما كان يعيرهم منذ ثلاثين سنة.

للرئيس العالم الفقيه أصلٌ متين من تربيته في حِلَق أساتذة كلية ابن يوسف بمراكش يرجع إليه.

كتب منذ سِتّ عشرةَ سنة في محاضرة منشورة كان ألقاها على علماء مراكش، قال منتقدا الفئة التقليدية الخاملة والفئة المغَرَّبة: «فالمجتمعات الإسلامية اليومَ تمثل في العمقِ مرحلة الانحطاط من العصر العباسي، بزائد جالية أجنبية متعلمة في المجتمع من أبناء المجتمع نفسه».[1]

جالية! نعم! ما أحسن التعبير!

ويُهيب بالعلماء ليكونوا طليعة تقود تعبئة جماهيرية تُخرج الأمة من التخلف والتمزق، فيقول: «ولكن الوسائل المادية [كأموال النفطِ وغيرها] وحدها لا تكفي، ولم تكْفِ بالفعل لجعل المسلمين في طريق

(1) الإسلام في آفاق ألفين، ص: 108.

يستطيعون أن ينتجوا في نهايته حضارة إسلامية في ضخامة وتعقيدات الحضارة المعاصرة. ولا يتوقف تحقيق الشروط التاريخية إلا على قوة طليعة من العلماء، وعلى الجماهير الإسلامية تساندهم، [...] للهجرة من مرحلة الإسلام الثانية [مرحلة الانحطاط] التي لم تكن سِوى حادثة سير خطيرة في تاريخ الإسلام». (2)

يرجع الرجل إلى القرآن «الذي لا تفهمه الأدمغة الفارغة»، ويدعو إلى تجديد الفكر الإسلامي والعمل الإسلامي تجديداً ثوْرِيّاً يقتضي من «المجدد» تجديد انتمائه الاجتماعي، وموقفه السياسي، وطبيعة مصالحه الشخصية، ونوعية ارتباطاته بقوات الخارج، لأجل أن تكون خلفيات آرائه واجتهاداته واضحةً لا لَبْسَ فيها عند الجميع. وإلا كان التجديد مغشوشا، ودعاية من الدعايات، ووسيلة للجاه والارتزاق». (3)

ويعتبر الخروج من إطار الإسلام تمزيقا يتعرض له الشباب المسلم المعَرَّضُ لتأثير الضغوط والتطورات الخارجية، النافر من التطور البطيء في إطار الإسلام: «فالشباب في البلاد الإسلامية، تحت تناقض هاتين الظاهرتين، مضطر بدوره لأن يتطور فكريا وحضاريا خارج إطار الإسلام. وذلك مصدر تمزيق نفسي بالنسبة للمجتمعات الإسلامية». (4)

ويُلقي العالم الرئيس محاضرة في مناضلي حزبه «الاتحاد الوطني للقوات الشعبية» هذه السنة (1995)، وينشرها بعنوان هو في حد ذاته صرخة ألَمٍ، ونفثة مصدور، وبرنَامج ثورة: «ثورة تقدمية ذات طابع تاريخي». وتحت العنوان: «تصطدم بقوة رجعية مضادة».

(2) الإسلام في آفاق ألفين، ص: 109.
(3) نفس المصدر، ص: 24.
(4) نفس المصدر، ص: 106.

يُذَكِّر الرئيسُ أعضاء حزبه بأن الإسلام كان أساس البناء الوطني: «وكنا على يقين راسخ أيضا بأن الإسلام هو أساس هُوَيتنا، وأننا بالتالي جزء لا يتجزأ من الأمة الإسلامية»[1]. ويخبرهم بتاريخ تسلُّلِ الانتهازيين إلى الحزب الوطني المنتصِر غداةَ الاستقلال: «وأثناء أسابيع الاحتفال الشعبية بالنصر انتفخ وتضخم عدد المحتفلين المتسللين. وابتدأت إذ ذاك بوقَاحة حرب الادعاءات والمزايدات والشعارات الملغومة. وظهرت أشباح التكتلات السياسية الـمُفتَعلة لتحدد في الأفق بسرعة مقياس وطبيعةَ الحرية الجديدة لمغرب الاستقلال/ في إطار التبعية». [2]

يسمي الفقيه الآخر محمد البصري -الراجعُ بخطىً شجاعة إلى القرآن، نرجو- هؤلاء المتسللين الذين سرقوا الاستقلال ونقَّصوه «القوة الثالثة». ويشترك الفقيهان في استعمال المصطلح الثوري التقدمي التاريخي الطبقي الجدلي استعمالا يحمِل في مغزاهُ همَّهما في تحقيق عدل اجتماعي كانا قد استعارا زمنا إديولوجيتَهُ من ارتباطاتهم داخلَ حركة الانشقاق اليساري. تبعثرت اليسارات، وبقي على لسان الفقيهين الثوريين لُغةٌ من رسوبيات عهد مضى وانقضى. فلعلَّ تَنْفُضُ جذوة الغضب على الظلم رماد المصطلح الأجنبي ليُفهمنا الفقيهان الشخصيتان القويتان بلغة القرآن.

يبحث القائد العام للمقاومة وجيش التحرير، الفقيه البَطل، محمد البصري عن ذاتِه في صُلح بين العقيدة والعقلانية فيقول: «إن التصالُح واجب بين العقيدة والعقلانية. فالإسلام دين تَسامح كما جاء في القرآن الكريم ﴿**لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾[3]، ﴿**أَفَأَنتَ تُكْرِهُ**

(1) الإسلام في آفاق ألفين، ص: 43.

(2) نفس المصدر، ص 36.

(3) سورة الغاشية، الآية: 22.

النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾[4]. والعقيدة نفسها ليس فيها محاكمة للناس، لا على ضمائرهم، ولا على سلوكهم. لهذا فأنا من هذه الناحية، وكهوَيَّةٍ أيضا، من الناس الذين يعتقدون أن الإسلام به ما يخدم الهُوَيَّة، وما يميز بين الثقافة الوطنية والثقافة الاستعمارية. ولديه ما يوجه به المجتمع حتى يُبدع وحتى يجتهد»[...]

قال: «وأنا شخصيا أعتقد أن الإسلام كهُوَية وكحضارة وثقافة يجب أن يُعتمد في إيجاد صيغة مقبولة تَتعايشُ فيها العقيدة مع العقلانية، لأن العقلانية وسيلة تطور ودعم للفضاء المغاربي المشترك الذي نطمح إلى بنائه»[5]. ذكر الهوية والحضارة والثقافة؟ ولم يذكر الشريعة. وهنا السؤال.

لسنا ندري كيف يطغى التفكير السياسي على المفكر المناضل، وكيف يستبدل عقله ولسانُه لغة بلغة، ومصطلحا بمصطلح، فإذا الإسلام حضارة وثورة وثقافة وهُوَية، لا توبة وطاعة لله ورسوله وصلاةً وعدلا وشورى، واستعداداً آخرَ الأمْر للرِّحلة المحتومة ولقاء الله عز وجل.

يشترك الفقيهان العالمان الثوريان، الرئيس والقائد، في استعمال الألفاظ الثورية المشحونةِ غضبا مكبوتا. لئن كان تشبثُهما بالهوَية الإسلامية لا يعتريه فتور، فالمصطلح الرسوبي لا يساعد على الوضوح والتوضيح.

يكتب الفقيه محمد البصري، فيعزو إعاقة تقدمنا إلى «تشكيك بعض المثقفين في قيمنا الحضارية، وبلوغِهم درجةَ التساؤُل في ما إذا كان موطن الخللِ هو بِنْيَتُنا الثقافية والحضارية: هذه التي باتت

(4) سورة يونس، الآية: 99.
(5) صحيفة «المستقلة»، 22 جمادى الأولى 1416هـ.

متهمةً مِن قِبَلهم بأنها أصابها العقم، وأصبحت غير قابلة للإبداع. بل إن التساؤل يذهب إلى ما إذا كنا نتوفّر على مقومات أمةٍ أو نحن في طور التكوين»!

ويطغى التفكير السياسي على الفقهاء المناضلين الثوريين الذين لا يحبون -كما لا نحب- أن يكون لأحد على أحد رِقَابة في الدين، ووصاية في الدين، ومحاكمة على النيات والسلوك. لا نحب كما لا يحبون. بيْد أن النصيحة التي هي من صلب الدين، والمكانة المرمُوقَة التي يَحتلها الفقيه البصري والرئيس الفقيه والشاعر المناضل الفقيه خريج دار المجازِر وأمثالُهم ممن أثبتوا بتاريخ جهادهم البطولي أنهم رجال، يحتمان علينا أن نلفت النظر إلى أن التفكيرَ السياسي، الذي يحصُر الأسئلة الملحة في قضية ربط الماضي بالمستقبل، يكادُ يُنسي القضية الكبرى المصيرية: ألا وهي ربط العبد بربه طاعة وعبادة واستجابة وتوبة.

فإذا فرغنا من الربط العُبودي المصيري، واستقر معناه في قلوبنا وعقولنا، وأعلنَّاهُ بشجاعَةٍ لندحَضَ كلمة الذين كفروا وألحدوا وشاركوا الفقهاءَ العظامَ المؤمنين بالله ورسوله في الإشادة بحضارة العرب والمسلمين وثقافة العرب والمسلمين. شاركوا وأشادوا ثم عَمَدوا إلى هدم بناء الإسلام من القواعد. فهذا يُشعوِذ بإمارةٍ للمؤمنين ما هي في الحقيقة إلا كسرويةٌ بلباسٍ عربي، وذاك يُعلم في جامعات المسلمين أن الله والملائكة والآخرة أساطير صاغها القرآن -تلك الخرافةُ البدائية التي سخِر منها بورقيبة- لقبائِلَ بدائية لا تفهم.

السؤال الـمُلِحُّ يا أخي هو ربط العباد برب العباد لطرد كل عبودية لعينَةٍ لطواغيت الحكم، وطواغيت الظلم الاجتماعي، وطواغيت

البيداغوجيا الإلحادية. هذا الربط يقوله القرآن بوضوح، وهذا التحرير من الطاغوتية لا يُفصح عنه إلا البيان القرآني واللغة القرآنية.

قال محمد البصري: «إن السؤال الملِحَّ الذي يجب أن يكون مِحْوَرَ عملنا هو مدى إمكانية تصور المستقبل أمام عدم استحضار عِبرة الماضي لمواجهة مهام الحاضر».

يعتقد الفقيه محمد البصري أن «التراث الذي بنَته حضارتنا وتركه أسلافنا الميامين لهو بحق أمانة في عنقنا. فحتم علينا أن نصونه ونطوِّرَه ونجعل منه دَرْباً مضيئاً ومسلكا واسعا بجغرافية مُمتدة من المحيط الأطلسي إلى أقصى الشرق الآسيوي». [1]

وحدةٌ كان القوميون الثوريون زماناً يبحثون عنها وعن ذاتهم في اشتراكية وحريةٍ تناضِل ضِدَّ ماضي الأمة. فمَرْحى لوحدة ننشُدُها في «الدرب المضيء». وليس إلا الإسلام، والإسلام وحدهُ.

يوصي الفقيه محمد البصري بنقد الذات ومراجعة الأخطاء. وينوي في تصريحاته دعْم تكَتُّلٍ تاريخيٍّ يكون فيه الزعماءُ المحنَّكونَ رِدْءاً لشبابِ جيل جديد، ولقوًى اجتماعية جديدة.

يتفاءل الفقيه القائد فيقول: «إنه لمما يبعث على التفاؤل أن الذاكرة التاريخية لشعبنا ما زالت حية وقوية. وأعتبر أن إمكانية تجديد الحياة السياسية متوفرة، وإمكانية هزم اليأسِ بالأمَلِ موجودة كذلك. فمخططات تحطيم الذاكرة التاريخية، وإلغاءُ إمكانية تجديد الحياة السياسية، والعمل على الفصل بين الأجيال، وإحداث القَطيعةِ بينها، وإشاعة اليأس في النفوس، وبث الرِّيَبِ والشكوك حول

(1) مجلة «السؤال» الجديدة، عدد 1.

أهداف التحرر والعدالة الاجتماعية، وإشاعة التمييع، جميعُها باءتْ بالفشل».[1]

نقدٌ لعقليةٍ غريبة عن «ذاكرتنا التاريخية» نوافق عليه لَوْ عبرنا بوضوح، وفضحنا العقلية الملحدة في الدين، الساعية لفصل جيلٍ بطَلٍ من العلماء المؤسسين والفقهاءِ المقاومين عن شباب يجهل الكثير عن ماضي أمته، وإسلام أمته. نوافق لو لَمْ نُعَمِّ الحقائِقَ في لُجَّة المصطلح الثوري العاجز عن اقتحام العوارض النفسية الفكرية، ولو قلناها صريحة مليحةً واضحةً: مخطط الأعداء من بني جلدتنا يهدفُ لتحطيم الدين، لطمس معالم الإسلام. لِمَ لا يُسعف اللسان بالتعبير عما في الجَنان؟ لِمَ نكتُب خوفنا من محاسبة التاريخ لأعمالنا ولا نعبر بمكنون إيماننا عن خوفنا من حساب ربنا؟ لِمَ نتكلم عن «الذاكرة التاريخية» حين تجول في خاطرنا محنة الإسلام؟

ويطرح رجل الميدان والإنجاز محمد البصري السُّؤالَ المِحوري: «ما العمل؟»

ويجيبُ بصراحةٍ كاشفا عن تصوره لمهمته بعد عودته من المنفى، فيقول: «أعتقد أن الخروج من الحالة التي يُوجد عليها المغرب تحتاج إلى مجابهة صريحة، إلى مراجعة نقدية، إلى روح التضحية والوعي. فبدون تجديد الحياة السياسية، وبدون تحضير جيل الشباب ليتحمل المسؤولية، ويتم تشجيعُه على المبادرة بالدعم ليقود مشروع مستقبله، بدون ذلك سيبقى الوضع محجوزا، ويستمر الدورانُ في الحلقة المفرغة».

(1) مجلة «السؤال» الجديدة، عدد 2.

قال: «إن علينا أن نفكر جيداً في الانسحاب إلى مواقع الدعم، وترك مواقِع المبادرة لجيل المستقبل. وأنا متفائل في هذا الصدد». [2]

من داخِل المجموعة الكوكبية اليسارية ينادي الفقيه بالتجديد. ويرى تجديد الحياة السياسية بالمغرب متوقفاً على استبدال شباب بريءٍ من تبعاتِ جنايات ما بعد الاستقلال بطبقة كأنها استُهْلِكَتْ في مَعاركَ عقيمة.

أما نحن فنرى أن كلمةً صريحةً وشهادةً شجاعة من رجل خرق تحت نيران الاستعمار جدران الخوف كفيلةٌ أن تخرِق اليومَ وغدا جدار الصمت. لو صرَّح الفقيه ولم يُلَوِّح بأن المستهدَف في مخطط التغريب هو الإسلام، هو الدين، هو الإيمان بالله ورسوله، هو لا إله إلا الله محمد رسول الله. وليس «ذاكرة تاريخية» غامضة اللفظ أجنبية المصدر.

كلمة من رَجل له وزن الفقيه ومعها البراهين التاريخية لبطولة الفقيه، ومعها حنكة خمسين عاما من كفاح الفقيه، ومعها نظافة صفحة الفقيه، لا يَعْدِلها نشاط شباب وجِدّةُ شباب.

ما ينتظر منه اهتمامه بآخرته، لا ما ننتظر نحن منه. ﴿**بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ**﴾[3].

لا ندري ما يعقِل اللسان عن التعبير بلغة القرآن التي يتقنُها الفقيه حافظ القرآن عما يؤرقُ الفقيه من هموم مستقبل أمته، ومن همِّ الصلح المطلوب الممتنع بين العقيدة والعقلانية.

للفقيه صاحب هو رفيق رحلته التحريرية النضالية، وهو موضِع ثقته، وهو اليومَ (1995) الكاتب العام للشّقِّ الأكبرِ حجما من اليسار المغربي: هو الأستاذ عبد الرحمن اليوسفي.

(2) مجلة «السؤال» الجديدة، عدد 2.

(3) سورة القيامة، الآيتين: 14 و15.

لليوسفي بطولات نضالية، واستقامة ونزاهة. وكان له منذ ربْع قَرْنٍ رؤية واضحة لماضي الإسلام ونظام الحكم في الإسلام. هو الآنَ رَديف الفقيه البصري في محاولة «ربط الماضي بالحاضر» من خلال تأليف «كتلة تاريخية» تُدْمِجُ الشباب الإسلامِيَّ قُوَّة اليوْمِ والغَد في مَسار وطنِيٍّ ينقذ الوضعَ من الكارثة.

شارك الأستاذ الكاتب العام اليوسفي سنة 1970 بتاريخ النصارى في ندوة لإحياء ذكرى ابن عبد الكريم الخطابي وثورته.

ننقُل من مشاركته تلك هذه المقتطفات التي تدل على سلامة أصل، ووضوح فكرٍ، لا نجدهما بالأسف عند الجيل الثالث والرابع من شظايا الحركة الوطنية. (ننقل من الترجمة العربية للنص الأصلي).

يُحلل الأستاذ النظام المخزني، فيقول: «حجر الزاوية في نظام المخزن هو السلطان وريثُ العرش بِحُكْمِ الوِراثة السلالية، والذي يرافق تنصيبَه على العرش مهزلة احتفالات الولاء التي يشارك فيها ذَوو المناصب العالية المنصاعون كليا. هذه السلطة المطلقة التي يزيد من خطورتها خرافة «تمثيل الله على الأرض» التي صاغتها وتوارثتها أجيال من الاستبداد الشرقي، والتي لا تستند في الواقع على أي أساس ديني أو شرعي».

ويقارن الأستاذ بين الملكية الوراثية ومهازلها، وبين جديَّة الخلافة الراشدة، فيقول: «إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بصريح العبارة أن يُبعدَ ابنُه وعموم أفراد عائلة الخطاب عن رعاية شؤون المسلمين. في الإسلام يُنتخبُ الإمام من بين الممثلين الأكفاء الذين تتوفر فيهم شروط الصدق والتقوى. كان أولئك ينتخبون أفضلهم على أن تتوفر فيه الشروط التي ينص عليها القانون الإسلامي».

قال: «والمبدأ الأساسي الثاني للحكم -بعد انتخاب الإمام الكفء الصادق التقي- هو مبدأ الشورى والمشاركة كما جاء به القرآن. وبالطبع لم يُنتَخَب الخلفاء الراشدون في وقت معين كما ينتخب حاليا رؤساء الجمهوريات. فالعرب، نظرا لبساطتهم البدوية، لم يعرفوا هذا النص الدستوري».

إن كان من مثقفي اليسار المغربي وفلاسفته من يشكك في نظام الشورى، ويعُدُّه نظام استبداد، يستشير الإمام من شاء وقتما شاء، ولا يتقيد بمشورة، فالأستاذ اليوسفي، بحصافَة رجل القانون، وسلامة عقيدة المسلم، يعطي للظروف التاريخية وبساطة البداوة وقلة الكُلَفِ على الدولة حقها. ما أبعدَ المثقفين اليساريين عن إسلام الجيل المكافح المقاوم المؤسس لليسار؟ أيّة حزازات، وأي حقد على الإسلام ينطقهم؟ أم أية التواءاتٍ قومية لاييكية أربَكَتْ خيوط فكرهم؟

للأستاذ اليوسفي النظرة المنصفة حين يقول: «لم يكن الخليفة مقدسا ولا غيرَ مسؤول ولا وِراثيا. بل كان مدركا لأخطائه، مهتما بمعرفة أحوال الرعية، مستعدا للتنازل عن عِبْءِ هذه المسؤولية إلى سواه. ولما كان القانون الإسلامي بَيِّناً، فقد نتج عن ذلك استقلال السلطة القضائية التي تتكفل بتطبيقه».

قال: «وبكلمة واحدة، كانت الدولة الإسلامية تتمفصل في عهد الخلفاء الراشدين على النحو التالي: سيادة الرعية الأمة، انتخاب رئيس السلطة التنفيذية الخليفة أو الأمير، استقلال السلطة القضائية».

قال: «ومنذ العصر الذهبي للدولة المدينية تغيرتْ، ويا لَلْأَسفِ! طبيعة الخلافة ووظيفتها. فهَوَتْ إلى مستوَى ممالكَ شرقيّةٍ استبدادية».[1]

(1) الخطابي وجمهورية الريف، ص: 66-67.

هذا تطوُّر سليم لرجل لا يتنكر لتاريخ أمته، ودين أمته، ونظام حكم أمته. تعايشت في ذهنه العقيدة والعقلانية بصيغة مقبولة كما يطلب صاحبه ورفيقه الفقيه. وها هما اليومَ غريبان على قمة اليسار المعتدل يبحثان عن ذاتهما في توازنِ «كتلة تاريخية» لا تقصي الإسلاميين، وتضُخُّ من الدماء الشابة الإسلامية في شرايين هياكل الكتلة الوطنية التي يريد الفقيه تشبيبها ودعم عملية التشبيب من وراء الصفوف.

أهي استقالة وإحالة على المعاش؟ أم هو حكْمٌ حيرانُ على واقعٍ تغيرت مناظره أثناء غياب الفقيه؟

صرح الفقيه لجريدة «المستقلة» قال: «إن المنْع هو الذي أعطى «العدل والإحسان» المصداقية. وعندما يزول المنع ستفقد الجماعة موقع الضحية والعطفَ الذي يصاحبه عادة، فتُضْطَرُّ لتجديد نفسها... هذا هو الموضوع». (1)

وتركت الصحيفة نقطَ بياض يشير إلى تنبُّؤ محذوف. نترك ما صمتت عنه الصحيفة، ونسأل أنْفسنا في جماعة «العدل والإحسان» أسئلتنا التربويَّة الدائمة: ما هو التجديد؟ وما هي النفس؟ وما هو الذي يتجدد؟ سبحان الله! رأس مالنا رفض وموقع ضحية!!!

إن كان الفقيه ومن يشاركه الرأي يرون أن التجديد تجديدُ قيادات فَشِلَتْ بقيادات نظيفة الذيل، فالبصري واليوسفي النزيهان النظيفان آخرُ من يَحق لهما الانسحاب من ميدان الواجب. من يبقى في القيادة ممن له نفحة إيمان وغيرة على دين أمته؟ من يجر العربة الاشتراكية الغائصة في رمال الشك والتشكيك إلى جادةٍ يُعْرَفُ فيها ما الإسلام ومن المسلمون؟

(1) جريدة «المستقلة»، 22 جمادى الأولى 1416هـ.

وإن كان التجديد كما وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم تجديدا للإيمان الذي يَبْلَى في الصدور كما يَبْلَى الثوبُ وينْخرقُ ويَنْخَلِقُ، فكلمتنا الحوارية الأولى والأخيرة مع الفقهاء العلماء الثوريين والآخرين: أين مسؤوليتكم أمام الله عن شباب لَم تدلوه على الله، وعلى دين الله، وعن أمة تنتظر منكم شهادة واضحة عما هو الإسلام يا فقهاء؟

«فقيه الجرومية»

الجرومية مؤلَّفٌ تعليمي قديم في علم النحو العربي.

واللقب كان يطلقه علال الفاسي على صديقه محمد المختار السوسي فيما يشبه النكتة والملاطفة، ويعتز السوسي بما يدل عليه لقب «فقيه الجرومية» فيكتب في كتابه «الإلْغِيات»: «وكذلك أنا ولا أزال على ذلك إلى الآن. وأفْتخر كل الافتخار».

رحَل محمد المختار السوسي إلى فاس طالبا للعلم بعد أن حصَّل في مدارس سوس العامرة تحصيلا متينا، وامتلأ وِطابُه أدباً وشعراً وفِقها وعربية.

وجد في فاس شبابا، منهم علال، مَوْصولي الحِبال بما كان يصدر في الشرق من كتب ومجلات وأخبار، فاستفاد من صحْبَتهم وعيا سياسيا لم يكن له منفَذٌ إلى الأصقاع السوسية. استفاد من صحبتهم رُؤية جديدة لواجب العالم تجاه أمته. وأفادهم من سَعَةِ عِلمه وأدبه واستنارَةِ قلبه بالإيمان ما يشهد به أحدُهم، وهو مولاي الصديق العلوي. فأسس لهم جمعية «الحماسة». يكتب إليه الصدِّيق العلوي بعد أن غادر فاسا:

«الأخ العزيز سيدي محمد المختار السوسي. غادرت فاسا فغادرها قطب اجتماعات متواصلةِ الجهود. ما كانت لتكون لولاك. ألم تكن أنتَ سبب الوَصلة بين نشءٍ متحفز للمعالي، ناظر إلى بعيد؟ ألم تكن أنت الذي دعوتنا إلى الاتحاد في المبدإ؟ فكان الغازي وعلال والكتاني وهذا العبد ومكوار كحلقة مفرغة لا يُدرَى أين طرفاها. فإن نَنْس لا نَنْسَ جمعية «الحماسة» التي ترأسُها فندرُس فيها «ديوان الحماسة» والسيرة النبوية. ثم كان ذلك هو السبب حتى حَيِيَت اللغة، ونبغ الأخ علال، وعرف الناس ما هي السيرة». [1]

علمهم السيرة، وأحيى فيهم اللغة، ونبغ منهم من نبغ. وأهم من كل ذلك أنه جمع القلوب وأحياها. كان رحمه الله ورحمهم يعلم أن أقربَ مَسلك لاحتلال القلوب والتمكن فيها: اللغة. لذلك كان لقب «معلم الجرومية» مفخرةً يعتز بها.

نجد في خطاب الجيل الثاني من الشباب الوطني شَحْناتٍ من الألفاظ الثورية التقدمية التاريخية اليسارية شعَرُوا يوما بالحاجة إليها للتعبير عن فكر جديد لا يُؤَدَّى إلا بألفاظ جديدة مُترجمةً إلى العربية. فاحتل العقول والقلوبَ الغضبُ الثوريُّ ومعه لغتُه، وعُقِلت الألْسن عن اللفظ العربي القرآني، فإذا الإسلام «ذاكرة تاريخية»، وإذا الذي تخشى أن يحاسبك هو التاريخ، وإذا، وإذا.

ننتقل من أوائل العشرينات، من فاس حيث علّم فقيه الجرومية اللغة والأدب والشعر والسيرة النبوية، إلى مُعتَقل صحراء «أكردوس» حيث جمع الاستعمارُ زبْدَة حزب الاستقلال وشباب حزب الاستقلال، فنجد السوسي حريصا أشدَّ الحرص على تعليم

(1) كتاب «ذكريات» لمحمد المختار السوسي، ص: 16.

اللغة، وعلى إقامة الصلاة، وعلى زرْع الفضائل الإيمانية. ونجد غيره يَزرعُ، منذ ذلك العهد المبكّر أوائِل الخمسينات، بذور الإلحاد.

بعد نحو ثلاثين سنةً من العمل الوطني التعليمي، ومن التجربة والاحتكاك بأصناف الناس وأصناف الفِكر، نجد السوسي أَشَدَّ حساسية وإحساسا بالفكر الأجنبي الدخيل، وبما تحملُه عقول المغرَّبين في الحزب من جراثيمَ زُرِعتْ قبل الاستقلال في المدارس الاستعمارية، وتطوَّع لنشرِها نشراً واسعا في الحقل الوطني متطوعون أدرك علالٌ بعد خمس عشرة سنة من الاستقلال أنَّهم ضحايا مسخٍ ثقافي، وأنهم، وأنهم.

هذا الشعور المبكر عند السوسي يعبر عنه السوسي في ذكرياته عن مُعتقل «أكردوس» سنة 1952 بتاريخ النصارى فيكتب: «وقد كنت أدلهم (في المعتقل) على الرِّوايات حتى استأنسوا، ثم أرشدهم إلى الكتب التاريخية. فوالله لو كان لي في هذا المعتقل رأيٌ وحدي، لخَرَّجْتُ في العربية هؤلاء تخريجاً يُضرب به المَثَلُ. ولكن، وا أسفاه! تعدد المرشدون عليهم بلسان الحال. فمن أراد أن يُعلمهم يريد أن يسلك بهم مَسلك الصبية، بحيث يعطيهم حَبةً حبة، ومن أراد أن يثقف عقولهم، ويعلُوَ بعقليتهم، يجعلهم بحيث ينسلخون من كل حياء واتباعٍ وحسن ظن. ثم لا يُؤدي ذلك إذا لم ينضج الإنسان إلا إلى الإلحادً أو الاعتساف، حتى لا يدري يمينه من شماله». [2]

اصطدم فقه الجرومية ببيداغوجيا التلحيد، وأخذ المسخ الثقافي الأخلاقي يفشو بلسان المقال ولسان الحال. لسان الحال القدوة

(2) كتاب معتقل الصحراء، ص: 209.

العملية، يرى الشباب الذي لما ينضج جُرأة المعلم البيداغوجي على الدين، وقلة حيائه فيقتدي بالمثال، ويسرقُ الطبعُ الطَّبْعَ، ويبلَعُ الشاب التعَاليم الماسخة على الريق، كما يعبر الرئيس الفقيه.

كان الفقيه السوسي، العلامة الشاعر الفحلُ رحمه الله، في معركة دائمة مع الفكر الإلحادي الذي يتسلَّلُ مِن دروس التوعية السياسية. كان همه كما يقول أن ينال تلامذتُه من الشباب الأمي والمتعلم: «ملَكة علم وإدراك وقواعد، ومعرفةَ الناس، والرسوخَ في التدين. ولم يكن يهمني أنا إلا أن يخرج الأميون وهم يقرأون وأعينهم متفتحة في دينهم كما تتفتح في السياسة التي لا بد منها».

همّ الآخرين أن يُوَعّوا الناس بالحقوق السياسية، ولا عليهم إن اغتمضت عيونهم عن الدين، وعمِيَتْ، وألحدتْ. الراسخ في السياسة لا يسأل عن الدين. فنرى تدرُّج العقليات وتدَحْرُجها مِن أيدي العلماء إلى حلقات المناضلين. رجل الدعوة السوسي، وأمثالُه من العلماء المؤسسين رحمهم الله، كان همه تمكين الشباب من قواعد لغة القرآن ليدرِكوا ما فرض الله عليهم من عبادات أوَّلاً، وتأتي التوعية السياسية في ركاب الدين. وتدحرجت بالناس العقلية النضالية فتخلّى الركب السياسي عن الدين شيئا فشيئا حتى ضجَّ الفاسي بعد السوسي، وحتى وصل القوم الحضيض الأرذل، والدرَك الأسفل: شبابٌ كافر يساري متطرف يلطخ المصحف على ملإٍ من الناس، وتهُبّ الصحافة اليسارية لتدافِع عن الحقوق المهضومة، وعن حرية التعبير.

أين كنا، وأين ساخت بأقدامِنا الخَسفةُ بعد الخسفة!

صحافة وطنية، يا سوسيُّ يا مختار، تدافع عن حق أبناء المسلمين في البُصاق على وجه دين المسلمين!!!

رحمك الله يا معلم الخير، يا فقيه العربية، عرَّبت وعَجّموا، ودلَلْت على الله بالحال والمقال، وهم زوَّروا ودلّوا على الإلحاد.

رحمك الله، بدأت بنفسك تناجي ربَّك وتُقَرِّع هواك. فما أجْدرَ أن يكون الحِصاد التربويُّ غيرَ الحِصاد لو كنت وحدَك، ومن هم من طِرازك، المعلمين بالمثالِ قبل المقال.

كتب المختار السوسي في مذكرات المعتقل بأكردوس[1]: «في صبيحة يوم الإثنين 18 رمضان 1372 جاشت الفكرة أيضا بما يأتي، وقد صهرتها روح الصوم ومناجاة الله تعالى، والانفراد في الخلوة (كان معتقلا وحده «بتَنجدادت» قبل نقله لأكردوس) :

إلى م اعتساف في الضلالة والعمى
أما آن يا مختار أن ترعوي؟ أما؟
فقد مضت الخمسون فالخمس بعدها
فما العذر في يوم السؤال غدا؟ فما؟
أما كان فيها لو تنبهت مرأب
فتصلح ما غادرت فيها محطما؟
بأي اعتذار عند ربك تنثني
وأفضاله مذ كنت يوليك أنعما؟
أما كنت مغمورا بنعماء أترفت
جنابيك والإبصار والسمع والفما؟

إلى أن يقول في قصيدة من عشرين بيتا يحاسب فيها نفسه :

ولو كنتَ محْظوظاً لَفُزت بنشأة
حَرِيٍّ بها مَن قدْ غَدَوت لَهُ ابنُمَا

(1) كتاب معتقل الصحراء، ص: 43.

ويعلق رحمه الله على هذا البيت: «أرجو أن لا ينْسى القارئ أنني ابن رجل أمضى حياته في إرشاد العباد». [1]

يطوي الشعر القارئ الخَلِيُّ ويقول هذا شعر صوفي. والسوسي ابن شيخ طريقة صوفية، والطرقية عدوة الوطنية، والسوسي في تناقضٍ بين نشأته في الزاوية ونضاله في الحزب. وقد انتهت المحاكمة، وبطلت روحانية الصوم، وقدسية المناجاة.

كان بعض الطرقيين أذنابا للاستعمار، منهم مَن رماه في أحضان الاستعمار ماضي اضطهاد مخزني، ومنهم من شغله خُمولُه وبلادتُه عن محاسبة نفسه. ووجد الوطنيون في الفكر السلفي سلاحا لدَرْءِ الخطر الطرقي. يكتب محمد المختار في مؤلفاته إذا ترجم لأبيه أو لأحد من مريدي أبيه وذكر شيئا من الأحوال الروحانية التي تعتري الصوفية من قبيل خرق العادة هذه العبارة: «وهذا شيء لا تتسع له حُوَيْصِلة بعض الناس» ويمضي. لأن الناس لا يميزون بين عارف بالله وشيخ مُرَبٍّ مثل والد المختار وبين طرقية وراثية.

يجمع الاسم «صوفي» أصنافاً من المسلمين ودرجاتٍ. فشُموسٌ في كبد سماء المعرفة بالله، وبدور تتلَأْلَأُ، وأقمار وأهلّةٌ، ثم رماد قد يكون تحته جمر يستدفِئ به المقرور، أو رماد بلا جَمر يتخايل الناسُ على ظاهره سِيمَا بَرَكَةٍ وصلاح. يبدأ المربِّي شُعلَةَ شوق إلى الله، وحُرقَةَ قلب، وتوتّر فكر، وانجذابا إلى حضرة الله دائما، وحضورا مع الله وذكرا. ثم تخمُد النار وينطفئ الشوق في جيل أو جيلين، وتنغمس السُّبحة والسجادة والأوراد في عامة المسلمين. وقد تصبح السبحة والسجادة والهيْئةُ أحبولة وشعوذة.

(1) كتاب معتقل الصحراء، ص: 43-44.

كان ابن الشيخ علي الدرقاوي في معتقل الصحراء بأكردوس حريصا على إيقاظ الهمم، وتحريكِ الإرادات، وتعليم العقول. كان يوقظ أصحابَه لصلاة الفجر، وينظم قصيدة لتهنئة هذا على اجتهاده في الدين ورسوخه، وينظم أخرى ليعاتب ذلك بلطف المربين على تهاوُنه، ويُعبر عن مرارته وتَذَمُّرِهِ من شاب يستيقظ قبل الفجر لِحِصة الرياضة وينام عن صلاته.

لم يكن طولَ حياته رحمه الله ذلك القائد السياسي المتعالي بعلمه وسابقته في الكفاح، بل كان قريبا من الناس، متواضعا. ولَمَا ابتُلِيَ بعد الاستقلال وعُيّن وزيرا للتاج بقي على تواضعه: ينادي السائق والحارس والبستاني في خدمة معالي الوزير ليقاسمه غداءه وعشاءه.

من تواضعه رحمه الله في المعتقل أنهم اختاروه إماما للصلاة (وهل كان يُتصور أن يكون من بين الوطنيين تارك للصلاة!)، فتأخَّرَ وقدّم الفقيه الشهيدَ إن شاء الله عبد العزيز بن إدريس ليصلي بالناس المكتوبة. فتَنصَّلَ ابن إدريس واستحيى أن يتقدم أمام السوسي. فيكتُب أستاذنا المختار في مذكرات المعتقل: «والحقيقة أنه هو اللائق وحده [للإمامة] لأنه يغلب على نفسه في النوم. ولكونِه ذا سمتٍ حسن، ولكونه خلق ليكون زعيما، فليكن كذلك إماما. فلعلهما تمتزجان فيه يَومَ يرجع فيقود أمته إلى الميدان الذي نريده دائما لحركتنا الوطنية. وقد أعطاني على ذلك عهوداً، ولا إخَالُهُ إلا فاعلا». [2]

نتأمَّلُ أيُّهما أعجب تواضع فقيه أمام فقيه، وزميل في الكفاح أمام زميل، أم بعدُ نظر السوسي وعُمْقُ فهمه للنفوس البشرية، وعُلُوُّ طموحِه لحركته الوطنية وأمته. يري أن تمتزج الزعامة والإمامة في

(2) كتاب معتقل الصحراء، ص: 187.

قيادة الوطنيين. ويأخذ عهودا على من يرى شروط الزعامة والإمامة مكتملة فيه لَيَمْزِجَنَّ الاثنتين يومَ يرجع ليقود أمته إلى حيث كان هؤلاء المؤسسون الصالحون يريدونها أن تسير.

نتأمَّل لنقَدِّرَ عِظم الرَّزيّة، وفداحة المصاب، ومأساة التردي لما سُحِبت من جيل علال والمختار وابن إدريس المبادرة ليقودَ الوطنيّةَ من تصفحنا وجوههم آنفاً إلى حيث نعلَم بعد نَيِّفٍ وأربعين سنةً من أخذ المربِّي رحمه الله العهود على الزعماء الأئمة.

ما كان يترك المختار السوسي في حياته وبين الوطنيين وفي كتاباته وشعره أن يتنصل من الزعامة ومظاهرها التي لم يُخْلَق لها كما يقول. ومارس مهامَّ «فقيه الجرومية» في المعتقل متواضعا قريباً مُحَبّبا إلى النفوس. فلما خرج من المعتقل قُبَيْل الاستقلال خَفّ إلى المسجد بالدار البيضاء ليفتتح دروساً في التفسير والحديث، وليواصل مهِمته التعليمية التربوية التي أسس لها بنيانا متينا قبل ذلك في مراكش.

ما بالُكَ بتَواضُع رجل كان هو الذي أيقظ في فاسَ الشباب العلماء وجمعهم في نادي «الحماسة» حتّى نبغ من نبغ، نجده في المعتقل يتنازل لابن إدريس ويتواضع فيقول له لما أبى أن يتقدم أمامه لإمامة الصلاة: «ما كان لابن أبي قُحافَةَ [لقب أبي بكر الصديق رضي الله عنه] أن يتقدّم بين يدي رسول الله!» [1]

أكان ذلك تصنعاً ونفاقا ومبالغةً وسوءَ أدب مع الصحابي الجليل ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ كلا، بل تلك كلمات رجل مرجعيته ونُقَط مقارَنته وعالَمُهُ ومعاييرهُ تبدأ من السيرة النبوية التي درسها للشباب الوطني في فاس حتى جمع قلوبهم على التقوى. ما له مرجعية خارج ذلك.

(1) كتاب معتقل الصحراء، ص: 187.

السلفية والصوفية

تواضُعٌ، وأخْذُ عهود على مزج الزعامة بالإمامة، أي على صبغ السياسة بصبغة الدين، أي على إخضاع الدولة للدعوة. وحينَ يَسمع فقيه الجرومية ابنُ الشيخ المربِّي جعجعة «السلفية» الوطنية ولا يرى لَها طِحْناً، حين يرَى كيف ينام «السلفيون» عن الصلاة، وكيف يجْتَرِئ تلامذتهم في المعتقل على الدين، وكيف يكيل «السلفيون» الوطنيون اللومَ والشتم والذّمّ للعلماء المستقيمين ممن لا يشاركهم «الثرثرة السلفية» على حد قول المختار، يمتَشِق المختار قلمه ليُدَوِّن خصامَهُ مع ابن إدريس في قضية الطرقية والسلفية.

يكتب: «إلى متى نهدم الطرقيين والعلماء بحجة أنهم يعتسفون، ثم لا يبرُز مِنا من يَسُدُّ ذلك الـمَسَدَّ، ويكونُ خيرَ مثالٍ لما نريد عليه رؤساء الدين والعلماء المستقيمين؟ وإلى متى ونحن نلوك السلفية أقوالا فارغة تحوم حول تنطعات ومهاجمات، ثم لا نرى أثرا للسلفية الحق؟». [2]

بعد سنواتٍ من الاستقلال، تتوسع «الحُوَيصلاتُ»، وتفتُر الشِّدّة السلفية والتشدُّدُ بانقراض الطرقية التي تسلحت الوطنية بمذهب الشيخين أبي شعيب الدكالي وابن العربي العلوي لمحاربتها. فيرجع علال وأصحاب علال عن «التنطعات والتهجمات» على الصوفية، كما يكتب ذلك ابنُ الأرومة القادرية العريقة في التربية الصوفية الأستاذ الشريف أبو بكر القادري. قال: «غير أن ظروفَ ما بعد الاستقلال، واتساعَ الأفق العلمي لعلال الفاسي في تاريخ الفكر الإسلامي،

(2) كتاب معتقل الصحراء، ص: 187.

جعله يخفّفُ من النزْعة المتشددة لشيخه السلفي [ابن العربي العلوي رحمه الله]».

قال القادري: «ويرجع [علال] ليعترف أولا بالقيمة الفكرية التي يحتلها التصوف في تاريخ الإسلام انطلاقاً من عصر النبوة. فالتصوف من هذه الناحية متصلٌ بالسلف غيرُ منقطع عنه. ثم إن عَلالا من جهة ثانية يؤكد على القيمة الإيجابية للتصوف الطرقي في تاريخ المغرب، خاصة منذ نشأة الرباطات الجهادية وقيام الدولة المرابطية».

وينقُل القادري فقرةً من كلام علال في تقييم الصوفية حين كتب في مقال له: «إذا كانت ثَمَّةَ منكرات أدخِلت على القوم أو بدع تسربت إليهم... فأي جماعة لم يُدنس فيها المبتدعون؟ أم أي عقيدة لم تلتصق بها تلفيقات تحاول امتصاصها والقضاء عليها؟».[1]

علال رحمه الله ابن أسرة كان منها فطاحل المشايخ المربين رحمهم الله. تنكر زمنا للصوفية و«ضاقت حُوَيصلته»، ثم توسَّع وعلِم ما كان يجهل.

ويمضي الرجال، كلٌّ على شاكلته، ويبْقى فكرهم وشهادتُهم في قضيّة سكنت تاريخ المغرب وبلاد المسلمين ولا تزال تسكن، واختُلف فيها اختلافا شديدا ولا يزال يختلف: ألا وهي قضية السلوك إلى الله التي سماه فقه المسلمين تصوفا. ومعرفة الكلمة الفصل في الموضوع لا يفيد فيها الفضول الفكري، لكن الشوق المتأججُ ولقاءُ من يدلك على الطريق.

هل المعركة الوطنية السلفية مع الطرقية والطرقيين عجاجة من الماضي لا صلة لها بالحاضر والمستقبل؟ هذا هو السؤال. كلا، بل

(1) كتاب ندوة: المختار السوسي، الذاكرة المستعادة، ص: 43.

المعركة الوطنية لم تكن إلا اشتباكا موقتا بين مارين في الطريق، بينما الحرب اليومَ بين الفكر الوهابي التيمي المتشدد وبين سائر المسلمين، خاصة الصوفية، هي حرب مواقع وخنادق. لا يتسع المجال هنا لعرض وجهاتِ النظر، وعرض الحجج التي يُدلي بها أنصاف الفقهاء، هداهم الله، من مُدَّخَرٍ تيمي نام قرونا حتى سقَتْه أموال النفط ماء الحياة.

اشتبكت السلفية الوطنية مع الخرافات، والشعوذات، ومواكب شَدْخ الرُّؤوس، وأكْل الجِيَفِ، والتعاويذ السحرية. كان العلامة أبو شعيب الدكالي رحمه الله قد تعلّم في الشرق، وأخذ الوهابية من منابعها. وكان يغمزُ البدَع غمزا لطيفاً ويُوَرِّي ويكتفي بالإشارةِ ودقيق العبارة في دروسه بالرباط. بينما العلامة محمد بن العربي العلوي في فاس كانت دروسه «هجومات وتنطعات» كما قال المختار السوسي، رحم الله الجميع.

ويحضر علال وشباب القرويين دروس العلوي بإعجاب، ويعملون لنشر المذهب بنشاط. كتب علال في كتابه «الحركات الاستقلالية في المغرب العربي» يقول: «ونحن من حول أستاذنا نعمل لهذه العقيدة [السلفية]، ونجاهد في نشرها. وما ظهرت خيانة بعض مشايخ الطرق في هذه الحرب [الحرب العالمية الثانية] حتى زاد ذلك فينا حماسة وقوة». (2)

انْحاز بعض الطرقيين للمعسكر الاستعماري فأعطَوْا بذلك «وسائل إيضاح» وحجة عملية تضاف إلى حُجج البدع المنكرة التي كان يمارسها طرقيون آخرون.

(2) كتاب ندوة: المختار السوسي، الذاكرة المستعادة، ص: 143.

ويفسر علال رحمه الله مغزى التفاف العلماء الشباب حول مذهب ابن العربي العلوي بأنه رجوع إلى الماضي البعيد. «ذلك أن هذا الرجوع الذي يظهر في شكل تقهقر إلى الوراء هو نفسه تحرر كبير من أشياء كثيرةٍ وضعتها الأجيال العديدة والعصور المختلفة. والتحرر منها هو تخفف يسهل السير إلى الأمام بخُطىً سريعة». [1]

ويشير علال رحمه الله إلى الفائدة التربوية من الرجوع إلى الماضي ونبذِ ما علق بالدين من خرافات، فيكتب: «لئن كانت السلفية في باعثها الحنبلي ترمي لتطهير الدين من الخرافات التي ألصقت به، والعودةِ إلى روح السنة المطهرة، فإنها لا تقصد من وراء ذلك إلا تربية الشخصية الإسلامية على المبادئ التي جاء بها الإسلام بصفته المتكفِّل بصلاح الأمة في دينها ودنياها».[2]

وعملت السلفية عملها كما يقول علال رحمه الله: «إن السلفية عملت عملها في تسيير آلتنا النفسية، وتوجيه تفكيرنا نحو هذا التجدد المنشود في جميع مظاهر حياتنا، ونحو هذا التحرر الذي ظل طابع حركتنا، وصوب هذه الوحدة العربية التي لم تزل مطمَح آمالنا، ونحو الروح الديمقراطية التي تسيطر علينا». [3]

تلك كانت السلفيةَ: سلاحَ حَرْب وطنية، «وتسيير آلات نفسية»، وتوجيه فكر، وتجديدا، وتحررا، ووحدةً عربية تحمِل السلفية معها نُكهة الشرق، ثم بعذ ذلك «ديمقراطية» ونبذاً للسيْطرة التي يمارسها مشايخ الطرق على أتباعهم. كانت بكلمة واحدة أداة رفض منهج تربية، واتجاه فكر. لم يبحث أحد من تلامذة الدكالي والعلوي رحمهما الله عن أصل الخلاف المذهبي، ولا عن حقيقةِ

(1) كتاب ندوة: المختار السوسي، الذاكرة المستعادة، ص: 43.
(2) نفس المرجع والصفحة.
(3) نفس المرجع، ص: 137.

ما اكتشفه الغواصون على الحقائق مثلَ الغزالي، ولا وسِعَ وقتُهم المنشغِلُ بحرب البدع، و«حويصلتهم» كما يعبر المختار الممتلئةُ بما يَزُقُّ فيها الأستاذان، وما تزخر به كتُب رشيد رضا ومقالات محمد عبده، رحم الله الجميع.

قرأنا كيف غير علال نظرته إلى التصوف في وقت لاحق بعد أن توسعت مداركه. فنجده في كتاب «دفاع عن الشريعة» يستشهد بفكر حسن البنا رحمه الله، وفكر غيره من كتاب الإخوان المسلمين. عنْد البنا عِلم بالدعوة جاءه من تربيته الصوفية كما عند المختار السوسي معرفةٌ بالموضوع، معرفَةَ من عايش الصوفية السنيين الصادقين، ونشأ في حِجرهم وكفالتهم.

«سلفية ثرثرة» و«حزب إلحاد ومروق»

كانت سلفية تلامذة الشيخين المتوهِّبيْن سلفية علمية فكرية. وكانت صوفية المختار عملية، نجده يقارن منذ المعتقل في الصحراء استقامة تلامذته وحرصهم على دينهم بالإخوان المسلمين الذين كانوا ولا يزالون رجال عمل وفِعل، لا رجال جَدَل ونَقْلٍ. يكتب المختار في مذكراته عن أكَردوس: «إنْ كان كل معتقَلٍ من معتقلات المغرب المتوزّعَةِ في أرجائه يقوم بشعائر الدين كما يقوم بها معتقَلنا، وصارت الفكرة الدينية عملية كما هي عليه عندنا، فإن المغرب لَعَلَى أبواب جديدة في الانقلاب إلى ما يفوق ما نسمعه عن «الإخوان المسلمين». فإن كون التديُّن حقّاً كفكرة لا يكفي، لا نظريا ولا عمليا. بل الـمُجدي هو الأعمال».

ويضيف رحمه الله في توجُّع لما يسمعهُ من جعجعة سلفية فارغة قائلا: «أو يُرادُ أن تكون سلفيةَ الهذَر والثرثرة واللغو! ألاَ ساء ما يحكمون! أم نكون حزبَ إلحادٍ ومروق! فبعدا لما يُؤَمِّلون!» [1]

تكاد ترى صفوف المعركة من قراءةِ المواجهة بين أملٍ في أن يَكون الوطنيون كالإخوان المسلمين عملا بشعائر الدين، وبين ما يؤمله آخرون من بث فكر الإلحاد والمروق.

من ذلك العهد المبكر في تاريخ الحركة الوطنية لاحَظ المختار وسجّلَ التناقضات بين نخبة صالحة مؤمنة وبين جيل مغرَّبٍ نرى اليومَ كيف رفَسَ جُثث الأموات من العلماء المؤسسين رحمهم الله، وكيف نَحَّى الأحياءَ ودجَّن المصلين وهمشهم.

كان الوطنيون المؤسسون «نخبة العفة والدين». يكتب الأستاذ أبو بكر القادري في كتاب ندوة المختار السوسي، يصف السوسي بأنه صوفي تسَلَّف، أي أنه أضاف فضيلة إلى فضيلة. قال: «كان حضورُه في دروس ابن العربي مَدْعاةً لمراجعة تفكيره فيما نشأ وتربّى عليه من أفكار ومعتقدات صوفية محضة. فأصبح فكره الصوفي سلفيا، وأصبح اتجاهه في الحياة وطنيا. والوطنية في نظَر مُتَرْجمنا المختار، وفي نظر الرعيل الوطني الأول ليست، كما يتصورها بعض الـمُحدَثين المقَلدين لكل ما أتى من الغرب، مُطلقَ تعلق بالوطن ودفاع عنه. ولكنها مع ذلك مرتكزة على دعامتين أساسيتين: الدين والأخلاق. هاتان الدعامتان كانتا تتجَلّيان في الجماعة الوطنية الأولى التي كان أفرادها كما يصفهم [المختار] في كتابه «الإلغيات»: «نخبة العفة والدين»». [2]

(1) كتاب ندوة: المختار السوسي، الذاكرة المستعادة، ص: 185.

(2) نفس المرجع ، ص: 93.

كان المغاربة في البوادي والحواضر لا يفرقون بين أن تكون وطنيا وبين أن تكون مؤمناً مجتهدا في دينه صادقا. «لأن الناس هناك -بل في كل البادية- لا يفهمون الوطنية إلا غيرة على الدين. ولا يستثار فيهم شعور وطني إلا إذا آنسوا العمل الدينِيَّ من وطني. وإلا فسيسقط في أعينهم وشيكا».[3]

وجاء الاستقلال، ووثب على الحكم من وثب وانحلت الأخلاق، وفسدت العقيدة. وحضر المختار غريبا كئيبا ليرَى تحقيق ما كان تَوَسَّمَهُ في قادة شباب ينامون عن الصلاة، ويُهرْولونَ إلى الرياضة نشطين قبل الفجر. قال عنهم في مذكراته: «تخوفتُ أن أصادِف هناك [في المعتقل] بعض من أعرفهم ممن لا يوافق ولا يفارق، فيكونَ لي كالغُلِّ القَمِلِ. فكيف أعاشِر مُلحدا! أم كيف أتحمّلُ وَقوحاً مهاجما. ومن بين صفوف حزبنا، بكل أسفٍ البعض من هؤلاء [...] وأصاب عيونَهم حَوَلٌ، فيرونَ اثنين ما يراه كل ذوِي العيون واحدا [...] ومن يضْلِلِ الله فما له من هاد».[4]

جاء الاستقلال فتولى الدِّفَّة أصحاب العيون الحُولِ، وسُحبت المبادرةُ من العلماء المؤسسين، وفعَل المغربون اليمينيون واليساريون، المخلصون منهم للوطن والانتهازيون، ما لم يفعله الاستعمار. وكان المطعنُ الذي طُعن فيه الدينُ، والاستعمارُ الجديد الذي تزعمه ورثة الاستعمار وخلفاؤهُ وتألم له المختار أشدّ الألم: التمكين للغة الأجنبية في المدارس، ودواوين الحكم، وكل مناحي الحياة. نقل القادري كلام المختار، قال: «لماذا نعمل في عهد الاستقلال ما لم تستطع فرنسا أن تقوم به في عهد الاستعمار؟ لماذا

(3) كتاب معتقل الصحراء، ص: 160.

(4) المصدر السابق، ص: 161.

نقوم بنشر اللغة الأجنبية لأبنائنا في سوس بعد أن كانت هذه اللغة متقلصة في عهد الاستعمار؟

رحم الله معلم الخير «فقيه الجرومية» رحمة واسعة. آمين. والحمد لله رب العالمين.

الفصل التاسع

«الاحتلال»

- صرخة على «الثورة» اللادينية
- تاريخ العنف الدموي
- «الاحتلال»
- الاستعمار الداخلي

صرخة على «الثورة» اللادينية

من العلماء الفقهاء الذين فطِنوا مبكرا إلى انحرافٍ في الحركة الوطنية الأستاذ إدريس الكتاني بن الإمام محمد بن جعفر الكتاني. كان العالم الكبير سيدي جعفر الكتاني رحمه الله صَدّاعا بالحق، ترك من جملة ما ترك من المؤلفات القيمة «نصيحة أهل الإسلام» قدمها للسلطان عبد العزيز. فلما دخل الفرنسيون المغرب هاجر إلى الديار المقدسة لكيلا يساكن كفارا احتلوا بلده.

واعتزل ابنه إدريس الحركة الوطنية مع أنه كان عضوا في المكتب السياسي لحزب الشورى والاستقلال لما حصلت في يده الحجج الصريحة على أن الحزب يجره إلى اللادينية جيلٌ مغَرَّبٌ مخرَّب. فينشر سنة 1958 كتابا، عبارَة عن صرخة مدَوِّيَّةٍ، بعنوان: «المغرب المسلم ضد اللادينية». ولم يزل على هذه الثغرة الجهادية يكتب ويخطبُ ويغضب لدين الله على ما ينتهكه من حرمات الله أعداء دين الله داخل المغرب وخارجه.

كتاب العلامة الفقيه إدريس الكتاني «سِجِلٌّ تاريخي لبداية ظهور أثر الغزو الفكري اللاديني والديمقراطية العلمانية في الأحزاب الوطنية».

افتتح كتابه الوثيقَةَ التاريخية المهمة بالحديث النبوي الشريف: «لتُنقَضَنَّ عُرا الإسلام عروة عروةً، فأولُها نقضا الحكم، وآخرها الصلاة». ويُتْبعه برسالة استقالته إلى زعيم الحزب الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني رحمه الله. كان من حيثيات استقالته ظهور بَوَادِرَ في الحزب تروم «تحويل الشورى الإسلامية» إلى ديمقراطية لادينية «تهدد لفصل الدين عن الدولة على الطريقة الغربية». ويندد بالفكرة

اللادينية التي «أطلت برأسها على المغرب وعلى الحزب نفسه خلال انعقاد مؤتمر إكْسْ لِبَانْ على لسان رئيس وفد الحزب بهذا المؤتمر».

كان جليا -ولا يزال- في عقول العلماء الخُلَّص أن الشورى غيرُ الديمقراطية روحاً وأهدافا دنيوية وغايات أخروية. وكان جليا في عقول العلماء الخلص -ولا يزال- أنه غزْو فكري وأنها حرب على الدين».

رأينا في فقرة سابقة كيف تمكن المغرّبون من مَقادة حزب الاستقلال قبل الاستقلال، وكيف قادوا مع «القوة الثالثة» مفاوضات إكْسْ لِبَانْ، وكيف شهد علال رحمه الله أنه «فقد المبادرة»، وكيف غضب على «المسخ» اللاديني. وها هي شهادة ميلاد اللادينية في الحزب الآخر، وشهادةُ تمكنها من مقادة حزب الشورى والاستقلال على لسان الكتاني الذي انسحب واعتزل وهجَر. قال: «وحينما عدت إلى أرض الوطن بعد استقلال المغرب كان الاتجاه «اللاديني» داخِل المكتب السياسي قد ركَّز قواعد انطلاقه». [1]

حضر الأستاذ العالم الكتاني مؤتمر إكس لِبانْ، «وامتلأت مدينة إكسْ لِبانْ الفرنسية بوفود ممثلي الأحزاب الوطنية والعلماء والمخزن (حكومة المغرب الصورية) والإقطاعيين والخوَنة والطائفة اليهودية».

وفي المؤتمر بدأ السيد عبد القادر بن جلون رئيس وفد حزب الشورى والاستقلال والناطق باسمه «يعطي تصريحات وأحاديث لمراسلي الصحف، كان يهتَمُّ فيها على الخصوص بالتنصيص على نقطتين رئيسيتين في نظره: الأولى أن حزب الشورى والاستقلال حزب «لاديني» [لاييكي]. ولذلك فهو حزب ديمقراطي تقدمي عصري!

(1) كتاب «المغرب المسلم ضد اللادينية» لإدريس الكتاني، ص: 5.

والثانية أن اليهود المغاربة يجب أن يشاركوا في إدارة الدولة المغربية، وفي الحكومة الوطنية المقبلة التي ستنبثق عن حل المشكلة المغربية». [2]

كان الكتاني ولا يزال شديد الأسف على ضياع فلسطين، يحمل، لا يزال، هم القضايا الإسلامية شرقا وغربا، لا سيما قضية فلسطين، وما فعله ويفعله اليهود في فلسطين. وله في ذلك مؤلفات ومقالات وتفسير لإفساد بني إسرائيل في الأرض كما أخبَرَ بالإفساد القرآن الكريم.

وفي إكْسْ لِبانْ رأى الكتانيُّ وسمع ولَمَسَ اقتران اليهودية باللادينية، وجَفل، وتأكد أن الحزب آخذ في الانحراف. قال: «وتوالت الأحاديث والتصريحات الصحفية والشخصية في نفس النغمة [اللادينية]. ولم يبقَ لديَّ شك في أن الاتجاه بالحزب نحو «اللادينية» أصبح هدفاً أصيلا، وليس غَرَضاً من أغراض الدعاية الخارجية فحسبُ». [3]

وجلس عالم القرويين ليجادل رئيس الوفد الحزبي الذي دافع عن لادينية الديمقراطية، وعن حق اليهود والنصارى في المشاركة في الحكومة. قال المدافع: «ولكن الحكومة لا يمكن أن تكون دينية في النظام الديمقراطي الحديث وفيها وزير أو أكثر تختلف ديانته عن الآخرين. فإذا قلنا إنها إسلامية فهذا يَسْتَلزم أنه عندما يؤذن مؤذن العصر مثلا والحكومة منعقدة، يجب عليها أن توقف الجَلسة، وتنهض حالا لأداء الصلاة بجميع أعضائها، حتى الوَزيرُ اليهودي أو المسيحي».

ويبين العالم للجاهل أن المشكلة التي أدلى بها حجة هي لا مشكلة. فتاريخ المسلمين كان فيه أمراء استوزروا يهودا ونصارى. وما طُرِحَتْ يوماً مشكلة الصلاة وضرورة قيام الحكومة بكل أعضائها لأدائها.

---

(2) كتاب «المغرب المسلم ضد اللادينية» لإدريس الكتاني، ص: 11.
(3) نفس المرجع، ص: 12.

كان الاصطدامُ بين عقليتين حتميا، وكان المخاض الوطنيُّ قبل الاستقلال نشوءاً في البواطن والمعتقلات والسجون والمظاهَرات والخَفِياتِ، يظُنُّ الظانُّ أن الكل يعرف مَن العدوُّ ومَن الصديق. نشوء ومخاض عجَّلَتْ بعدهما المفاوضاتُ والتطلع إلى غد الاستقلال بميلادِ «الثورة» اللاييكية الصريحة المصَرِّحةِ الكاشِفة عن نياتها ومذهبها.

يصف الكتاني هذه الثورة قائلا: «كنا نجتاز في المغرب وقتئذٍ انقلابا تاريخيا في حياتنا، ما في ذلك من شك. وكنا نعيش بداية ثورة. ولقد كنت من عشاق الثَّوَرات: ثوراتِ الشعوب على الاستعمار، وعلى الإقطاعية والرجعية، وعلى الفساد والفوضى، وعلى الاستغلال والاستعباد، وعلى الضعف والتخاذل والتفرقةِ. كنت ثائرا على هذه العناصر الهدامة ولا أزال».

قال: «ولكن لم يخطر في بالي قط أن أثور على نفس المبادئ التي عشت عليها منذ عشرين عاما داخل الحزب، والتي هي جزء أصيل من كيان الشعب المغربي. بل هي المادة الخام التي صيغ منها هذا الشعب منذ أكثرَ من اثني عشر قرنا. فإذا كان بعض الأصدقاء يرون أن قَدْ آن الأوانُ لحذف هذه المبادئ الروحية المقدسة، والاقتصار على المبادئ المادية المحْضة تقليدا للغربيين وتقرُّباً منهم، وخضوعا لمذاهبهم ومصالحهم الاستعمارية، وزُهداً في حضارتنا الفكرية، وقِيمنا الروحية، فإننا نحن، بقيةَ أعضاء المكتب السياسي، لم نكن على هذا الرأي». [1]

يستعمل الدكتور الكتاني في هذا النص عباراتٍ نضالية التقطها من الساحة الحزبية على مدَى عشرين عاما عبارات «الرجعية»

(1) كتاب «المغرب المسلم ضد اللادينية» لإدريس الكتاني، ص: 19.

و«الإقطاعية» وأمثالُها إن وَردتْ على لسان مثلِ الكتاني فإنها لا تدل على أي تشبع بالمصطلح الثوري والإديولوجية اليسارية. هي فقطُّ أسلحة لفظية يتداولُها المناضلون دون أن يُلقوا بالاً لفعلها –مع الزمن– في العقول.

أما العمل الميداني فلم تكن تُنَشِّطه إلا الشعارات والشعائر الإسلامية التي يتأسف الكتاني على غيابها بعد الاستقلال. قال: «ولم نعد نقيم الأعياد والمظاهر والذكريات الإسلامية، التي تحتل مكانا بارزا في حياة الشعب الروحية. وكانت هذه المناسبات هي فرصتنا الوحيدة أيام الاستعمار لِبثّ الروح الوطنية، وبعث القِيم الخلقية، وإيقاظ الهمم والعزائم». [2]

ثورة إذاً في الفكر، وانقلاب ميداني شعائري على القيم، والأدهى من ذلك الأَمَرُّ سخرية اللادينية من الدين. تنشر جريدة «الرأي العام» الناطقة بلسان حزب الشورى والاستقلال مقالا تطالب فيه بالتخفيض من حِصص التعليم الديني. ويَسْخَر الكاتِب من تَكرارِ معلومات مُمِلَّةٍ عن الزكاة والحج.

فَيغضَبُ الكتاني إحدى غضباته على أعداء الدين، ويكتب: «فهذا الاتجاه في محاربة التعليم الديني، والحَطُّ من قيمته وجدواه، إنما هو جزء من السياسة اللادينية الجديدة». ويلوم الجريدة لأنها لم تنطِق بلسان الغيرة على الدين ولم تكتب تعليقا يقول: «إن الأهداف التي ترمي إليها الدروس الدينية هي أسمى مما يظن كاتب المقال. فهي أولا تربية روحية وخلقية. وهي ثانيا إيضاح لأنواع العبادات التي تربط بين الإنسان وخالقه ثم هي قانون شامل لأنظمة المجتمع البشري، والعلاقات الإنسانية، كما جاء بها الإسلام».

(2) كتاب «المغرب المسلم ضد اللادينية» لإدريس الكتاني، ص: 30.

تاريخ العنف الدموي

لم يعتزل ولم يستقِلْ من حزب الشورى والاستقلال عالم فقيه آخر من أعلام حزب الشورى والاستقلال، هو الحاج أحمد معنينو. صرخ الكتاني مستنكرا الانحراف اللاديني وبقي حُرّاً يغير المنكر بقلمه وقلبه. أما الحاج أحمد فمن داخل الحزب وبعد الاستقلال، هزّ قلمهُ ليُرَدِّد بلا مَلَلٍ ذِكْرى ما اقترفهُ الفكر اللاديني وما اقترفته الفوضى الحزبية والفوضى العامة بُعْيد الاستقلال من جرائم، وذكرى المنطلَق الإسلامي المحض الذي اندفع منه الوطنيون في جهادهم ضد الاستعمار.

كتب الأستاذ معنينو سلسلة ذكرياته ومذكراته، وخصص كتبا أخرى لكشف مخازي الاضطهاد الذي تعرض له حزبه على يد الحزب المنافس، حزب الاستقلال، ولعرْضِ الأحداث الدامية الفوضوية العنيفة، وللتنقيب والتأريخ لسراديب التعذيب التي حشِر فيها نخبة من رجال حزب الشورى وشبابه. نعرض لبعض ذلك في هذه الفقرة إن شاء الله وفي التي تليها.

ولسائل أن يسأل عن فائدة إنكاءِ جُرحٍ قد اندمَل، وبَعْث آلامٍ قد نُسيَتْ. جوابنا أن العبرة من أخطاء التاريخ وآلامه كالعبرة بمعالمه المشرقة. ولا ينفكُّ الفكرُ العنْفيُّ -اليساريُّ اللينيني منه والفوضوي- عن الفعل الثوريِّ الذي قَرأنا عنوانه ومقدمته في اعتراف علال الفاسي رحمه الله أن المبادَرة سُحبتْ منه، وأنه حين عاد إلى المغرب بعد الاستقلال وجد أن حزب الاستقلال يتلخص في رجل واحد. قرأنا في فقرة سابقة كلمة اليساري الوحيد، المتشبع بالمبدإ البلشفي الثوري الذي لا يقبَلُ وجود أكثر من حزب واحد في الساحة الثورية.

نقرأ هنا إن شاء الله كيف حاول «البلشفيك» الوطنيون القضاء على إخوانِهم أيامَ المحنة، الذين انقلبوا في أعينهم أَلَدَّ الخصوم. نقرأ ذلك لنتعلم من الديمقراطية -وقد أصبحت كلمةَ الساعَة وشعارَ الساحة- فضيلة تعددية سلْمية يتخاصم فيها المختلفون إلى اختيار الأمة لا إلى قوة السلاح وإرهاب السراديب.

إنه مكسَبٌ كبيرٌ أن نشمَئزَّ من دمويَّة الماضي في المغرب، ومن عنف الحاضر الجزائري، لننفتح، نحن المغاربةَ المسلمين، على مستقبل تعايش وتحاور. ولننفتح نحن والجزائر وسائر أقطار المسلمين على مستقبل وحدة الأمة الإسلامية، وحدةٍ هي الدين.

يكتب الأستاذ معنينو تاريخ النهضة المسجدية التي أطلقت شرارة الحماس الوطني. يعنونُ في الجزء الأول من «ذكريات ومذكرات»: «الهزة النفسية الكبرى تنطلق من المسجد الأعظم بسلا بذكر اسم الله اللطيف». ويقول: «أود بكل نزاهة وتجرد أن أسجل للتاريخ وللأجيال الصاعدة حقيقة انطلاقة الشرارة الأولى لمقاومة الظهير البربري المشؤوم الذي أصدرته السلطات الاستعمارية بتاريخ 16 ماي 1930م. وذلك بذكر اسم الله اللطيف في المسجد الأعظم بمدينة سلا يوم الجمعة 27 يونيو 1930م، والتي أعطت أكبر انتفاضة للشعب المغربي قاطبة ضد الاحتلال والوجود الأجنبي في هذه البلاد». [1]

كان المسجد إذاً المكانَ، وكان الغضبُ على الظهير البربري الباعثَ. حاول المستعمرونَ إحياءَ القضاءِ العرفي البربري ليحاربوا به القضاء الشرعي، وليفرقوا بين العنصرين الأساسيين في المغرب: البربر والعرب. حاولوا طعن المغاربة في الصميم: في دينهم. فهبَّ

(1) كتاب «ذكريات و مذكرات» ج 1، ص: 167.

الوطنيون، عرباً وبربراً، لمقاومة الكيد الاستعماري مستظهرين بأقْوَى ما في ذاتهم: دينهم.

وانطلقت الشرارة من المسجد الأعظم بسلا إلى سائر مساجد المدن المغربية، يفزَعُ المسلمون، بقيادة النخبة الوطنية، إلى الله عز وجل كما يفعل المسلمون عند النوائب والكوارث. ويُرَددونَ دعاءَ الاستغاثة: «اللهم يا لطيف نسألك اللطف فيما جرت به المقادِر، ولا تفرِّق بيننا وبين إخواننا البرابر».

كان الحاج أحمد معنينو من أبطال المظاهرة المسجدية الأولى بسلا. ويذكر الخشوع الإيماني العميق الذي كان يَغشَى المسلمين المستغيثين بالله خلف قيادة أئمتهم وعلمائهم. قال: «وسرعان ما وقف العلامة الحاج علي عواد خطيباً، مفتتحاً خطبته التاريخية القيمة، بعد البسملة والحَمْدلَة والصلاة على النبي الكريم، بقوله بعد أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: ظهر الفساد في البَر والبحر بما كسبت أيدي الناس... الآية. ثم زاد: عمَّ الطوفان، وكسدت الأسواق، وعظُمت المصائب، وحلّت النوائب. ولا مخرج ولا ملجأ إلا بالرجوع إلى الله العلي القدير، والتوبة والمغفرة والإنابة إليه سبحانه. وطلبِ اللُّطْفِ والرحمة لعباده المتقين... إلى أن قال ودموعه تنهمر كالسيل: اللهم يا لطيفُ نسألك اللطف فيما جرت به المقادر... ».

قال الحاج أحمد: «عمتني البُشرى، وانشرح صدري، وبكَيْتُ طويلا، وشكرت المولى عز وجل على ما هداني إليه، وعلى التوفيق العظيم الذي حالفني في هذا اليوم العظيم». [1]

ننتقل من هذا الجو الـمُفْعَم بالتقوى والخشوع في المسجد بين يدي العلماءِ مؤَسسي الوطنية المغربيةِ. ننتقل ستا وعشرين سنة لنجد أنفسنا

(1) كتاب «ذكريات و مذكرات» ج 1، ص: 172.

مع الجيل الثوري ومع الفوضى في ساحة المذابح الحزبية. يقول الشاهِدُ المؤرخ معنينو: «عرف المغرب أحداثا أليمةً غداة الاستقلال يجهلها جميع من وُلد سنة 1955 أو بعدها، ولا ينبغي السكوتُ عنها، لأنها تمثل صفحة مهمة من تاريخنا المعاصر. رأَيْنا أن نُعرف الشباب بهذه الأحداث ليدركوا مدى الكفاح الذي خاضه أنصار الديمقراطية، والأخطار التي تتعرض لها كل حركة تتنكر للجدلية التي تريد فرض أفكارها بوسائل العنف».[2]

ويفصِّل شاهدنا «الإجرام الحزبي» خلال السنوات الأولى من الاستقلال. يذكر حادثة رُبَما لا تمثِّلُ إلا المظهَر الهمجيَّ العابرَ لهمجية التعذيب المنظم المبرمج في السراديب الحزبية.

قال: «مذبحة سوق أربعاء الغرب [يناير 1956] التي تسلح فيها الخصومُ السياسيون بالـمُدَى والشّوَاقير، وقاموا بمذبحة فظيعة خلّفَتْ عشراتِ القَتلَى والجرْحَى من الشوريين الكبارِ والصغار، وخاصة الكشافة، ومُسيِّرَ فرع الحزب هناك المرحوم العربي السفياني. ولم يكن ذنبهم سوى انتمائِهم السياسي ومناهضتهم لفكرة الحزب الوحيد. وبالرغم من كون قتَلةِ سوق أربعاء الغرب كانوا معروفين بأسمائِهم وأعيانهم، فإن المحاكمة دامت شهورا، وانتهت بالبراءة. أو بما دُعِيَ -استخفافا واستهزاء- «مذبحة بدون ذباحين، ومجزرة بدون جزارين».[3]

ويَسْرُد مؤرخُنا الاغتيالات التي سقط فيها علماء مثل الأستاذ عبد الواحد العراقي، ومقاومون مثل محمد الشرقاوي، ومختطفين مثل

(2) كتاب «ذكريات و مذكرات» ج 5، ص: 133.
(3) نفس المرجع، ص: 136.

إبراهيم الوزاني وعبد السلام الطود، وعبد القادر برادة، و«عدد عديد من المواطنين الشوريين النشطين».

سكت حزب الاستقلال عن المجازر والمقابر قبل الانشقاق اليساري سنة 1959. وبعده «أخذ كل فريق ينتقد صاحبَه ويكشف عوراته. وظهر في غِمار ذلك التنَابُز والتراشق: اعتراف صريح بالاغتيالات والاختطافات، نجتزئ من ذلك بشهادتين صادرتين عن الجناح الاستقلالي الذي بقي مع الأستاذ علال الفاسي، أولهما نداء من الجبهة الـمُوَحَّدَةِ للمقاومة المغربية، جَاء فيه «هؤلاء الانفصاليون هم الذين كانوا يَخْطَفون الأبرياء من المواطنين بالقوة سنة 1956، ويُنكلونَ بأفراد الأمة، ويقيمون المؤتمرات لرجال الوطنية والفداء، ويفتكون بالأبطال منهم ليَخْلُوَ لهم الجو، وتُمَهَّدَ لهم الطرقُ للوصول إلى مآربِهم، وقيام دكتاتوريتهم السافلة... »[1].

قال: «والثانية شهادات متفرقة في أعداد مِن جريدة «الأيام» التي أصدرها جناح الاستقلالي العلاليُّ كذلك في مارس 1959. مما جاء في مقال بعنوان «استغاثة الدماء» نُشر بالعدد الأول: «إلا أن الشعبَ الذي صهرتْه المِحن، وأنهكته التجارب، يعلم حق العلم، ويدرك تمامَ الإدراك ويعرف كامل المعرفة من هم الجُناة الذين عرَّضوا البلاد لكثير من المآسي والمِحن. ومنهم القتلَةُ السّفاكون الذين أزهقوا أرواحا بريئة في سبيل تمهيد الطريق إلى الزعامة والارتقاء على جماجم الضحايا البشرية إلى قِمة الاطماع الشخصية واحتلال كراسي الزعامة»[2].

كان صراعا على الزعامة جند له اليساريون اللينينيون حُثَالةً من «البرلتاريا» السافلة الباطِلة التي سفكت دماء العلماء والمقاومين

(1) كتاب «ذكريات و مذكرات» ج 5، ص: 138.
(2) نفس المرجع، ص: 140.

مـن جيـش التحرير، ومـن حزب الشـورى، ومن كلِّ فئـات الشرفاء الأبرياء الأقوياء.

«الاحتقلال»

يكتب الحاج أحمد كتابه عن «دار بريشة» أحَدِ سراديب التعذيب الثوري الحزبي اليساري يتحدث عن «نيرون الشمال» القَيِّم على دار الفظائع الذي لم يكن قبل الاستقلال إلا «كرسوناً» أي مساعداً لسائق شاحنة. ليصبحَ بعد الاستقلال بفضيلته الصعلوكية البرلتارية الآمرَ الناهيَ المتحكّمَ في الأعراض والأموال والأرواح.

قال معنينو: «لقد جاء هذا الكتاب الهام ليفتح أعيُناً عُمياً وآذاناً صُمّاً لمن لم يعيشوا تلك الفَترة العسيرة من تاريخ الحركة الوطنية من شبابنا الناشئ. بل وحتى مِن بعضِ مَن عاصَروا تلك الأحداثَ الـمَهُولَةَ ولم يَعُوا حقائقها، لأنهم كانوا تحت تأثير تخدير التهريج الحزبي ودعاياته الباطِلة السافلة. ذُهِل بعضهم... وقال آخرون تمويها: إنها كانت فَلْتَةً وحيدة... ».

قال: «لكنّ دَار بريشة -بفظائعها التي تقشعر منها الجلود- لم تكن في الواقع وحيدة ولا واحدة من عشَرةٍ أو مِائَةٍ. بل هيَ نموذج فقط لِما لا يُحْصَى من مراكز التعذيب الحزبي الوحشي التي انتشرت في طول البلاد وعرضها منذ غداة الاستقلال». (3)

أفي الوقت الذي تعانق فيه شِقَّا حزب الاستقلال، وهدأَتْ حُمَّى الغَضب على ما اقترفه المقترفون نحرك الأحزان نحن، وننبش في

(3) كتاب «ذكريات و مذكرات» ج 5، ص: 140.

التاريخ لنوقظ الفتنة النائمة؟ كلا، فإن مستقبل الإسلام في هذا البلد وفي بلاد الإسلام أهم، بل هو المهم وحده، لا التنظيمات والأشخاص والتكتلات السياسية. ولا وضوح ولا مستقبل إن لم نغُص في أعماق ذاتنا، بما في ذاتنا من كلوم وما فيها في عافية، لنعيد البناء على قواعِدِ العافية لا على قواعدِ المرض.

إن لم نعتبر برزايانا التاريخية فمتى نعرف ما يجمعنا وما يفرقنا؟ متى ينفتح لنا باب مستقبل الإسلام -ولا مستقبل لهذه الأمة إلا بوحدة إسلامية- إن لم نعرف الإسلام الذي جمع المسلمين الأحرار الأتقياء في مسجد «اللطيف» على خشوع العالم الواعظ وبُكائه، ولم نعرف الإلحاد الثوري الذي فرقنا وسفك دماءنا في سوق أربعاء الغرب وفي دور الفظائع؟

لا بد أن نأخذ بعين الاعتبار أن سنة 1956، سنة إعلان الاستقلال، شهدت فراغا في السلطة، لأن الفرنسيين سُقِط في أيديهم فرفعوا أيديَهم لتعُمّ الفوضى. لكن الفوضى إنما كانت الـمُناخَ الذي ساعَد، لَمْ تكن المحرك والباعث. أخبرني الثقة أنه سافر في سيارة خاصّةٍ في ذلك العهد مع زعيم كبير تَعتَمِل نيات العنف اللينيني في صدره. فأفضى إليه أنْ لَوْ آل الحكم إليه لقتل ثلاثة ملايين من المغاربة. وسمع الناس بمناسبة إحدى هذه الانتفاضات الشعبية المتكررة التي أغْرِقَتْ في الدماء تصريح الملك الحسن أن مذهب الإمام مالك يُبيحُ قتل ثلُث المسلمين ليسلَم الثلثان. وكان عدد المغاربة يومها تسعة ملايين نَسمة. فيتعادل حساب الملك مع حساب المحرِّكِ اللينيني.

ونلتقي هنا مرة ثانية بالعنفين اللذين تصارعا على الساحة السياسية المغربية حتى صرع أشدُّهما مكراً ودهاء وبطشا وإمكانيات صاحبَه.

صرع العنف المخزني صاحبه الإديولوجي، واغتاله، ودجّنَه، وأدخله في بيت الطاعة.

كلمة «الاحتقلال» التي عَنْوَنَّا بها هذه الفقرة هي من صياغة البطل الريفي المجاهدِ محمد بن عبد الكريم الخطابي. كلمةٌ مركبة تركيباً مزْجيّاً من «الاحتلال» و«الاستقلال». فهي بتركيبتِها وغرابَتها تدل على شك الخطابي في حقيقة ما حصَّل عليه المغاربة المفاوضون في إكس لبان، وتَدلُّ على إنكار الخطابي لاستحواذ الحزب الوحيد -الفارضِ وحدانيتَه بالعنف الذي قرأناهُ-، وعنفه.

لا يميز الخطابيُّ شِقّاً في حزب الاستقلال من شِقٍّ في إدانَتِه، لأن الانشقاق، وإن كانت بوادره ظاهرةً، لَمْ يُعلَنْ إلا بعد ثلاثِ سنوات من الاستقلال، كان أثناءَها الشقُّ العلالي يُغَطِّي ويسكتُ.

وكان هَوَى الخطابيِّ مع حزب الشورى والاستقلال، وكان له بزعيمه الوزاني رحمهما الله انعطافٌ ومودة وتفاهم، بل اتفاق وتعاون.

فكتب الخطابي من القاهرة رسالة مطَوّلة إلى صديقه الوزاني بتاريخ 27 يوليوز 1960، أوردها الأستاذ معنينو في ذكرياته[1]، نقتطف منها جملا تقطرُ أسىً وأسفاً على «الاحتقلال».

كان حزب الاستقلال يحتفِل -ومعه الشعب المغربي الـمُنْتَشِي بالاستقلال- متفائلا، مصارِعا للإرادة المخزنية، تسقط حكومةٌ لِتَعقُّبَها حكومة، في بَحثٍ دائم عن «انسجام» يتَصورهُ حزب الاستقلال انفرادا بالحكم، ويتَصورُه القصْر وَلاءً غيْرَ مشروطٍ للقصر. أما الخطابي الذي كان يراقب من قريب رغْمَ بعده المكاني، فكان له همٌّ آخرُ، همُّ المقاتل الذي يرى جيش فرنسا لا يزال يحتل الديار، وأناس

(1) كتاب «ذكريات و مذكرات» ج 5، ص: 192 وما بعدها.

في حفلاتهم ومحاولاتهم بناءَ الدولة، وتسييرَ عجلات الإدارة ومَلْءَ الفراغات. والناس في نَشوةٍ لا يفطِنون للاحتلال الآخر، احتِلالِ صانعي الفظائع في دور الفظائع وكهوف التعذيب.

يكتب الخطابي إلى صديقه: «فلا تدشين ولا احتفال، ولا تَعبيدَ الطرُقِ، ولا بناءَ القناطِر، ولا استرداد الأملاك المغصوبة، ولا إنشاء مناصِبَ جديدة، ولا تعديلَ في الوِزارة، ولا في القضاء، ولا مستشفى، ولا ملكة جمال، ولا ملكةَ حب الملوك، ولا تفكير في إنشاء سِفارات في أطراف المعمور. كل هذا هُراءٌ في هُراء، وعَبثٌ في عبث. إننا في غنىً عن كل هذا ما دمنا لم نُنجِزْ قضية الجلاء. لتهبِط درجةُ الحرارة من 41 إلى 37».

ويَرْصُدُ الخطابيُّ حركة «عكاكيز» المروقِ من الدين وانحلالهم الخلقي، وسفكهم وبطشهم في الجو المحموم. فيكتب: «إن ما أصابنا ويصيبُنا، وما نراه يحدُث في بلادنا من المناكر والفحشاء ومن الاتجاه الذي تسير فيه بعض الطبقات من التقليد الأعمى والمُروق من الدين الحنيف، مَنشأُهُ عدم الاهتمام من الذين يعنيهم الأمر في الحقيقة، وعدم الاكتراث بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف الواجب على كل مسلم عاقل يريد الخير لأمته وبلاده».

ويستشهد المجاهد الريفي المؤمن بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية على ما فرض الله على عباده المؤمنين.

ويُعَدِّدُ مظاهرَ الفساد والزندقةِ والإلحادِ، -وهو كان على علم دقيقٍ بها يجري- فيكتب: «أمّا فُشُوُّ الخلاعة والزندقة والإلحاد، والانحلال في الأخلاق الذي نراه من خلال الوقائع، فشيْءٌ تنفطر منه الأكباد. وشيْءٌ يُنذرُ بالفناء والدَّمار والهلاك والتلاشي لأمتنا الكريمة.

أصبحنا في وضعية لا ناهيَ فيها ولا مُنتهيَ. ويأتي بآيات الله الشاهدةِ على انحراف الناس، وطغيان الناس.

سبَق الخطابيُّ، زَمناً، علالاً الفاسيَّ رحمهما الله في التعبير عن خيبة أمل الرُّوَّادِ المؤسسين في الاستقلال. شجبَ علالٌ المسخ الثقافيَّ وانتقدَه من جذوره في كتابه «دفاع عن الشريعة». ويشجُبُ الخطابيُّ المغَرّبين وينتقِدُ ضُلوعَهم وانخذالهم في مفاوضات إكس لبان، وخذلانهم لإخوانِهم في الجزائر بما أتاحوا لفرنسا أن تتفرغ لهم.

يغضَبُ ويكتب: «كيف نسمح لأنفسنا أن نعيد تاريخ 1830 [تاريخ مصالحة السلطان المغربي المولى عبد الرحمن مع فرنسا، وخذلانَهُ جهادَ عبد القادر الجزائري الرجُلِ الفذ رحمه الله]، ونترك الجزائريين يُقاتلون وحدهم، حتى نُمكن الإفرنسيين الغاصبين من هذا القطر الذي هو رأس القنطرة لابتلاع بلادنا بعدها. ألا سُحقاً للظالمين، وتَبّاً للمنافقين، وخُسرانا للمذَبذبين، وهلاكا للانتفاعيين الذين داسوا كرامتَهم وكرامة أمتهم، مفضّلين الراحة والتمتع بالشهوات».

قال: «أليست مفاوضة إكْسْ لبان [بين الوطنيين المغاربة وفرنسا] واتفاقيةَ جي مولي-بورقيبة [في مفاوضات استقلال تونس] هي التي كانت في حقيقتها مؤامرةَ القضاء على البلاد. نجح فيها العدو وعملاؤه [قلت: وهم من ساهم الفقيه البصري «القوة الثالثة»] بتخدير الشعب التونسي والمراكشي حتى يطمئن للاستقلال المزيّف. هذا الاستقلال الفارغ الذي يجب أن نطلق عليه «الاحتقلال»».

ويرصُدُ البطلُ الريفيُّ فُسولَةَ المفاوضين، وتفاهة الغادين الرائحين إلى حفَلات التدشين وسفك الدماء وهتك الأعراض، فيكتب: «لقد ذهب منا كل شيء بسبب الأطماع الشخصية، والغباوَةِ المظلمة، والجبن الفاضح، والنفاق الأسود. ألَمْ يَانِ لنا أن نقف هُنَيْهةً لنتخِذ

طريقا ينقذنا من هذه الآلام التي نعَانيها؟ لقد تيتَّمَتْ أطفالُنا، وانتُهكَت حرماتنا، وسُلِبت أموالُنا، وعُذِّب رِجالُنا، ومُلِئت السجونُ والمعتقلاتُ بعشرات الآلاف من المجاهدين والمجاهدات، وآلاف منهم قد أُقْبِروا أحياءً، وتركوا هذه الدنيا».

كان مركزُ جيشِ التحرير، وموطن قوتِه، وعرينُ أسودِه، في جبال الريف. وكان ضباطُ هذا الجَيش وجنوده ينتمون إلى العقيدة الجهادية الخطابية، أو إلى الجيش الخطابي أيامَ مجدِه. فلا عجب أن نجد ابن عبد الكريم على اطلاع شامل بما يجري، وبالمذابح التي عانى منها الرجال والنساء من جيش التحرير، ومن كل معارضٍ لفكرة الحزب الوحيدِ اللينينية البلشفية.

يعجَبُ الخطابيُّ، المطلع من منفاه بالقاهرة على الشاذة والفاذّةِ من شؤون بلده، من قلة معلومات صديقه الوزاني القاطن في المغرب. فيكتب إليه: «إننا قد حصّلْنا على معلومات دقيقة ومفصلة تفصيلا كافيا لكشف كل المؤامرات المصطنعة التي دبروها للمجاهدين والعاملين، مما جعلنا نأسَفُ لحدوث ما شوّه سمعة بلادنا، ومسَخ تاريخنا، وسوّد صحيفة وجودنا كأمة شريفة ذات التاريخ المجيد الوضاء السامي».

كيف لا يعتبر الخطابي أفعالَ القتَلة سفاكي دماءِ المجاهدين مسخاً للتاريخ وتسويدا للصحائف الناصعة فيه، وهو كان المجاهد الشريفَ ذا التاريخ المجيد الوضاء السامي يوم قاتل دولتين، ودوخ جيوشا أوربية يقودها سبعون جنرالا وآلاف الضباط، ومليون ونصف مليون من الجنود، وما لا يحصَى من البواخر والطائرات والمدافع والآليات؟

كيف لا تتقطع أكبادُ الرجال المؤمنين حسرة وألَماً أمام ما فعله ويفعله السفهاء الملحدون؟

يكتب الخطابي المطَّلع إلى صديقه خبرَ الوثائق المفصلة التي كانت تصله من شبكة -لا شكَّ- كانت منتشِرة منظمةً أحسن تنظيم: «وهي وثائق من الأهمية بمكان، نحتفظ بها عبرةً وذكرى لمن كان له قلبٌ أو ألْقى السمع هو شهيد».

وهل للذئاب قلب يا من يستشهِد بآيات كتاب الله!

ويُفضي المجاهد الأسَد إلى صديقه ببعض (ببعض فقط) من المعلومات «الدقيقة التي لا يتطرق إليها الشك أبداً. معلومات تحمِل بين طياتها مآسيَ تُفَتِّتُ الأكباد، وتذيب العقول، وتشمئز منها النفوس، وتقشعر منها الجلود، وتَحار لها العقول».

ويعطي الخطابي قوائمَ بثمانين مركزا للتعذيب والتقتيل، بعناوينها المضبوطة. منها الدور والكهوف والسراديب والضيعات ونقط البوليس ومراكز السلطة.

ويَعد 9672 معتقلا جُلهم مجاهدون.

قال: «والغريب أن جل هذه الضحايا كانت في مقدمة العاملين الذين ساهموا بنصيب وافر في الجهاد ضد الاستعمار، ومن أجل تحرير البلاد من الاستعباد. وأخيراً كان جزاؤُهم «جزاءَ سِنِمَّارَ». ومن الغريب أيضا أن نرى الآن المسؤولين تجاهلوا حلّ هذه المشكلة التي تعتَبرُ من أهم المشاكل التي تحقق الاستقرار، وتُوَطِّدُ الأمن».

ويختم الخطابي رسالته إلى «أخيه الكريم» الوزاني، رحمهما الله، فيذكرهُ: «باستئناف الجهاد والنضال حتى تُطرد الجيوش الإفرنسية المعتدية على بلادنا، فسيروا على بركة الله، وشجعوا العاملين في هذا السبيل».

لكنّ جيش التحرير الذي كان الخطابي يعلق على جهاده الآمال، ما لبث أنْ تمّ احتواؤُه وحلُّ نظامه وإخماد جذوته.

وبقي في الساحة جيش مُحتل من بني جلدتنا، نجد الوزاني يندد به وينتقده بمرارة من خابت آمالُه، بعد أن قتل رجاله.

الاستعمار الداخلي

قرأنا في فقرة سابقة كيف انتقد الأستاذ محمد بن الحسن الوزاني زعيم حزب الشورى والاستقلال ومؤسسه رحمه الله البند الذي يقول في الدستور: المغرب دولة إسلامية. وعبر عن «فخره وافتخاره» لو كان في المغرب دولة تحكم بالقرآن والسنة من نوع الحكم الشوري على عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم.

في هذه الفقرة نستعرض تعبير السياسي المحنّك المؤمن بالله وكتابه ورسوله وسنته عن خيبة أمله في الاستقلال، لَقَّبَ صديقُه الخطابي ما حدث بأنه «احتقلال»، ويفسر هو بتدقيق ظواهر الاحتلال الداخلي وبواطنه وأمراضه.

كتب في العدد الأول من جريدة الدستور بتاريخ 5/ 11/ 1962: «وإذا أردنا أن نصور ما عليه حقيقة الوضع العام القائم في البلاد منذ الاستقلال، فلا نجد أَصَحَّ وأصدق وأبلغ من عبارة: الفساد الداخلي الذي قد يستحق أن يُدْعى كذلك بالاستعمار الداخلي. باعتبار أن طبقةً أهلية سائدة حلَّت -بعد انقراض الحماية- محل رهط المستعمرين الأجانب. فكان لها النصيب الأوفر -أو حظ الأسد- في امتلاك الموارد، واحتلال المراتب، وانتزاع المغانم».

من يعنيهم الرجل النزيه الذي عاش نظيفا ومات نظيفا رحمه الله، وهو الذي غير اسم حزبه بعد الاستقلال وسماه حزب الدستور الديمقراطي، وسمى جريدته التي ننقل عنها الدستور؟ إنه يعني ولا شك طبقة الانتهازيين الذين وثبوا على جهاز الدولة وتَوزَّعوهُ نهبا مقسّماً. لكنه يعني أيضا، وقبل كل شيء الحاكِم الأعلَى الذي جلَس على «عرش أبيه» منذ سنتين، وأظهرَ ما يُكِنّه تُجاه الوطنيين المناضلين مِن نيات الإبعاد والتدجين والتهوين.

أمُّ المفسدات الداخلية، وحامل لواء الاستعمار الداخلي، الحكم. كتب الوزاني في العدد 17 من «الدستور». «وقد تحدثنا بالأخص عن أم هذه المشاكل التي بدون حلها الحلَّ الـمُرْضيَ لا يمكن حل غيرها. وما تلك المشكلة الأمُّ إلا مشكلة الدولةِ نفسِها، أو أزمة الحكم والسياسةِ فيها. وهيَ في نظرنا وفي الواقع أم الأزَماتِ المغربية على الإطلاق».

نقرأ هذا التحليل البصير المكتوبَ منذ بضع وثلاثين سنة، فكأنه وصْفٌ للحالة الراهنة. الجالس على عرش أبيه هو أم المشاكل، وحامي حِمَى المفسدين الداخليين والخارجيين. وكأنه وصفٌ يعبر عن عجز الأحزاب الوطنية المتكتلة في معارضة تدور حول نفسها وحول نظام لا يَسْمَحُ لدَخيلٍ على مخزنه أن يتحرك إلا بمقدار.

ويكتُب الوزانيُّ في العدد الأول من «الدستور» خيبةَ أمله وأمل المغاربة: «وبعبارة صريحة: إن عهد الاستقلال لم يكن بالنسبة للمغرب والشّعبِ ذلك العهد الذي طالبنا به وخضنا من أجله معركة دامت أكثر من رُبع قرن. فليس من تسمية الشيء بغير اسمه القول بأن المغرب في عهد الاستقلال عرفَ محنةً ربما أنسته ما تَحَمَّلَه زمن الاستعمار[...] إن تلك الثورة التحريريّةَ المباركة سرعان ما تغيرت بكل أسَف

واستحالت إلى ما لم يكن يظنه أحد. فأحدثت خيبة الأمل وفتورَ الحماس وفُقدان الثقة. [وذلك] ما أفرغها من مدلولها، وصيَّرهَا مع توالي الأيام والتجارب اسما بدون مُسمّىً، إلا بالنسبة للفئة التي طَفَتْ على الوجه بعد الاستقلال بوسائل المكر والاحتيال والاختلاس».

قال: «فكان لها الاستقلال استغلالا، وجعل لها غُنْيَةً ومُكْتَسَبا، واتخذته سُلّما لتتسلق به الجُدران وتصل إلى أعلى الرتب».

ويتطرق ابن الحسن الوزاني رحمة الله عليه إلى قضية تؤرقه، ألاَ وهي القضية الاجتماعية. يكتب تحت عنوان: «المحظوظ والمحروم»: «وبِسَبب ما قامت به هذه الفئة من احتكار الثروة القومية واختلاس مكاسِبها وتسخير ثروة البلاد وجَمْهَرة الشعب التي تتألف من المغلوبين والمحرومين والمنبوذين. وهم من نوع ما يُسمى «بالمعذّبين في الأرض».

قال: «أصبح المغرب في عهد استقلاله مغربين اثنين: أحدُهما مغرب المحْظوظين الذين أظهرهم عهد الاستقلال، وبَرَّ بِهم، وأغدق عليهم النّعم، ويسر لهم من وسائل الإثراء والرفاهية والتعاظُم ما جعل منهم طبقة متميزة -لا نقول ممتازة- وصيرهم -في ثرائهم الفاحش الحرامِ وعلُوِّهم على الناس واستكبارهم في الأرض- ينظرون إلى كل المخلوقات وكأنها لم توجد إلا لخِدْمتهم وإرضاء شهواتهم».

قال: «وهكذا أصبح أولئك المنَعمون في الأرض وكأنهن فقَدوا كل تمييز بين ما هو حق وباطل، وبين ما هو منفعة أو مفسدة. لكنهم فاتَهم أنهم في دنياهم أشبَهُ بالطُّحْلُب الذي لا يطفو إلا على سطح الماء الراكِدِ المتعفّنِ. كما فاتهم أن الدهرَ قُلَّبٌ ويومان. يوم لك ويوم عليك... »

قال: «والمغرب الثاني مغرب المحروم، وهم السواد الأعظم من أبناء الشعب الذين يعتبرون أنفسهم [ضحايا الاستقلال]، بل القطيعَ

الذي ليس له من حق إلا أن يؤْمر فيُطيعَ، ويُحْرَمَ فيَقْنَعَ، ويُساقَ فيسيرَ راضيا حامدا شاكرا ربه الذي لا يُحْمَدُ على مكروه سواه. هذا هو الواقع السيء الـمُؤلم الذي أراد المغربُ الأولُ للمغرب الثاني الشقيِّ العاني».

عبارات متألمة مؤلمة عن واقِعٍ ما ازداد منذ أربعين سنة إلا استفحالا. هذه الفئة الطافية على السطح، المستغِلةُ الفاحشةُ الثروة والترفِ يجيء في مقدمتها الملك الحسن. ما في مَغنَم إلا وقدْ أحرز منه نصيبَ الأسد أم الشركاتِ «أونا» هي في مِلك «أم المشاكل». هي بفروعها وشبكتها الصناعية الفلاحية التجارية المالية أم المقاولات، وأم الأبناك وأمّ المتَعهدين لإنجاز مشاريع الدولة. وإذا كان ملك الدولة هو مالِك المقاولة المتعهدةِ، ومالكُ البنك الممول، ومالك الشبكة المنفذة، فقد اكتملَت وسائل الاحتواش.

وللحاشية من الأمراء والصنائع نصيب. وللشركاء في جهاز الحكم وجهاز الاقتصاد نصيب. وللأحبَّة اليهود نصيبٌ أوفر. ما زاد الوضع منذ كتب الوزاني رحمه الله إلا تأزما، ولا «أم المشاكل» إلا طغْيَانا. ولا المحروم إلا بؤسا على بؤس.

إننا على صفحات هذا الكتاب عرضنا المشكلة الاجتماعية، وتساءلنا عما يجمعنا ويجعلنا دولةً بين الدول إن كان المحروم فينا لا يزداد إلا حرمانا والمحظوظ لا يزداد إلا رفاهية وثراء وترفا.

تحدثنا عن مبادئ العدل وضرورة إقامةِ دولته. فمع الوزاني رحمه الله، السياسي الخبيرِ المحنّكِ، نتأمل الوجْهَ البَشِعَ للفساد الداخلي، والاستعمار الداخلي، والاستقلال الاستغلال، لنعرف طبيعة الفساد وأصله ومنْبَتِه، وطبيعة العواقل والعقباتِ المنتصبةِ في الأرض، المانِعةِ أن تتجسّد المبادئ الطيبة العادلة في واقع الناس.

إنها مع الزعيم المؤمن الغيورِ النظيف رحمه الله جولةٌ في ماضي الآلام، لا مناصَ من مقارنة آلام الأمس بآلام اليوم لنشَمِّر عن ساق الجدِّ بعد الطوفان الذي أصبح ضرورة تاريخية، ولنبني بعدَ كنس الرُّكامِ مستقبل العدل الذي لا يضامُ. ضرورة تاريخية؟. أستغفر الله، بل هي سنة الله في القُرى الظالم أهلها. قال تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِداً**﴾[1]. وقانا الله شر الظلم والظالمين.

يُحرك فينا حُزنُ أمْسِ الذي يتحدث عنه المؤمنون أحزان اليوم بعد أن تضاعفت المؤلمات الـمُخزيات، وازدادت تعفُّناً أجهزة الحكم، واتسعت رقعة الفساد وهُوَّةُ الفوارق الاجتماعية بين محظوظ ومحروم. شَعَرَ محمد المختار السوسي بالوحشة والغربة في عهد الاستقلال، وغضِب الكتاني، وامتعض الخطابي من «الاحتقلال»، وندَّدَ علال بـ«المسخ»، وتأوه معنينو من فظائع دور الفظائع. وها هو الوزاني يكشف لنا عن مباذل إدارةِ «الاحتلال الداخلي» ورذائله، وطوامِّه.

كتب رحمه الله في العدد الأول من «الدستور» هذا الجرد الواسع. قال تحت عنوان «أزمة الدولة»: «وإذا كان يتعذر الآن الحديث عن كل ما للمغرب من أزمات، فجدير بنا أن نذكر الخطوط العريضة ممَّا سميناه بأم الأزمات أو أزمة الدولة. وهي تعني: ضَعف الإطارات وهُزالها وعجزها، وانتشار الرشوة والسمسرة، واستغلال النفوذ، وتسخير الوظيفة العمومية للإثراء غير المشروع، والمحسوبية، وإضاعة الأوقات والأعمال، وإتلاف المواد، وتبذير الأموال، والفوضى داخل الإدارة، وانحلال السلطة، وفقدان الحرمة والهيبة لدى الحكام، والمماطلة والتسويف في التنفيذ، والارتجال والتردد، والعجلة في التدبير».

(1) سورة الكهف، الآية: 59.

قال: «والاختلال في التسيير، والهروب من المسؤوليات، واتخاذ الحلول السهلة، والتغيب عن الوظائف في أوقات العمل الرسميّ، وتحويل المكاتب الإدارية إلى أندية للتلاهي وتجاذب أطراف الحديث وقراءة الصحف، أو إلى مقاصفَ لشرب الشاي والقهوة وغيرها وأكل ما لذ وطاب أثناء أوقات العمل الإداريّ وعلى مرأًى ومسمع من الروَاد الذين يقصدون الإدارة في صالح الدولة أو لصالحهم».

قال: «ومعاملة الناس -غير الأجانب- ومخاطبتهم بغلظة وغَطرسة وجفوة وخشونة، وفقدان ما يسمى بالشعور المهنيّ الذي يجعل الموظف واعياً لواجبه، مقدراً لمسؤوليته، مؤدياً لأمانته، والتمييز العنصريّ أو الحِزبي في معاملة الرؤساء المرؤوسين أو معاملة الناس في صلتهم بالإدارة، والبراعة في التزوير والتدليس والتفنن في ابتزاز أموال الناس، واختلاس ما للدولة من أموال وموادَّ عن طريق استغلال النفوذ، وتسخير الوظيف مما يَدر على بعضهم مآت الملايين بل المليارات -فيما يقال- وإرهاق الميزانيات بمصارف الحفلات والضيافات والرحلات والتبرعات والوفود، والتفاخر بهذا كله في غير حشمة ولا خجل، والتظاهر -في غير خشية من العقاب- بالثراء الفاحش والرفاهية المكشوفة».

قال: «وكثرة الإجراءات الشكلية والروتينية المعرقلة للأعمال والمضيعة للأوقات والمكلفة للمصاريف، ونقص الإنتاج الإداري بسبب سوء التصرف والغش، والخلل في الأعمال، وقيام الإقطاعات السياسية والإدارية داخل الدولة، وتسرب الفساد الخلقي، والإعراض عن عبر ودروس التجارب الماضية، وعدم الاكتراث بالملاحظات والانتقادات الوجيهة، وازدراء الرأي العام، واستطابة الحياة في الأبراج العاجية والفيلات الفخمة، والتصابي السياسيّ: أي

إتيان أعمال وتصرفات ذات طابع صبياني، وعدم إضفاء حلة الجد والوقار والهيبة على الوظيفة والسلطة».

قال: «فهذا بعض من كل، وقليل من كثير يرسم لنا لوحة مختصرة الخطوط والألوان لفساد الجهاز الإداري، بإطاراته إلا النادر منها الذي لا حكم له. وهذا الفساد يؤلف عنصراً أساسيا في أزمة الدولة».

قال: «وهي أزمة تنذر بسوء المنقلب والمصير لا قدر الله».

ويضيف رحمه الله تحت عنوان «لا حَلَّ بمعجزة»: «ومن المؤسف بل من المؤلم أن يفتضح أمر الفساد، وتشتهر عناصره، وتنكشف أخطاره وتستشريَ إذاياته، وتبحَّ الأصوات في التظلم والشكوى، ولا تتحرك همة المسؤولين الذين بيدهم الأمرُ لوضع حدّ نهائي لذلك الفساد والضرب على أيد المفسدين الكبار منهم والصغار على السواء. [...]

قال رحمه الله: «وفي انتظار معجزات لا تقع نقيم البرهان قوياً على أننا عاجزون عن كل إصلاح».

قلت: وكيف يُصلح المفسدون، وينقلب الداء دواء؟

وننهي هذا الفصل بالترحم على الصالحين من عباد الله. رحم الله تلك الطائفةَ من المسلمين الوطنيين من جيل العظماء: المختار والخطابي وعلال والوزاني، وسائِر فرسان الوطنية المؤمنة الأبرار. آمين.

خاتمة

ختم الله لنا ولكم بالحسنى. وجعلنا وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه. أحسن القول قول الله، وما دعا به وإليه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قول الله وعْدُه المؤمنين والمؤمنات بالنعيم المقيم في الدار الآخرة. قوله العزيز وعيده المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها بعد موتة غبية ختَمت حياة شقية.

جاء وعده سبحانه في سورة التوبة -وإلى التوبة كنا ندعو أنفسنا والناسَ منذ حين- في قوله تعالى ﴿**وَعَدَ اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[1].

وجاء وعيده سبحانه في نفس السورة في قوله العزيز الحكيم: ﴿ **وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**﴾[2].

قال الله، وسَمع من هداه الله بسمع قلبه. تداركه الله بيقظة قلبية، وتوبة انقلابية.

قال الله، وأعرض عن ذكر الله من طُمِسَت فيه الفطرة، وطُبع على قلبه طبعا، وجُعلت على بصر عقله غشاوة. خَبُثَت النشأة وعَطُنَ الـمَنْشأ، وأفسدت رفقة الأشرار، وسبقت البيداغوجيا الملَحّدةُ إلى مجامع التربية، فمن يهدي المنافقين والكافرين المرتدين من بعد الله؟

---

(1) سورة التوبة، الآية: 72.

(2) سورة التوبة، الآية: 68.

قال الله، وسمِع المؤمنون والمؤمنات لَمّا كانت أولَ غَرْسةٍ في تُربة الفطرة كلمةُ الله الطيبةُ. جلس المؤمنون والمؤمنات في السن الطرية إلى لوح القرآن ومصحف الترتيل ومعلم الخير. جلسوا كما جلس الذين كان الإيمان، والإيمان وحده شعار حياتهم ومَنار هداهم ورائد بطولاتهم. أولئك الطيبون المجاهدون في سبيل الله الذين تعطر تاريخ الإسلام بِعَبَقِ طهارتهم: محمد صلى الله عليه وسلم والنبيئون قبله والخلفاء الراشدون والعترة النبوية الشريفة وأئمة المسلمين وعلماؤهم العاملون وأولياؤهم الصالحون.

ذكرنا منهم في هذا الكتاب رجالا قريبين منا زمانا ومكانا، لصيقين بموضوع كتابنا وتاريخ ماضينا في هذا القطر وحاضرنا: ذكرنا الخطابي وعلالا والسوسي والكتاني وعبد العزيز بن إدريس ومعنينو والحافظ الدكالي وابن العربي العلوي وسائر مؤسّسي الحركة الوطنية رحمهم الله.

كانت كلمة الله الطيبة في الكتاب القرآني أولَ ما قرع أسماع رؤوسهم، وتطرَّق بحفظ الآيات وحضور الصلوات وعشرة أهل الإيمان عاملي الصالحات إلى أسماع قلوبهم.

كان القرآن غذاءهم القلبي والعقلي واللغوي والخُلُقي والروحي والسلوكي. لا جَرَمَ ترسَخ في نفوسهم معاني الإيمان، والإيمان وحده. لا جرم يكون وعد الله المؤمنين والمؤمنات التائبين والتائبات بديهة من بديهات تفكيرهم وعقيدتهم. لا جرم يكون العمل الصالحُ المنوطُ به الوعد الإلهي مطلب حياتهم. ويكون العمل الفاسد الـمُرْدي المنوطُ به وعيد الله المتلوُّ في القرآن ظلاما يَشمئز منه الكيان المؤمن وينفر ويفِرّ.

يتلو المؤمن والمؤمنة الآيات من سُورة التوبة فيتلقّى من كلمة الله المبشرةِ المنذرة عِلم ما ينفع في الدنيا والآخرة وما يضر، علم ما يفتح

أبواب الجنة وما يحشر إلى النار، علم ما يجب على المؤمنين والمؤمنات وما يحرم عليهم.

استحق المؤمنون والمؤمنات ما جاء في وعد الله، والله لا يخلف وعده، لوفائهم بشروط العقد المفصل في الآية 71 من سورة التوبة: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَـئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾.

وتلقّى المؤمنون والمؤمنات الوعد وشرطه مجتمعين غير منفصلين. منسجمين غيرَ متناقضين. شخصيات تامة غيْر منشطرة. عقول كاملة لم تشقِّقها عوامل التَّشظية في مدارس الاستحمار. عقلانية تعقل عن الله وتبصر بعين الإيمان جزاء الله ووعده في عالم الغيب، فتنصرف في عالم الشهادة مبصرة بعين العقل الساعي في الأرض جنبا إلى جنب مع سائر الناس مواقع الخطإ والصواب تنصرف ومعها معيارُ الخطإ والصواب من تنزيل الله لا من وضع المنهجيات التطورية الصماء البكماء عن الحق.

تنصرف إلى العمل الصالح بمعيار الإيمان، والإيمان وحده لتُزاوجَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالصلاة والزكاة. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مشاركة واجبة، شرط جامع لواجب المؤمنين والمؤمنات في السعي لإقامة الحكم بما أنزل الله من شريعته. والصلاة والزكاة شرط مانع أن يُحسبَ من الإسلام نظامُ حكم لا ينبع من القرآن في سياق القرآن. شرط مانع أن تستحق الوعد من الله ديمقراطية لاييكية الفاعلون فيها القائمون عليها لا يصلون ولا يزكون.

طاعة الله الجامعة المانعة، وشرطه المشروط، لا تفريق فيه بين سياسة ودين. صَمّت عن نداء الإسلام آذان تسمع الدين طقوسا منبوذة مثلما قر في الذاكرة المصنّعة المدجنة في طاحون الاستحمار أن تراتيل الكنيسة ظلم وبهتان من واجب العقلاء أن ينابذوه وينبِذوه.

وخرِست عن الحق ألسن غنت في طفولتها المبكرة أنشودة الراهب «فريرو جاكو»، ولم تقرأ سورة الإخلاص.

أظلمت عقول وغُمَّ على قلوب رباها واحتضنها وافدٌ قَسْوَرةٌ افتَرسَ حُمُراً مستنفرة. افترس عقولها وامتص دماء فطرتها وترك الواحد منها والواحدة قمقما منتفخا.

قُمْقُمٌ منتفِخٌ مسجون فيه عفريتٌ مُمْتَسِخ مُتَّسِخ، لا يسمع تحذير الله عز وجل ولا يعبأ بوعيده المنافقين في قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**﴾[1].

قال الله، وسمع المؤمنون والمؤمنات وأبصروا، واستَغْشَى المنافقون والكفار والمرتدون ثيابَ مقتنياتهم الإلحادية، وجعلوا أصابعَ «موضوعيتهم» «العلمية» في آذانهم، وأصروا واستكبروا استكبارا. فما سمعوا ولا أبصروا، بل عَمُوا وصَمّوا.

قال الله، وسمع المؤمنون والمؤمنات أن المؤمنين والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، تجمعهم آصرة الأخوة الإسلامية وتدمجهم الوَلاية الإيمانية أمة واحدة، لها كتاب واحد ونموذج نبوي في الحكم واحد.

النموذج النبوي بشر به الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه الصحيح الذي أخبرنا أنها تكون نبوة، ثم خلافة على منهاج النبوة، ثم

(1) سورة التوبة، الآية: 68.

عصورا يسود فيها حكم العض والجبر، لتعود بعد ذلك الخلافة على منهاج النبوة ويسود القرآن وحكم شريعة القرآن.

ويلتقي وعْدُ الله الأخروي الذي قرأناه في سورة التوبة ببشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلافية، فيتكامل عند المؤمنين والمؤمنات اليقين بما هم منصرفون إليه من عبادات الصلاة والزكاة باليقين بما هم مجاهدون لتحقيقه من عبادات إقامة دولة الإسلام على قواعد شريعة الإسلام وشورى الإسلام.

ربطٌ محكم يقيني في عقيدة المؤمنين والمؤمنات، وجهاد المؤمنين والمؤمنات، وعبادة المؤمنين والمؤمنات، بين شؤون الدنيا والآخرة، بين السياسة والدين.

ويلفق غيرُهم شبكة تفكيره، ومذهب حياته، ومعيارَ حكمه، ونظام حكمه المقترَحَ الممتنِعَ تحقيقه في بلاد المسلمين: ديمقراطية تضمن حرية لبرالية، حرية لبرالية تبرئنا من تهمة «التطرف الإسلامي» في عين أساتذتنا هناك، وتجلب التبرئة تمويلا واستثمارا، وينتج الاستثمار ثروة، ويُعطي الازدهار الاقتصادي استقرارا اجتماعيا سياسيا.

منطق وعقلانية. ويلفق القمقم المنتفخ لنفسه نسبا في الوطنية يعززه بتاريخ نضالية حقيقية أو وهمية لترتفع له في سماء الأمجاد السياسية أعلام، ولتنتصر به أنصاب للنفاق وأزلام.

الذات الملفقة المبعثرة بنيان تزلزله هبة ريح. والنسب في الوطنية، المنحرفُ عَن روح الجهاد الوطني، المنْجَرف عنه، إنما هو وِعاء فارغ من قوارير.

تأبى القوارير أن يَذْكُر النسبَ الصحيحَ للوطنية ذاكر، أو يحفِرَ عن منعرجات الانحراف عن تدين العلماء المؤسسين حافر.

تنادي القوارير القمقمية بحوار يرفُقُ بها، ويعظِّمُ حُرمة الجثمان المقدس، ولا يشير إلى تعفن الجثت المحرجة.

لسان الحال يستعطف ولو زمجر وأرعد وأبرق لسان القال على صفحات الجرائد ومنتديات الثقافة النضالية المعادية للإسلام.

حال يتوسل بشبه ما قال الشاعر:

ارفُقْ بذكرك عَمْرا عند نِسبته   فإنه عـربـي من قـواريرِ

ومن المناضلين من هو وطني من قوارير.

يربط المؤمنين والمؤمنات بالله وبرسوله رباط التقوى. ويربط اندماجهم الاجتماعي الوَلاية الإيمانية الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر. والرباطان رباط واحد واصل.

بينما يبحث الأصلاء في الوطنية العريقون فيها عن رباط يصل الماضي بالمستقبل من خلال «ذاكرة تاريخية» يكونون هم جسور تلقينها لجيل الغد.

ربط زمان بزمان، وتاريخ وذاكرة، وهُوَيّةً وحضارة، وثقافة «لا نتنكر لها»، وعقلانية هي الديمقراطية أم الفضائل. لا يبصر الأصلاء الذاكرةُ التاريخيةُ -أو لا يريدون أن يبْصروا- ما في أحشاء الديمقراطية من جنين اللاييكية اللادينية.

أين نحن من صفاء بِلَّوْرة الضمير الإسلامي الوطني عند سلف الوطنية العلماءِ الذين رباهم سلَفٌ مؤمنون، عالمون في القرويين!

مـن ربـط العبـاد بربهـم وربـط العبـاد المؤمنـين بعضِهـم ببعـض الإيـواء إلى الركـن الشـديد: كتـاب الله عـز وجـل في القـال والحال. في الحال والقـال.

***

إن استعملنا الكلمة الغليظة والعبارة البليغة والوصف الخَشِن فما حِدنَا عن شِرعة القرآن ومنهاج السنة. بل التمسنا وسائل البلاغ والتبليغ من تقليدنا الخطاب النبوي والأمر القرآني. عسى تسْتيقظ أفئدة وتستنير عقول وتتوب أنفس.

ائتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر ربه عز وجل في خطاب الكافرين والمنافقين، فأغلظ القول وأنْكَى بالزجر الخشن. قال الله تعالى لنبيه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾[1].

قال الله، وسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقلَّدنا.

لَمْ نأْتَلِفْ لأدبيات الحوار «الحضاري» الرقيق الحاشية المهذب الملاطف المتعاطف الذي يصطنع المصطلح الدارج المعقَّم، لا طعم ولا لون ولا ريح. ومن يقرأ القرآن ويألف المصحف يجد التقريع المؤلم البليغ. ويجدُ الأمر المشدد في شأن الكفار المنافقين. القرآن بخطابه الزاجر الغليظ للمنافقين والكافرين سِلاح جهاد. إن لَمْ تفْلِحْ آية: ﴿**ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[2]، فآية: ﴿**أُولَـئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً**﴾[3] هي الكلمة.

والتلَف لمن عن شرعة القرآن اختلف.

جهادنا جهاد كلمة. والقلة الذليلة من المرتدين في بلاد المسلمين لا يكاد يَجرؤ أحدهم على الجهر بردته وإلحاده. نفاقا سياسيا ليخْتُل

(1) سورة التوبة، الآية: 73.
(2) سورة النحل، الآية: 125.
(3) سورة النساء، الآية: 62.

الرأي العام المسلم، وليَختلس بالجبن الساتِر ما لا يستطيع اقتناصهُ كفاحا في بلاد المسلمين بالكفر السافر.

جهادنا كلمة، والكلمة القرآن.

والنداء من حاضر الأزمات والكوارث الرديئة إلى مستقبل الإسلام، وعدل الإسلام، والعزة بالله، والطهارة بسنة رسول الله، إما يكون بلغة القرآن وبيان القرآن، وإما يهرف الهارفون بما لا يعرفون.

****

قرآن، ومصحف، وأخلاق، وعبادة في الصلاة والزكاة والحكم وسياق الحكم الشوريِّ، واستعداد للقاء الله، وتصديق بوعد الله ووعيد الله، واستغراق الجُهد وأيام العُمْر لنخرج من الدنيا تائبين لله بعد أن بذلنا الـمُهج في نصرة دين الله.

ذلك نِداء المستقبل الإسلامي الذي لباه من سبقونا بالإيمان رحمهم الله وألحقنا بهم مسلمين.

والعقبات أمام إرادة التلبية والطاعة تتعاظم زمانَنا هذا زمان الثورة الإعلامية المعلوماتية الجائحة الطافحة بإغراء المتعة المصورة، وبحُمَّى التواصلية المثيرة للقاصي والداني، وبشِباك الشيطان المتمثلة في السوق الـمُعَوْلَمَة، وفي الاستكبار العالمي.

قرآن عربي مبين يخاطب قوما يعقلون عن الله في آياته المنزلة في الكتاب المكنون، وفي آياته المنشورة في كتاب الكون وما يحدث فيه من تقلبات، وما يزخر به من فتن، وما يُدار فيه من قُوىً يَظهر دورانها فوضى وغلابا ونهْزَةً أو نزهة لقوم لا يفقهون. ويبصرها المؤمنون والمؤمنات إدارة إلهية وَفق سنة الله في العباد، الجارية بهم عبْر رحلة الأعمار إلى معاد.

قرآن عربي مبين وأخلاق وإيمان وشريعة لندخل المستقبل ولنصمد أمام تحدياته المادية السوقية، ولنقف بثبات أمام بلاء الله المتجدد في رياح التواصل اللاّمادي، ولكيلا نبقى كما نحن لقمة لكل ماضغ وسوقا استهلاكية لكل صانع مبدع نابغ.

العقلاني التطوري التقدمي يحب كل جديدٍ من مُبدَعات الناس في الصناعات والعلوم والقانون وأنظمة الحكم. يعتبر اصطناع الحداثة بمظاهرها وأنظمتها في الحكم والقانون وسائر شؤون الحياة خطوة حاسمة لإخراج الأمة من دنيا التخلف الغيبي اللاعقلاني الخرافي الذي يؤمن بالله وباليوم الآخر إلى مستقبل الإشراق الحضاري المتألق في سماء مجد الإنسان على الأرض.

يحسِب التطوري ويقول: الدين في فجر القرن الحادي والعشرين! القرآن في عصر الحاسوب!

يحسب ويقول ويتعجب. ويزداد تعجبه عندما يرى قلاع بيداغوجيته ومعاقِل فكره تتهاوى والحمد لله في جامعاتنا ومدارسنا.

دعه يجتر آلام حاضر هزائمه وذكريات مجده النضالي الغابر!

دعه يلعقْ مآسي حاضره وانسداد أفق مستقبله!

وانظر معي إلى آفاق مستقبل أمة عريقة في الحضارة، حملت زمان عزها رسالة الإسلام للعالمين أمينة عليها. وهي اليومَ وغداً –في مسيرة شاقة شريفة شرفها من مشقتها ومشقتها من علو طموحها– متعرضة لوعد الله: ﴿**وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً**﴾[1].

(1) سورة النور، الآية: 53.

سِماتنا الحضارية العريقة، وخصائص شعوبنا، وثروات أرضنا، وفساحة جغرافيتنا، وكتلنا البشرية العظيمة، وتميُزُنا بين الناس، وهيبة ديننا الذي يخيف بصحوة شبابنا عالَمَ الناس.

لا وزن لكل ذلك في مستقبل العالم إن لم تستيقظ القلوب بعد صحوة، وإن لم تُرَب الأدمغة النابهة وتدرَّبْ على الصراع العلومي التكنولوجي التنظيمي الإداري التجاري الصناعي المعلوماتي التواصلي المادي واللامادي. لا وزن لكل ذلك إن لم تزوّد الأجيال الناشئة بالثقة في الله، وبالعلم بما أنزل الله من كتاب وبما سن للعالم من أقدار الأسباب والمسببات.

وميدان التربية والتعليم والتدريب المدرسة والجامعة والتلفزيون وأدوات الاتصال.

ميدان المعركة الجهادية المتواصلة المدرسة والجامعة والتلفزيون وشبكات الاتصال الغازية العقُولَ والنفوس والبيوت والأسر والمجتمعات والقِيَمَ عبر الأقمار الصناعية والصحون المقعرة والأنترنيت وما يجد غدا وبعد غد من بلاءٍ ذكي، ظاهر وخفي.

***

إن مَرضت الأحزاب السياسية والطلائع النضالية المختلفة بالربو والسعال المزمن وفقر الدم من جراء اهتراء الإديولوجيات وبِلَى الهياكل، فهذه إديولوجية المستقبل وهياكله ودينه وأفقه: المتعة المصورة، والسبْح اللانهائي في عوالم الخيال مما تنتجه هوليوود واستديوهات اليابان والمكسيك ومصر، زاد يستهلكه الفقراء في جنوب الكرة القرية. يستهلكونه ويستهلكهم.

ويسبح في عالم المتخَيَّل «المحتمل» «الفرتوِيل» الأغنياء الكاسبون القادرون على اقتناء الحاسوب وكل جديد من مُضافات الحاسوب وخادماته: التلفون والموديم وما لا ينتهي من مبرمَج ومبرمِج في هذه الأنظمة السحرية.

مع القيادات التي صُنِّع عقلها في طواحين الغرب لا تدري إلى أين ينتهي بك السير. هذه «الثوابت» التي يلهج بها الصائحون بالشعارات لا ثبات لها، بل لا وجودَ، في عالم التغيير المعلوماتي الإعلامي الربوطي الطائر، السكران بالسرعة، المجنون بالسرعة إلى غير وِجْهَة.

بالإيمان، والإيمان وحده تلبي نداء الله وبلاغ رسول الله صلى الله عليه وسلم. على ثِقَةٍ تكونُ من وعد الله. مطمئنا تثْبت في مَجْرَى مَا يخلقه الله من أعمال العباد المخترعين الهائمين. فتح الله عليهم البلاء علوما وصناعة وتكنولوجيا، وابتلانا بالفقر والعوز والتخلف والتظالم.

مطمئنا تثبت في مجاري القدر وتشمر عن ساعديك لتعيد بناء المتداعي من الأخلاق، والمنخرق من الاقتصاد، والفاسد من أساليب الحكم، والمتعفن من دواليب الإدارة وناس الإدارة، والمتفاقم من التظالم الطبقي.

كل ذلك والمناخ العالمي معادٍ لك لا يدري أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون. كل ذلك والهجوم شامل عليك في ميادين الاقتصاد والثقافة والسياسة والفكر.

مطمئنا تقوم لله بشهادة القسط والعدل والجهاد والثبات على ملة الإسلام بين الناس. وتبني مع البناة صرح أمة كانت عالمة فجهلت، واحدة فتعددت، متآلفة فاستوحش بعضها من بعض دويلاتٍ ممزّقةً، وأثوابا مُخَرّقة.

تبني مطمئنا ثابت الخطى مع البناة السائرين صرح أمة كانت إماما للناس في الدنيا فأصبحت مأمومة، سابقة في الناس فباتت مأمومة، جيلا شامخا في الدنيا فتحولت غثاء كغُثاء السيل.

كثيرٌ هم القوالون والحالمون بمستقبل للأمة مشرق، قليلون من يفعلون ما يقولون: من يطبقون عمليا وسط الزعازع والمثبطات مبادئ الصدق والمثابرة والعزم المقتحم والفضيلة والإيمان.

نحن وإياكم معاشر الفضلاء عابرو سبيل. رحل العلماء العاملون المؤسسون الحركةَ الوطنية ولَقُوا رَبهم. نرجو لهم الرحمة والمغفرة. أفنبقى من بعدهم عبدَةَ أطياف وسَدَنةَ ذكريات وحُفّاظ متاحف؟ أفنكون من بعدهم ورثة لعناتهم ولعنات الأمة ولعنة الله نخون أمانة الإسلام ونتّجر بشعارات الوطنية؟

هلموا، ويْحكُمْ! إلى كلمة سواء نتعاون على البر والتقوى وعمل صالح نجده في صحائفنا غدا يوم نلقى الله كما لقيه من قبْلَنا، وتجد الأمة عواقبه الحميدة في مستقبلها. نبني على أساس التقوى، ونسير في سياق الإيمان، والإيمان وحده، ونتطلّع لأفق أوسع من الحسابات السياسية الحِرَفية الدنيويّة الفانية.

استعملت كلمة «ويح!» وهي كلمة تنبيه وتودد وتحبب. لا كلمة شتم واستعلاء كما ظن الظانون حين نعتنا من نريد محاورتهم بالفضلاء. تُرْجِمتْ «الفضلاء» إلى اللغة الفرنسية المشرفة في لوائح المغربين، ثم أعيدت إلى العربية من طريق سوء الظن، فقيل: كلمة سخرية وتحقير.

سر على بركة الله يا فتى الإسلام وعلى خُطى نبيك والصالحين من عباد الله المنيبين إلى الله. اتخذ القرآن العظيم دستور حياتك، فيه الهُدى والحكمة. اتخذه رفيق عمرك وأنيس وحشتك القلبية في عالم الحس

والضجيج المصور الطوفاني. اترك صحبة الأشرار، وسر مع الأبرار، واحذر أن تلتقطك خراطيم الدنيا فتلتقم دينك ومروءتك فتهلكَ مع الهالكين. الهالكون شغلتهم الدنيا وغرتهم زينتها فنسُوا الله فأنساهم أنفسهم. أنساهم أنفسهم، فلا يطرحون على أنفسهم السؤال الضخم، السؤال الصاعقة: الموت وما بعد الموت. نسوا الله فأنساهم أنفسهم، ويئسوا أن يكون ثَمَّ جواب عن السؤال الكبير، والنبإ العظيم الذي هم فيه مختلفون.

لا تلتقطْك الدنيا ولا تغرَّك. لا تكن لُقَطة طريحةً في زُقاق الحياة، على قارعة الحياة. لا تكن دابة هائمة لا معنى لها ولا وِجهة. ﴿**قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ**﴾[1]. أقم الصلاة وآت الزكاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر. وتقدم إلى رضوان الله مقتحما العقبات مجاهدا في سبيل الله.

وأنت يا فتاة الإسلام، يا أخت الإيمان، كوني مدرسة تربية الإيمان وحفظ الفطرة من العبث لتكوني أم المستقبل الإسلامي وحاضنته الأمينة عليه الوفية له. كوني أمة الله المطيعةَ لله. علِّمي أجيال المستقبل كلمة لا إله إلا الله، ومقتضيات أن محمدا رسول الله. علميهم القرآن. علميهم محبة الله ورسوله.

اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم. وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين. إنك حميد مجيد. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

***

(1) سورة الممتحنة، الآية: 13.

الفهرس

الفصل الثاني

البواعث والأهداف

الفصل الثالث

رواد التربية المضادة

الفصل الرابع

من أسس المقاومة؟

الفصل الخامس

اليَسار والتقدمية

الفصل السادس

ما يجمعنا؟ ما يفرقنا؟

الفصل السابع

من أخذ المبادرة من يد المؤسسين؟

الفصل الثامن

البحث عن الذات المبعثرة

الفصل التاسع

«الاحتقلال»

yassine.net